

ابراهيم الكاتب

ابراهيم عبد القادر المازني

الطبعة الاولى — على نفقة دار الترقى للطبع والنشر بالقاهرة

سنة ١٣٥٠ هـ — ١٩٣١ م

الثمن ١٠ قروش

مطبعة دار الترقى بشارع السياحة بمصر

جدول الخطأ والصواب

صفحة	سطر	الخطأ	الصواب
٢٧	١٤	نفسه	على نفسه
٢٩	١٩	كان سلوكه	وكان سلوكه
	٢٠	يدها	بعدها
٥١	١	كأنهما	كأنما
٦٠	٤	أو	و
٦٢	٨	وجهه	قلبه
٦٣	١٣	غرفتى	غرفته
١٤٧	٢٠	امرة	أمرك
١٨٩	٧	ظلم	يظلم
٢٠٧	٤	وعاطفته	وعاطته
٢٠٩	٢	حدها	وجدها
	٣	عنى	على
	١٧	يشر	يشرد
٢١٠	١٠	يلاطفنى	يلا طفننى
	١٤	لاستقباله	لاستقبالى

صفحة	سطر	الخطأ	الصواب
٢١٠	١٤	بوجوده	بوجودى
٢١٢	١٢	امرأة	الجرأة
٢١٦	٥	الشبات	الثبات
	٩	تختط	يختلط
	١٥	وطلما	وطلسما
٢١٧	٧	صقالتها	صقالها
٢٢٣	١	وهزت	وهزت كتفها
	٢	وو	أوو ...
٢٢٨	١٤	أون	أو أن
٢٣٤	٦	ومحاله	ومحال
٢٣٥	١٢	صددها	صدرها
٢٤٢	١	نهضم	تهضم
٢٤٣	٦	نبويه	بنوية
٢٥٨	١٥	على مايدل	مايدل على
٢٦٤	١٢	بتعذب	يتعذب
٢٦٧	٦	لدنيا	الدنيا
٢٦٨	١	وسالتان	رسالتان
٢٧٠	٩	العيد	البعيد

صفحة	سطر	الخطأ	الصواب
٢٧١	١٩	يستبر	يستعبر
٢٧٣	٥	الشيخ	الشيخ على
٢٨١	٣	بلحة	بلهجة
٢٨٣	١	ينساء	ينساه
	٦	انتقض	انتفض
٢٩٣	٧	ضطربت	اضطربت
٢٩٨	٢١	ونعم	نعم
٣٠٠	١	الفاجىء	المفاجىء
٣٠٥	٥	تعد	بعد
٣١٤	١٣	وانفاسه	انفاسه
٣١٧	١	تمراءة	بقراءة
٣٢٢	٧	سى	نسى
٣٤٩	٢٢	الخاد	الخادم
٣٦٠	-	ه أن	وأن
٣٦٣	١٦	[illegible]	مقلوبا

كلمة الناشر

لعلى لا أبالغ اذا قلت أن الرواية التى أنشرها للأستاذ ابرهيم عبد القادر المازنى تزيد على أن تكون شكلا جديداً من أشكال الادب لم يكن معروفا فى لغة الضاد الا على صورة ساذجة هى أقرب الى السرد المجرد عن تزاويق الفن وصدق أثره ونفاذه الى ما وراء الحادث واستشفافه طوايا النفوس ، مثل قصة عنترة بن شداد وما يشبهها

أقول انى لا أقدم شكلا جديداً من الأدب فحسب ، بل أفخر بأن رواية الاستاذ المازنى فتح جديد فى الأدب العربى : لا جدال فى ذلك ولا مبالغة

فهذه الرواية فوق استيفائها كل ما يجعل الأدب فناً سامياً تبلغ أن تكون بحثا بسيكولوجياً ، يعرض بالتحليل لمشكلة الحب الأبدية ، تلك التى لا ينتهى فيها الكلام ، ولا تنتهى الانسانية الى رأى حاسم يحل لغزها . .

وفق الاستاذ المازنى فى شرح فكرة أن المرء قد يحب أكثر من امرأة واحدة ، يحبهن جميعا ، لا يملك قلبه ، ولكن [illegible]

من قلبه جانب ، فيجيء الحب صادقا وكأني بالاستاذ يفض أغلاق قلبه ويقص علينا لمعة من تاريخه العاطفي . .

فان «ابرهيم الكاتب» فيه من ابرهيم عبد القادر المازني مشابه • وعلى كل حال سنترك للقارىء أن يستطيب ذلك الاسلوب الرائع في سرد قصة تستهوي وتصرف الفكر الى آفاق بعيدة وتفتح القلب لاستلهام موحيات فاتنه . والأمل وثيق بأن هذه الرواية ستلقى من الرواج ما لقيه كتاب «صندوق الدنيا» الذي نشرناه للأستاذ المازني ، ونفدت طبعته الأولى في زمن وجيز . !!

احمد نجيب
صاحب دار الترقي للطبع والنشر

القاهرة في ١٤ ربيع الأول سنة ١٣٥٠ — ٢٩ يوليه سنة ١٩٣١

الإهداء

الى التى لها أحيا، وفى سبيلها أسعى، وبها وحدها أعنى

طائعا أو كارها

الى نفسى

إبراهيم عبد القادر المازنى

مقدمة

بدأت هذه الرواية فى سنة ١٩٢٥ ، ثم عدلت عن اتمامها والمضى فيها وبها إلى غايتها ، ونسيتها الى شتاء ١٩٢٦ ، فاتفق فى ذلك الوقت أن عرفت سيدة نمسوية تزاول الصحافة والتعليم فى آن معا ، وتوثقت بيننا الصداقة على الأيام — فقد طال مقامها هنا — فأطلعتنى على صفحة من حياتها حافلة بالكروب والمتاعب ، ولما كنت لا أعرف لى ، مع الأسف ، تاريخاً يستحق الذكر أو حياة جديرة بأن يصغى اليها ، أو يطلع عليها السامع أو القارىء ، ولما كنت معها فى موقف يتقاضانى أن أجازيها بثاً ببث ، وأن أقول بشجوى كما قالت شجوها فقد ركبنى عفريتى الذى استراح الى كتفى واطمأن الى استسلامى منذ شاء الله فى مده ، فقصصت عليها حكاية الرواية — كما كنت أنوى أن أكتبها — وزعمت أن هذه قصة حياتى! ولما كانت حياتى مستمرة فقد احتجت — وأنا أسرد عليها هذا التاريخ المبتدع — أن أجعل الختام باباً مفتوحاً.

ومن هنا كانت تسمية الرواية « ابرهيم الكاتب » ، ومن هنا أيضاً جاء ختامها — كما يرى القارىء — ختاما يصح أن يتخذ بداية جديدة .

ولست أحتاج أن أقول إنى لست « بابرهيم » الذى تصفه الرواية ، وان هذا المخلوق ما كان قط ، ولا فتح عينيه على الحياة إلا فى روايتى ، . . ثم إنى لست أرضى أن أكونه ، فما تعجبنى سيرته ولا مزاجه ولا التفاتات ذهنه ، وقد ندمت على خلقه بعد أن سويته فلو كان دمية لحطمتها وطحنتها، ولو كان صديقاً لجفوته ونبوت به ، ذلك انه يتناول الحياة باحتفال ، وأنا أتلقاها بغير احتفال ، وهو يعبس للدنيا ، وأنا أفترها عن أعذب ابتساماتى ، وأحس السرور بها يقطر من أطراف أصابعى — كالعرق — وهو مغرى بالتفلسف ، وأنا أعد الواحد من هذا الطراز مرزوءاً يستحق المرثية ، وهو وعر متكبر وأنا سمح متواضع ، وهو عنيد وأنا ريض سلس ، وهو نفور وأنا عطوف ، وفى نفسه مرارة وأنا مغتبط بالحياة راض عنها قانع بها ، وهو كأنما يريد أن يخلق الدنيا والناس على هواه . ولذلك تراه قليل التسامح ضيق الصدر . وأنا لا أرى فى الامكان أبدع مما كان ، ولست مثله أؤمن بالتثليث فى الحب أو الكره ولم أمرض قط بالنيمونيا الخ الخ . . . فليس بيننا ، كما ترى ، من تشابه سوى أن كلينا قصير قمىء ، وأنا أزيد عليه أنى أصبت بالعرج فإذا كان هو المصاب به فأنا الناجى المعافى !

واطول ما مر على الرواية وهى ملقاة فى مكتبى . . . . وكدت . .

وزهدت فى نشرها ، فاقتطعت منها فصولاً نشرتها مستقلة ، فالآن ردت هذه الفصول الى الأصل الذى انتزعت منه ،

ولما شرعنا فى اخراجها ضاع بينى و بين المطبعة كثير من ورقاتها ، وأنا امرؤ رأسه كالغربال الواسع الخروق ، اعنى أن ذاكرتى خوانة فلم أدر ماذا أصنع ، وحرت كيف أسد هذه الثغرات فى رواية كتبتها منذ سنوات ثم نسيت موضوعها واشخاصها وحوادثها جملة وتفصيلا ، وكان لا مفر من اتمامها بعد أن طبعنا أكثر من نصفها فعالجتها حتى أكملتها وكأنى أتم كتابا بدأه سواي .

وقد تحريت فى الحوار أن أتقى العامية ما استطعت ، ما خلا مواضع قليلة رأيت أن العربية تجيء فيها نابية قلقة ، وقد حملنى على ذلك أن العامية هى لغة الحوار عندنا جميعاً يستوى فى ذلك المتعلم والامى ، وان كانت لغة المتعلم بالعربية أشبه واليها أقرب ، فاذا تحرينا الواقع كان لا بد من أن يكون كل حوار باللغة العامية مع تفاوت ضئيل تبعاً لمراكز المتكلمين وحظوظهم من التعليم أو الجهل ، والحوار يشغل حيزاً ليس بالقليل ، فكأن العامية ستتخذ أداة للكتابة ، وهى فى رأيى لا تصلح لهذا لكثرة ما ينقصها من عناصر التعبير ، ولحاجتها الشديدة الى الضبط والاحكام ، ولأنها لم تستوف بعد أوضاعها والملاحظ — والطبيعى أيضاً — أن لغة الكلام ترقى مع انتشار التعليم وتقترب شيئاً فشيئاً من اللغة العربية ، فاتخاذ العامية أداة

للحوار عكس للآية ، ثم ان العربية أداة ثابتة على كثرة ما يطرأ عليها من التطور ، وهى تتسع وتلين وتزداد صقلا على الأيام ، والعامية لاثبات لها ، وهى تندمج فى العربية بعد أن اشتقت منها وانفصلت عنها ، ثم ان محاكاة الواقع بالمعنى الحرفى ، لا معنى لها لأن الأدب فن وليس بمجرد نقل أو محاكاة ، ولا يصح القياس على الروايات الغربية فى هـذا الباب ، لأن المتعلمين من أهل اللغات الغربية يتكلمون اللغة الصحيحة على العموم ، على خلاف العامة ، فالتمييز هناك بين لغات الحوار محل ومسوغ معقول ، وليس الحال عندنا كذلك ، ثم ان الروايات التى تنقل من لغة إلى أخرى يستغنى فيها عن تقليد اللهجات العامية لأن التقيد بالأصل فى سوق الحوار يكون تعسفاً وتمحلا لا موجب له ، ومن هنا آثرت للحوار أن يكون باللغة العربية فى حينما بدا لى أن إيثارها لا يستكره فى السماع ، وقصرت العامية على مواقف قليلة رأيتها تكون فيها أقوى فى التصوير وأضوأ فى التعبير .

وليس هذا مقالا ولكنها هو مقدمة أو تصدير ، ومع ذلك لا أرى بدا من أن أعلن هنا مخالفتى لزملاء واخوان أجلهم يذهبون إلى أن الحياة المصرية لا تعين على نشوء الرواية المصرية وترقيها بحيث يسعها أن تتخذ لها مكاناً إلى جانب الرواية الغربية ، فان هذا الرأى مرجعه فى الحقيقة الى الظن بأن الرواية ينبغى أن تكون على

نسق الرواية الغربية ، وهذا خطأ ، فإن لكل أمة خصائص حياتها والرواية الغربية ليست نسقاً واحداً حتى فى الأمة الواحدة ، ولكل أمة فنها الذى ينشأ فيها بالتطور الطبيعى . والفن الروسى غير الانجليزى وهذا غير الفرنسى أو الالمانى أو الأمريكى ، وليس ثم ما يمنع أن ينشأ فن مصرى فى هذا الباب من أبواب الأدب يكون قائماً بذاته ومستقلا عما يقابله أو يشاكله عند الامم الأخرى ، وبديهى أنه ليس من الضرورى أن تقع حوادث الرواية فى الطرقات أو المنتديات أو المحافل العامة حتى يصح القول بأن الحجاب الذى لا يزال — إلى حد ما — مضروبا على المرأة المصرية ، عقبة فى سبيل التأليف الروائى ، وعلى أن الحجاب يفنى ويزول ، وهو فى طبقات دون أخرى وفى المدن دون الريف على الأغلب ، ولا يعيى باستمداد عناصر التأليف الروائى من الحياة المصرية إلا من لا يصلح لذاك ، وإلا من يريد أن يزيف ما يقتبس من الغرب ، وصحيح أن الحب الذى تنتجه الحياة المصرية الحافلة بالتقاليد المختلطة ، ضرب آخر يختلف عند التحليل عن الحب الذى تؤدى اليه الحياة الغربية ، ولكن من الذى قال ان الرواية إما أن تكون على النسق الغربى أولا تكون ؟ وإن الحب إما أن يكون على مثال ماعند الغرب أولا فهوغير [illegible] ؟ ثم من الذى زعم أن كل رواية يجب أن تدور على هذه [illegible] أن يكون الحب توادها وقطب الرحى فيها ؟ أليس

للناس في هذه الدنيا من عمل غير الحب ، أو مسعى غير فوز امرأة برجل أو رجل بامرأة ؟ ان هذا القصر هسنيريا لا أكثر ولا أقل

وفي وسعي أن أقول ، وفي وسع القارىء أن يصدق ، أن « ابرهيم الكاتب » ليس له آخر أو انتهاء لانه لم يكن له أول أو ابتداء وهذا كلام أحسبه يفتقر الى بيان فلنحاول ايضاحه :

لما خطر لي أن أجود على القراء بهذه الرواية ، لم أبدأ حيث يبدأون من الآن ، أعني أن الموضع الذي افتتحت منه القصة لم يكن هو مستهلها الاخير ، وهذا — فيما أظن — بيان كاف ، فاذا لم يكن كذلك فلنحاول مرة أخرى .

أول ما كتبت من هذه الحكاية ، ما صار فيما بعد الفصل الاول من القسم الثالث ، و بعد أن قطعت مرحلة غير قصيرة كففت وانقطعت ، ثم عدت فتناولت الحكاية ولكن من ذيلها ، أعني أني كتبت الفصل الاخير ، وثنيت بالذي قبله ، فالذي هو أسبق ، وهكذا ظللت أكتب راجعاً أو من الشمال الى اليمين ، حتى اتصل التقديم بالجديد ، ثم بدا لي أن فاتحة الكلام ينبغي أن ترد إلى الوراء قليلا ، فبدأت ما يعد الآن القسم الاول ، ورحت أكتب في أوقات متباعدة حتى لا سبيل الى تذكر الترتيب الذي كتبت به هذه الفصول ، وقد أثبتت لي هذه الطريقة في التأليف أن من الميسور أن يكون تأليف الكتاب متقطعاً ، ولكن الكاتب لا بد له أن يعيش في خلال ذلك ، وأظن أن معنى هذا

واضح ، ولو حاولت أن أضع كتاباً آخر على هذه الطريقة الفذة لكان الارجح أن لا أفرغ منه أبداً ، وأحسب هذا هو السبب فى أن روايتى هذه بدئت فى سنة ١٩٢٥ ، وأنها تنشر لاول مرة فى منتصف ١٩٣١ ،

ومن يدرى ؟ لعلى لو لم أورد هذه الحقائق لقال بعض النقاد إن هذه الروايه أحدث ما كتبت وأنها لذلك أنضج ما أخرجت !! على أنى أتوقع أن لا أعدم واحداً يقول ذلك !

ابرهيم عبد القادر المازنى

يوليه سنة ١٩٣١



القسم الأول

« كل الأنهار تجرى الى البحر
والبحر ليس بملآن . . . »

الفصل الاول

« وكان مساء ... »

— ١ —

شوشو فتاة تقول لك جسمها انها ناهزت التاسعة عشرة ، ويشهد حديثها وحركاتها انها لم تجاوز السابعة عشرة وهى ذات قامة معتدلة وجسم غض ووجه صبيح متألق ، ترتاح العين الى النظر الى معارفه جملة ، وتشغل بوقعها مجتمعة عن التعلق بواحد منها على الخصوص . وقد قضت هذا الشطر الأول من عمرها فى عزلة قلما أتيح لها فيها أن تخالط الرجال إلا أن يكونوا من ذوى قرابتها الأدنين ، فلم تألف أذنها عبارات الاعجاب بحسنها ، وبقيت نفسها مرسلة على سجيتها ، وخلا كل ما فيها ولها من ذلك التصنع الذى يدرب الفتاة عليه تنبه الشعور بنفسها وتوقعها من الجليس أن تأخذها عينه من فرعها الى قدمها وأن تحس محاسنها وتتقدها . وقد انفردت عيناها بمزية : هى أن من يراها لا يحتاج أن يعدوها أو ينقل لحظه الى سواها ، ففيهما يتجلى نفسها وروحها وضيعتها وجمالها ، مركزاً وهما سوداوان غير أنه سواد

فيه من العمق أكثر مما فيه من الالتماع . تحدق «فيه» تحديقك « فى » بئر ، ولا ترنو « اليه » كما ترنو « الى » رسم .

ومن الفتيات من لا يفطن المرء اليها على فرط حسنها ، لأول وهلة ، ولكن صاحبتنا هذه كانت من قوة الجذب بحيث لا يسعك إلا أن تحس وجودها وتشعر بما تفيضه حولها ، ولا تكاد تجلس اليها خمس دقائق حتى تلم بما فطرت عليه من جرأة الجنان الذى لا يدرى أن فى الدنيا ما يتقى ، ومن حرارة النفس الغريرة التى لم يصدمها من التجاريب ما يطفئها ، ومن خفة الروح التى لا يثقلها إلحاح الحلم ويعرف من يعرفها أن لها أحيانا تبدو فيها كالظمأى إلى مجهول ، أو كالتى تعتلج فى صدرها خواطر وإحساسات هى أغمض من أن تتولى الكشف عنها عبارة أو أوجع من أن ترفه عنها دمعة ولم تكن كذلك الآن فى هذه الفترة التى زخرت فيها تيارات حياتها والتى نخصها بالذكر

— ٢ —

كانت الشمس قد غابت وراء الأفق ولفت الحقول فى شملة من الظلام لا رقيقة ولا شفافة ، وكان اثنان يدلفان فى الطريق بين المزارع على أتانين ، أحدهما مسرج ملجم يعاني الفتى الحصرى الذى يمتطيه أشد البرح من تخطره ونزاعه الى الانطلاق فى العدو

وهو لا يكاد يمسك نفسه فوقه من فرط القلقل ، وثانيهما — أى ثانى الاثانين — يخطو وادعا ، ورأسه مدلى وأذناه مسترخيتان وليس على ظهره سوى لبدة عتيقة استقر عليها الراكب ولصق بها حتى لا تكاد رجلاه تتحركان كأنما هما خشبتان مشدودتان الى جانبى الاتان . وكان الفتى فى شاغل من متاعبه فقطعا أكثر الطريق فى صمت الى أن التفت الفتى الى رفيقه وقال :—

— « لم أعرف اسمك الى الآن فهل تسمح لى به ؟ »

— « اسمى ؟ آه ! أحمد الميت »

— « الميت ؟ ولماذا يدعونك الميت ؟ »

فقال القروى وهو مطرق كما كان ، وعيناه الى أذنى حماره :

« لأنى مت »

فابتسم فتانا ساخراً وقال :

« سبحان من يحيى العظام وهى رميم ! ولكنى أحسب يوم النشور لا يزال بعيداً فكيف عدت الى الحياة قبل الأوان ؟ »

فرفع القروى رأسه فجأة والتفت الى الفتى التفاتة المغضب وقال :—

« لقد قلت لك إنى مت وانتهى الأمر »

فاسترسل فتانا فى سخره وقال ولم تزايله ابتسامته .

« إذن من الراكب على أتانك يا رفيقى ؟ أهو عفريتك ؟ »

فقهقه القروى وقال يطمئنه :

« عفريتى ؟ لا لا ! لا تخف ! إنه أنا أحمد الميت »

— « ولكن ألا تحدثنى كيف حييت كرة أخرى ؟ أو من الذى ردك الى الحياة ؟ »

— « لم يردنى الى الحياة أحد . لقد مت وانتهى الأمر »

فحملق الفتى فى وجهه وهو مبهوت وكف عن الكلام وقد دار فى نفسه خاطر لم يرتح معه الى صحبة هذا الرفيق .

وبعد قليل قال أحمد الميت :

« ليست هذه أول مرة جئتنا فيها ؟ »

— « بل هى الأولى .. (ثم بعد قليل) لوددت أنى ما جئت ! »

وسكتا برهة ثم عاد القروى يصل ما انقطع :

« لقد حسبتك عرفت الدار من طول تحديقك الى ناحيتها »

— « وأنى لى برؤيتها وهذا الظلام أكثف من جلد الفيل ؟ »

فضحك القروى ضحكة خفيفة بالقرقعة ثم أمسك فجأة وقال :

« إنكم يا أبناء المدن لم تألفوا النظر فى الظلام »

فقال الفتى وفى صوته مرارة تنم على ما يكاتم من الألم الذى جره عليه نشاط دابته :

« كلا ! لم يرزقنا الله مثلكم عيون القطط »

ثم ساد السكوت لحظة أخرى قال القروى بعدها :

« أحسبك تعرف قصة الباشا المرحوم مع أفندينا ؟ »

— « كلا ! »

— « إنها قصة ممتعة . لقد شرف أفندينا يومئذ . . . »

— « من تعنى بأفندينا هذا ؟ »

— « أفندينا اسماعيل ! لقد شرف يومئذ بلدتنا ولم يكن الباشا قد نال هذه الرتبة ، ففرش له الطريق كله بالرمل ونصب على جانبيه الزينات التى لم نرها لاقبلها ولا بعدها الى الآن وأقام الافراح أربعين يوما فسر أفندينا جداً وقال له ساعة هم بالركوب عائداً : إنى جعلتك من بيكواتى ويمكنك بعد أن أرجع الى مصر أن تزورنى فى أى وقت تشاء لأكافئك على كرم ضيافتك وسخائك فى استقبالنا . ومضت سنون بعد ذلك لا أذكرعددها وفى يوم من الأيام تذكر البيك كلمة أفندينا فنهض وقال : انى ذاهب اليه من توتى فلما صار فى مصر مضى الى سراى أفندينا وقرع الباب ، فقال الخادم : « ماذا تبغى ؟ » فحكى له ما كان ، فقال له : إن اسماعيل مضى وجاء غيره ، فعاد وأخبر القرية ان اسماعيل الثانى.. . »

— اسماعيل الثانى ؟ أظن يا صاحبى أن فى تاريخك خطأ !

— كلا ! لاخطأ على الاطلاق ! إنها حكاية مشهورة ! وليس مثلى من يخطئ فى الرواية ؛ أمن أجل أن كتبكم لا تحوى هذه القصة تكون خطأ ؟ وأنا بعد لم أتممها لك ولم أخبرك بما وقع له مع اسماعيل الثالث . .

— إن هذا لا يطاق . كلا ! لن أحتمل اسماعيل الثالث .

ووثب الى الأرض عن ظهر الدابة وتركها وسط الطريق ومال الى حافته اليمنى كأنما أراد أن يجعل بينه وبين رفيقه أطول بعد ممكن وراى القروى ذلك فكف عن محادثته وجعل يقول لنفسه : « ما أغرب هؤلاء الأفندية الذين يجيئون من الأمصار! أما والله لولا انه يمت بالقرابة الى الباشا رحمه الله . »

وبلغا البيت ، فهرتهما الكلاب ، وأفزع الفتى نباحها وهيئتها الوحشية ، فدنا من رفيقه بكرهه حتى كاد يدخل فى ثيابه ، فزجرها القروى عنه وصعد به السلم

—٣—

قالت شوشو لقريبها بعد أن أصاب حظاً من الراحة :

« تعال بنا الى بهو السلم فان الجو بديع فى هذه الليلة »

— « ولكن السلم يؤدى الى الغيط مباشرة بلا حاجز ، و . . والكلاب . . »

— « آه . الكلاب ! أتخافها ؟ إنها لن تؤذيك تعال تعال . أيصح أن تكون أضعف منى قلباً ؟ »

فمضيا الى البهو وجلسا ثم شرعت فتاتنا تنادى . « مرجان بخيت . مرزوق » . فعجب الفتى وقال : « وما تصنعين بهؤلاء كلهم ؟ لا تتعبى الخدم يا شوشو بلا داع »

والتفت فاذا ثلاثة كلاب تصمد مسرعة على السلم وتقبل عليها وتتوثب حولها وتتمسح بثوبها وتحرك أذنابها وتلعق حذاءها فأشارت اليها فربض واحد الى يمين الفتى وثان أمامه والثالث الى يساره وعادت هى تحادث قريبها حتى عرضت مناسبة فنهضت وأخبرته انها ستغيب عنه برهة قصيرة ولم تنتظر أن تسمع ما هم أن يقوله اذا صح انه فتح فمه ليتكلم ! وتركته

فأسلم أمره لحظه ولهاتيك الكلاب وجعل يلاحظها خلسة .

وشاءت بعوضة أن تلدغه فى جبينه فرفع يده ليذبها فرفعت الكلاب الثلاثة رؤوسها وزامت !

لخط ذراعه .

وأراد الحظ أن تألم ساقه الوضع الذى كانت فيه فهم بتحريكها فعادت الكلاب ترفع رؤوسها وتزوم فتركها مكانها .

وكثر البعوض فجأة وتوالى الاحساس باللدع فى الوجه واليدين والرجلين وهو يتجلد إشفاقا من هذه الكلاب الضارية حتى جاوز الأمر الطاقة وكاد يذهب رشده فصاح — وهو مسمر فى مكانه ومن غير أن تتحرك شعرة فى جسمه — « ابعدوا عنى هذه الكلاب وإلا قمت وتركتها تمزقنى »

وفى هذه اللحظة فتحت نافذة مطلة على البهو وظهرت منها شوشو مستغرقة فى الضحك .

الفصل الثانى

« .... وكان صباح . يوما واحداً »

قضى فتانا ابرهيم — فهذا اسمه — ليلة هادئة عميقة النوم اذا استثنينا حلماً قصيراً ركب فيه جواداً بلا لجام جمح به فى طريق وعر ، يتحدر على أحد جانبيه نهر جائش ، وتمترضه فى بعض المواضع أقنية تختلف ضيقاً وسعة عليها ألواح من الخشب وقف الجواد الخبيث فجأة فوق واحدة منها وأهوى برأسه وقادمتيه الى الماء ليشرب !

وبدا الصبح بأصوات العصافير ، فنهض ثم لبس حذاءه ومعطفه وطربوشه وخرج متسللا كاللص وكانت السماء غائمة والجو مطلولا لا تخلص معه الأنفاس وكان هو يكره الرطوبة ويتقيها ويشفق من عواقب التعرض لها ، وكثيراً ما تثنيه عما يقصد اليه ، ولكن منظر الحقول فى هذه الساعة قبل طلوع الشمس ، والضباب يسترها على مسافة متر ، ويشف شيئاً فشيئاً عنها — وهو منظر لا عهد له به — أغراه بالمضى فانطلق على غير هدى حتى وقف على ترعة صغيرة نزرة الماء تكسو الحشائش حافتى مجراها ويفترش الماء فى قاعها بساطاً سندسياً ليناً وجعل يسطر

اليها تارة ويدير عينه فى الحقول المستوية تارة أخرى وكان المنظر من حوله مؤلفاً من عناصر اذا اجتمعت ، كما هى الآن ، أحالت الحب فى النفس الحساسة قلقاً ، وهوت بالأمل الى الشك وهبطت باليقين الى مرتبة الرجاء ، ومنعت الذكرى أن تحرك الأسف على فائت ، أو الرغبة أن تدفع الى سعى . ذلك انه كان أمامه — على قدر ما وسعه أن يرى — هذه الترعة السوداء ومن ورائها مثل الجدار القائم . ومن خلفه هو أرض بعضها مرعى فيما يعلم وبعضها زرع لا يدرى أى شىء هو . ثم فضاء غير مستو يقوم من بعده البيت الذى رايله منذ لحظة . وكل ما حوله أشكال ليس لها معارف — كالدرهم المسيح — توحى الى النفس أى شىء ولا تنطق بشىء اذ كان الضباب لايزال يكسوها ثوبا يزيدها فى رأى العين والقلب عريا وتجرداً . وكانت السماء دانية مسفة يحس المرء انها تهم بالانطباق على الأرض . ثم بدأت الشمس تطلع حمراء قانية كبيرة القرص ، وأخذت تطلق أشعتها الطويلة المتوهجة من الشرق فتلقاها فى الغرب السحب فأطراف المنازل فالأكواخ والنوافذ ورؤوس الأشجار فالأغصان النابتة على وجه الأرض . فصارت الأنفاس كأنها خارجة من فوهة مدخنة لا من فم آدمى .

وأحس لطول ما وقف بالبرد يسرى من قدميه الى سائر بدنه فثنى خطواته الى الدار وما كاد يفتح الباب المؤدى الى

الجناح الذى أفرد له حتى طالعته زنجيــة لامعة الجلد منتفخة الأوداج كأنما حشيت أشداقها قطناً ، براقة الأسنان واسعة العينين حمراؤهما قد غرز رأسها المعصوب بين كتفيها غرزاً واتصل بهما بلا واسطة . أما صدرها فعريض جداً وأما خصرها — اذا جاز أن يسمى هذا خصراً — فهضيم جداً حتى كأن مانقص من هذا زيد فى ذاك ، ويلى الخصر ردفان ثقيلان تحتهما ساقان قصيرتان كالقمعين فكأنها زير عليــه إبريق مقلوب فوقه كرة ذات ثقوب . والمرء بأيسر مجهود من الخيال يستطيع أن يتصورها مفككة

فابتدرته الزنجيه بقولها

« أين كنت ياسيدى ؟ »

فلم يرتح ابراهيم الى هذه المفاجأة ولم يسره لونها الأسود البراق بعد ذلك الضباب الذى لبث فيه وكان من أثقل الأشياء نفسه أن يسئل عن روحاته وغدواته فقال لها :

« أين كنت ؟ وكيف يعنيك هذا ؟ »

— لقد أزعجتنا جداً يا سـيدى ولم يخطر لنا قط انك قد تخرج فى مثل هذه البكرة المطلولة حرت ماذا أصنع و .

— لعلك لم تقلقى أحداً من أجلى ؟

— نعم أيقظتهم جميعاً .

— أيقظتهم جميعاً ؟ ولماذابالله ؟ أترينى طفلا أم تائهاً مسجين؟

ولم تكن المسكينة تتوقع أن يغضبه سؤالها وإشفاقها عليه وأفزعتها نظرته أكثر مما أفزعتها لهجته فرمت بعينها الى الأرض وأخذت تتمتم :

« لا . لا يا سيدى . عفوك ! إن هذا بيتك ... »

— « من قال لك انى فى بيتى يضرب على نطاق من الخدم ؟ »

— « أنا .. أنا .. لاذنب لى . لقد أمرتنى سيدتى شوشو قبل أن تنام أن أخبرها ... »

فلم يمهلها حتى تتم كلامها وصاح بها وقد تملكه غضب شر ما فيه انه يعلم أن لا داعى له .

« اذا كانت سيدتك هى التى شاءت أن تسد فى وجهى الأبواب فسأرحل هذا النهار نعم لابد من السفر فلست أنوى أن أعصب رأسى وأسدل على وجهى قناعا ! »

ودفع باب غرفته بعنف ودخل وهو يتمتم بصوت يزيده تهدجا شعوره بأنه مخطىء فى غضبه وانه تهور بلامسوغ . وشرع يعد حقيبته ويفكر فى القيود التى تحيط بالمرء فى الريف ونسى أن للمدن أيضاً قيودها .

ولم يكن صاحبنا ابراهيم قد بلغ سن الفلسفة أو إن شئت فقل سن التبلد أو الحزم أو ماتحب غيرها وإن كان بطبعه لاطياشاً ولا قليل التؤدة وكان من ذلك الطراز الذى نستطيع أن نقول أن الله وهبه كل شىء إلا القدرة على الانتفاع بالحياة والتوفيق

فى الدنيا وإن يكن أشبه بالنساء فى المرونة وسرعة التكيف .
وكان عظيم الاعتداد بنفسه شديد الاعتماد عليها ولكن من غير أن يشوب ذلك الكبرياء والتقحم على الناس . وفيه أنقة كثيراً ما كانت تبلغ درجة البلاهة. وقد غلب عليه اسم «الكاتب» وصار لقباً له وعلماً عليه كما حدث لعبد الحميد من قبله بقرون طويلات المدد . ولم تكن مزيته الابتكار أو العمق بل انه ما من فكرة يتناولها إلا وسعه أن يجلوها فى أحسن معرض وإلا استطاع — اذا لم تكن مما ابتكر — أن يضيف اليها ويزيد عليها ماليس دونها . على ان أبرز مزاياه كانت أن أسلوبه صورة لنفسه الحية الحساسة المتوقدة . وكان دأبه أن يدور بعينه فى نفسه ليطلع على كل ما فيها، وأن يجيلها فيما هو خارج عنها ليحيط بكل ماوراءها ولكنه قلما رأى شيئاً خارجها إلا من خلالها . وكان على قوة طبعه شديد الحياء كثير الحذر ولا سيما مع النساء اللواتى لم يألف من مجالسهن إلا العائلية ، ولم يكن احترامه لهن كبيراً وإن كان على ذلك لا يحتقرهن . وعنده أن المرأة أداة لبقاء النوع وان جمالها ليس إلا شركا تنصبه الحياة ويحسن كثيراً أن يجتنب؛ وأن الرجل أجمل من المرأة على العموم لأن جمال الرجل الجميل لا يستمد أكثر فتنته — كجمال المرأة — من الغريزة النوعية .
كان سلوكه ازاء المرأة مظهراً لرأيه فيها — ونعنى انه كان
ـدها مخلوقا جديراً بالعطف والمداعبة فى غير ضعف و بدون أن

يمنع ذلك أن تحكمها دائماً وتلزمها طاعتك .

ومن سخر الأقـدار أن هذه الطبيعة القوية المتمردة الى حد كبير تكون فى جسم صئيل هزيل لا يكاد يحتمل شيئاً ! فقد كان صاحبنا قصـيراً ضامر الجسم دقيق العظام واهى التركيب وليس فيه شيء ينم على هذه القوة التى انطوى عليها إلا وجهه ، أو بعبارة أدق جبهته الواسعة العريضة المتألقة وعيناه الواسعتان الحادتان وهامته المستطيلة القوية وأنفه الكبير الأقنى وشفته المقوسة الغليظة بعض الغلظ على أن قوته تنحصر على الاكثر فى جبهته وعينيه. ولم يكن يخفى عليه هذا السر فكان يبلغ بنظرة يسددها ما لا يبلغه الرجل الضخم بالعصى فى يده ولكنه كان على ذلك رضى الطباع دمث الأخلاق سريع الفيء الى الرضى

ودخلت عليه شوشو وهو لا يحسها ووقفت خلفـه وهو مشتغل بنزع غطاء حقيبته ووضعت كفيها على عينيه فأمسك بهما ونزعهما عنه برفق وقال :

« آه . شوشو ! »

— « نعم أنا شوشو من كنت تحسبنى ؟ »

فاحمر وجهه الأسمر قليلا وابتسم

.. وكانت لآخر عهده بها قبل عام طفلة فألفاها فى هذه اللقية امرأة بارعة الشكل ممشوقة القد ، تغترق العين بشارتها وترتاح النفس الى نضارتها : سوداء العينين عميقتهما ، ذهبية الشعر

ترسله أمواجا على كتفيها ، بيضاء مشرقة ، حمراء الخدين قرمزية الشفتين لينتهما : عينها نار ، ولحظها حب ، وصوتها تغريد ، وقوامها أتم مايكون استواء وصحة وعزما ونشاطاً ، وحركتها مملوءة ظرفا ورشاقة ، رقيقة كأنها النسيم ، جليلة كأنها ملكة ، دائبة حيناً متدللة مستجبرة أحيانا ، ساخرة طوراً ، وطوراً ساذجة غريرة ، جميلة فى كل حال وقالت وهى تتعمد أن تتجاهل معنى ما يفعل :

« دعني أخرج لك ما تريد من الثياب . إن هذا عمل النساء لا الرجال إصعد أنت الى فوق فأنهم ينتظرونك ليفطروا معك وسأعد لك كل شيء »

— « ولكنك لا تعرفين ماذا أبغى ؟ »

— « أعرف كل شيء ! وماذا تستطيع أنت أن تعرف أكثر منى ؟ انك كالطفل الصغير يحتاج حتى الى من يلبسه الجورب ! »

فلم يدر أعرفت وتجاهلت أم هى لا تعلم شيئاً مما حدث وكانت نفسه قد سكنت فآثر أن يطوى الأمر وبدا له أن هذا خير مايمكن أن يصنع وقال مغالطاً . « ولكنى لا أعرف من أين أصعد »

— إذن لنبدأ بالصعود وبعد ذلك نعود الى هذه الحقيبة. أليس كذلك ؟

— نعم

— هيا إذن

ووضعت كفها على كتفه اليمنى وجعلت تطير الى جانبه وتتوثب كالفراشة

الفصل الثالث

« كل لتكون فيك قوة إذ تسير فى الطريق .... »

صعد ابرهيم وشوشو — أم ترى ينبغى أن نقول شوشو وابرهيم ؟ — الى غرفة الطعام فألفيا حول المائدة « نجيـة » كبرى أخوات شوشو ، وابنيهـا . وهى سـيدة جميلة الوجه ولكنها ضخمة الجسم مترهلة اللحم ، ذات معـدة — وما لنـا لا نقول « كرشاً » ؟ — تمشى أمامها ، ولها ايمان راسخ بالمشائين فى الظلام ، و نعنى بهم الشياطين والعفاريت والأرواح ، وبأولياء الله الصالحين . غير أن إيمانها بأولئك أقوى وأعمق منه بهؤلاء . وأكثر ما تدور أحاديثها وقصصها بالليل عليهم وما أقل من لم تقل له « لا شك انك رأيت عفريتاً . لقد رأيتهم أنا بعينى هذه مرات عديدة فى البيت وحوله . ولكنهم لا يؤذونك إلا اذا كلمتهم أو تعرضت لهم »

وللعـفاريت معها حادثة لا تكف عن ذكرها كلما عرضت مناسبة . وتلك أنها فيما مضى من الزمن ، وفى مفتتح حياتها مع زوجها ، قامت بالليل الى حاجتها واستصحبت معها خادمتها فاطمة الزنجية التى عرفتها فى الفصـل السابق فلم تكد تبلغ الحمام حتى

سمعت مثل وقع حوافر الحمير صاعدة ونازلة على السلم وعائثة في المطبخ فصرخت وعادت تعدو الى غرفتها . ولكن زوجها أبى أن يصدق أو يلتفت الى سبب فزعها « فلما أصبحنا وجدنا كل الأطباق التي كانت في المطبخ مكسرة ووجدنا ثلاثة من الغنم ميتة . فهل كسرت الأطباق نفسها ؟ ومع ذلك بأبى ابن عمى (تعنى زوجها) أن يصدق ! » وتضرب بطن يسراها على ظهر يمناها فوق كرشها الكروية ! ومن أجل هذا تعنى قبل الذهاب الى مخدعها بأن تمر بغرفة بنيها ومن تكون في ضيافتها من أحواتها وأن تمسح رؤوسهم وتتلو آية الكرسي ثم تستودعهم الله وتمضى .

وهى من الطراز المحافظ الذى يستنكر كل حديد ويعده بدعة يجب أن يستغفر الله منها ويعاذ به من شرها . ولزوجها بيت في رمل الاسكندرية مد اليه أسلاك الكهرباء فاعترضت وقاومت ما استطاعت ، فلما أعياها الأمر وأصر زوجها على الكهرباء أبت كل الاباء أن تدخلها غرفة نومها ! فرأى زوجها أن يرضيها بهذه الضحية الصغيرة . ولا يزال البيت تضيئه الكهرباء إلا هذه الغرفة التي بقيت كأنها قطعة متلكئة من الزمن الغابر وجهز زوجها الحمام بالأدوات الحديثة فأغضبها منه هذا وأصرت على الاستحمام في « الطشت » وإهمال الحوض !

أما التليفون فله في بيتها بالرمل عشر سنوات ومع ذلك

لا تعرف كيف تستعمله وتقول شوشو عنها انها تطلب الرقم هكذا « ٩ الرمل ١٥ » بدلا من الرمل ١٥٩ ! مثلا .

ومقياس الصحة عندها مقدار ما يصيبه المرء من الطعام فأصح الناس من يلتهمه التهاما ويأتى على ما أمامه كأنه لن يصيب رزقه غداً . بل قيمة المرء رهن بذلك فأحق الناس بالاكبار الأكول البطين . أما من يأكل بقدر أو لا يأكل حتى يجوع فهو طفل لم يكبر ولم يشب عن الطوق ولو جلله الشيب وقوست قناته السنون أو الحادثات . وأثمن ماتهديه من النصائح الى المريض أو الضعيف أو الحزين أن « كل ثم كل ثم كل » ! هذا عندها الدواء من الحمى والمغص والصداع الخ . ولاتصدق الأطباء فانهم يميتون الناس قبل أن تفرغ آجالهم ! وما بعجيب بعد ذلك أن يصغر فى عينها صاحبنا ابراهيم وإن كان قد ناهز الثامنة والعشرين وماتت له زوجة وبنون لم يعش منهم إلا واحد

وجعلت تسأله على الطعام عن صحتــه وعن العملية الجراحية التى أجريت له وكيف احتمل الكلوروفورم — أو البنج كما تعرفه — وعن المستشفى الذى أقام به حتى شفى وتقول « يا ابن خالتى ! كيف رضيت بالبنج ؟ »

فيقول : « وهل كان من الممكن أن أحتمل العملية بغير ذلك ؟ »

فتهز رأسها غير مصدقة وتسأل : « وهل كانت هذه العملية

ضرورية ؟ لقد لبثت لا أنام مذ علمت بخبرها حتى طمأننى ابن عمى وأنبأنى انك خرجت من المستشفى ومع ذلك لم أطمئن تماما إلا بعد أن علمت انك آت الينا . وكيف صحتك الآن ؟ »

— « كما ترين ، حسنة »

— « لقد كان دخولك المستشفى حماقة ! فكر ! إن المستشفى كالجزرة ولا بد انه مملوء بالعفاريت »

— « لا . لا . لا عفاريت ولا . . »

— « كيف يعكس ؟ الدم . . والذين يموتون فيه . إن بيتنا هذا جديد ومع ذلك فيه عفاريت . ولو كان زوجى هنا لقص عليك كيف تطلع وتنزل كالمعيز على السلم الخشبى ... »

فقاطعتها شوشو قائلة :

« إن ابن خالتى ينام وحده فى ذلك الجناح ولا يحس أن يعرف هذه الحكاية التى سمعناها مائة مرة »

فقال ابراهيم : « دعيها يا سوشو نقصها فان سير العفاريت لا تفزعنى ولكم تمنيت أن يظهر لى عفريت ! ولكم سرت عمداً بين المقابر فى الظلام الحالك آملا أن أرى واحداً »

فصاحت به نجية : « ماذا تقول ؟ أمجنون أنت ؟ »

فلم يغضب ابراهيم لأنه كان أعرف بها من أن يثيره كلامها ولم يزد على أن قال لها :

« وما الضرر ؟ »

— « الضرر ؟ احذر أن تصنع هذا هنا ! لقد كان احمد خادمنا عائداً على حماره من المحطة فى بعض الليالى فلما دنا من البيت وقف الحمار بغتة ونشر أذنيه وأدار رأسه ، ونظر احمد فاذا الطريق قد سده مارد ولكن الله ألهمه أن يتلو آيات من كتاب الله وأن يستحث الحمار فنجا ولما يكد . فحاذر أن تخرج فى الليل وحدك ! إنك لست فى مصر ولا آمن عليك إن خرجت وسآمر الخدم أن يخبرونى كلما هممت بذلك ! يجب أن تعود سليما الى بيتك »

***

وكانوا قد فرغوا من الطعام فمضت به شوشو الى غرفة أخرى وجلست الى جانبه تستخبره عن المستشفى وكيف كان يقضى لياليه فيها ؟ ومن كان يؤنسه فى وحدته؟ وكان يوجز ما استطاع فى أجوبته وتأبى هى إلا الاطناب وتلح فيه

« قل لى . قل بالله (وأحاطت عنقه بذراعها اليمنى) أكنت تقضى الليل كله وحدك ؟ »

— نعم

— ألا يجالسك أحد ؟

— الزوار

— واذا لم يزرك أحد ؟

— أنا أحب الوحدة .

— ولكن هبنى كنت مكانك . فأنا لا أحب الوحدة ولا أطيقها

— هناك الممرضات

— آه أهن شابات أم عجائز ؟

— لا أعرف إلا المستشفى الذى كنت فيه .

— حدثنى عنه إذن ! لماذا لا تتكلم ! إن هذه ليست عادتك؟ أهناك شيء لا يصح أن أعرفه !

— كلا

— إذن لماذا تأبى الكلام عن المستشفى ؟

— لأنها ذكرى .. تؤلمنى

— هذا صحيح ! ولكنك جدير بأن تحمد الله على شفائك مع ذلك ؟

فصمت قليلا وقال وهو مطرق « لا أدرى ! »

فاعتدلت ونظرت اليه بعينيها السوداوين العسليتين ووضعت يمناها على جبينه ورفعت رأسه وسألته « كيف لا تدرى ؟ لست أفهم ! »

فقال وخفضه مرحى ونظرته الى الارض وأصبعه ينفض السيجارة « شوشو ! اسمعى ! إنك لا تزالين صغيرة »

— كلا ! لست صغيرة ! انا أطول منك . أما ترى ؟

ونهضت ورفعت أطراف كفيها الى كتفيها وعيناها الى صدرها ثم هوت بيديها الى ركبتيها ووضعتهما عليهما وانحنت

اليه وحدقت فى وجهه باسمة وهمت بالكلام ولكن هيئته صدتها فأسرعت الى مكانها بجانبه وجذبته من كتفه وقالت :

— « مالك ؟ قل لى ! »

فقال وهو منحن الى الارض .

« لا شيء ! اطمئنى ! كل شيء . . »

— كل ماذا ؟

فنهض ومضى الى النافذة ويداه فى جيبى معطفه وجعل ينظر من خلال الزجاج دون أن يرى شيئاً ولحقت به ووقفت الى يساره هنيهة فلما لم يلتفت اليها طوقته بذراعيها وقالت وهى تجذبه اليها جذبة بعد كل كلمة .

« ابراهيم ! ابن خالتى ! مالك ! تكلم ! لست أفهم ! »

— ربما كان خيراً لك ألا تفهمى .

فادارت اليه وجهها وقالت .

« ولكنى لا أستطيع ان أراك هكذا ! ألست بنت خالتك؟ أم أنت تستصغرنى ؟ ؟ »

— كلا يا شوشو

— قل لى إذن ولا تدعنى أتألم من أجلك هكذا بسبب جهلى ما يؤلمك »

— ماذا أقول ؟ لقد دخلت المستشفى لأتداوى من مرض

فشفيت ولكنى خرجت منه بمرض جديدشرمافيهأنه لاطبيب له . الا ..

— إلا من ؟ قل ! اسرع !

— لا أقوى على أكثر من هذا يا شوشو بل أقول انى ما أتيت الى هنا إلا لأتداوى ولكن بلا جدوى على مايظهر .

فجرى ببال شوشو خاطر لحت اليه ومعها الحياء والادب والمحافظة على كرامة ابن خالتها أن تفصح عنه وجعلت تتمتم .

أ . أ . سامحنى ولكن أأنت فى حاجة الى . ما ...

فالتفت اليها بسرعة وقد أدرك غرضها ولم يدعها تتم الكلمة وصاح وقد فاضت نفسه بالاحساس المكتوم .

« يا بلهاء ! »

وانطلق هاربا من الغرفة . وخلفها واقفة مبهوتة واجمة تحملق فى أثره وفمها مفتوح من الدهشة حتى كأنما أحالها بصيحته هذه تمثالا للبلاهة .

الفصل الرابع

« الى أن يفيح النهار وتنهزم الظلال اذهب الى جبل المر والى تل اللبان . »

قبل أن نتقدم خطوة أخرى فى هذا التاريخ — أو فى هذه الفترة من حياة صاحبنا ابراهيم — نكر راجعين بالقارىء بضعة أسابيع لنجلو ما عساه يكون مشكلا مما أسلفنا قصه فى الفصل السابق وهى اوبة تردنا الى أيام عشرة قضاها فى مستشفى لا حاجة بنا الى اسمه اذ كنا لن نعود اليه مرة ثانية وكانت طلبتنا عنده قد رايناه . وكان كبير الاطباء صديقا لابراهيم فأوصى به الخدم والممرضات واطلق له الحرية فى استقبال الزوار وأمرهم أن يتوخوا فى ذلك مرضاته . وكان هذا شرط ابراهيم لما ألح عليه الطبيب أن يجرى له العملية فقبله واكتفى بأن ينبهه الى وجوب الاقلال من تقبل الزيارات فى الايام الاولى على الاقل

وفى صباح اليوم المضروب للعملية ذهب ابراهيم وحده الى المستشفى دون أن يخبر أمه أو إبنه وهما كل أهل بيته اذا استقطنا الخدم — كأنه ماض الى عمله وتقدم الى غرفة الجراحة بجأش رابط ونفس — لا نقول مطمئنة لكنا نقول غير مكترثة لما عساه يكون . ومع أن الطبيب احتاج أن ينشقه مقداراً

كثيراً من الكلوروفورم ، فانه لم يكد يغسل يديه حتى كان ابراهيم قد فتح عينيه وافاق الى حد كبير فحملوه وهو متنبه ووضعوه فى سريره وتركوا الى جانبه ممرضة تعنى به فلبث نحو ساعة لا يتحرك ولا يتكلم ولا يصنع أكثر من أن يدير عينيه فى السقف والجدران أو يرفع يديه من حين الى حين ويمسح جبينه لغرض واحد هو أن يثبت لممرضه أنه مفيق وهى تحدجه بنظرها ولا تكاد تحول لحظها عنه كأنما تخاف الجلده . ثم لفت وجهه فجأة وقال « ما إسمك ؟ » ولم يكن ذلك منه التفات سائل عادى بل كان أشبه بحركة متوجع

ويظهر أن هذا آخر ما كانت تنتظر ان يسألها عنه فلم تجد الجواب حاضرا وتلعثمت وهى تخبره أن اسمها « مارى » وحول وجهه عنها قبل أن تنطق وعاد الى صمته وكأنها توهمت أنه لم يسمع وخشيت أن يسوءه حسبانه انها لم تجب أو كأنما ماتت طول الصمت الذى ألزمها اياه — والصمت اشق على النساء منه على الرجال — فمالت اليه وحنت عليه وكفاها على السرير لتعتمد عليه وقالت

— أقول ان اسمى مارى

فتصلبت عضلات وجهه وانزوى ما بين عينيه وتضاغطت شفتاه هنيهة قبل أن يقول لها — « نعم سمعت . أرجو ألا تضعى يدك على الفراش فتحركه . مؤقتا على الاقل »

فرفعت يديها بسرعة عن السرير وقد ادركت أن صمته تجلد وانه يكابد من الالم ما يود ان يكتمه لسبب ما ، ونهضت وقد حدثتها نفسها ان خير ما تحسن به اليه هو أن تدعه وحده . وفطن هو أيضا الى ماخطر لها فأومأ اليها بعينيه فعادت الى كرسيها فقال

— « هل تعلمين أن أهلى يجهلون أنى هنا ؟ »

— كلا !

وبدا عليها شيء من الدهشة فلم تدر ماذا تقول أكثر من « كلا » ومضى هو فى كلامه فقال

— أرجو أن تغتفرى لى ما أنا قائل . ان وجودك معى الآن على الاقل لايكاد يجدينى . وانت فى الخارج أنفع لى منك هنا . كم الساعة الآن ؟

— التاسعة والربع

— لايزال اذن فى الوقت فسحة . إن أخى على موعد معى هنا وهو لايعرف شيئاً مما حدث ولايتوقعه وكل ماأطلعته عليه هو أنى سأعرض نفسى على الدكتور . . وأنى أحب أن يكون معى . وسيحضر بعد قليل والآن افتحى الدولاب وناولينى الورقة التى فى الجيب الايمن من سترتى . أشكرك . . متى جاء أخى فاطلعيه على الحقيقة وهونى عليه الامر ماستطعت واذا طلب أن يرانى فقولى له انى نائم — فانى أخشى أن يكثر

من الاسئلة الفارغة البلهاء . وأكدى له أنى كتبت هذه الورقة بعد أن افقت من العملية وزال عنى ألمها وذلك ليطمئن قلبه — إنها كذبة ولكن الكذب يكون فى بعض الاوقات ضروريا . واطلبي منه أن يعمل بما فى الورقة حرفيا . . احسبنى تكلمت أكثر مما يلزم فهل أستطيع أن اعتمد على ذكائك وحسن تصرفك »

فطمأنته وأكدت له أنها ستؤدى الرسالة كما يجب أن تؤدى وسألته قبل أن تنصرف أله حاجة أخرى :

— نعم أن تعودى قبل خروجه وتخبرينى بما فعلت. ويمكنك أن تقولى له أنك آتية لترى أنائم أنا أم مستيقظ . وهذا من قبيل الاحتياط حتى أستطيع أن أصلح ما عساه يقع من الخطأ وحتى أتوقى مالا أود حدوثه .

— ٢ —

وجرى كل شيء على مارسم : زيارات قليلة قصيرة يؤديها له أهله وخاصة خاصائه، ووحدة طويلة تتخللها فترات جعلت تطول شيئاً فشيئاً تؤنسه فيها مارى بحضرها وحديثها . فنشأت بينهما ألفة وعلم منها أنها سورية الاصل وانها تعلمت فى إحدى مدارس الراهبات فى سورية ثم تزوجت شاباً إيطالياً جاء بها الى الاسكندرية ولبثت معه ثلاث سنين قضى نحبه بعدها وخلف لها طفلا فزاولت الحياكة أولا ثم التمريض وهاهى ذى الى جانبه

ومن العسير أن يصف المرء « ماري » هذه وصفاً دقيقاً .
ولعل من المستحيل أن يستطيع المرء وصف انسان ما على وجه الدقة ولكن من الممكن أن تقول — ومن الممكن أن يصدق القارئ — أن « ماري » كانت تبدو في بعض الاحيان جميلة وفي البعض غير جميلة تبعا لحالتها الصحية والنفسيه وندع هذا مع ذلك ونقول عن مظهرها الجثماني انها ذات وجه ناطق دقيق المعارف ، وان لونها أقرب الى الشحوب وانها ضامرة الجسم ، وان من يراها يخيل له انها ظمأى كالعود من الزهر انقطع عنه الماء وانها لو سقيت هذا الشراب الذي تقرأ في عينيها ولونها التياحها اليه لربت واهتزت . والمرء يستشف في وجهها النزوع الى انتظار رأيك قبل أن تفضي اليك برأيها — والى انتظار عملك أيضا على الارجح قبل أن تقدم هي على عمل ومما أكد هذه النزعة فيها مزاولتها مهنة التمريض والمستشفى — كما يسهل أن يدرك القارئ — أشبه ببقعة معزولة عن العالم او منتزعه من احشائه يكون فيه التفكير أكثر من العمل ، والقلق والملال أكثر من التفكير ، ولا يجرى التفكير فيه ، حين يجرى ، الا في دائرة ضيقة وقلما يؤدي الا الى نتائج خياليه ولكنه على ذلك مسرح تمثل عليه روايات تدانى في جلالها واتساقها ووحدتها احيانا ، خارجيات سفوكليس وشكسبير ، ويساعد على اكسابها هذه المزايا تمركز العواطف وشدة توقف بعض الحيوات على بعض

وقد خلق ابراهيم عطوفا أليفا سريع الاحساس بالجمال ، ليس أقوى فى نفسه من عواطف الادب والحب ،وخلقت مارى ممحة النفس ريضة الطباع حساسة كالوتر المشدود، وشاءت المقادير أن يتشابها فيما وقع لهما فهو فقد روجته وهى فقدت بعلها ، وكل من الفقيدين قد حاف وراءه طفلا .وفى كلتا النفسين ذلك الحنين المخنوق الذى حلعه موت العقيد ولم تجد الحياة بما يطفئه أو يسكن لاعجه . وكان ابراهيم ، على حيائه ، لايكاد يألف انسانا حتى يفتح له قلبه ويرسل معه نفسه على سجيتها ، وقل أن يتبسط لأول وهلة ولكنه كان صاحب فكاهة وعبث وماعرفته امرأة الا أعجبها منه مافيه من الدعابة، والفكاهة من أقصر الطرق الى قلوب النساء ، فلم تمض الاخمسة أيام حتى كان ابراهيم قد علق مارى ، ومارى قد شغفت بابراهيم ،وحتى صارت غرفة المستشفى فردوس عاشقين ، — اذا صدقت الظواهر — وما أكثر ما تلاقت شفاههما فى قبلات فرحة فى ذلك الفردوس المزوى الذى يحسبه الناس مستشفى فحسب !

واستمرت العلاقة بينهما بعد ان بارح المستشفى الى بيته وكثرت المحادثات بينهما بالتليفون والمقابلات غير أن الارادة التى وهنت مع المرض عادت مع الصحة ، ففطن ابراهيم الى مافى علاقتهما من الحرج وأدرك ان الامر يوشك أن ينقلب مشكلا . ورأى انه لا يستطيع أن يرضاها زوجه ، وانها تطمع فيما هو

اسمى من مرتبة الخليلة ، وهبها لم تطمع فان ذلك لا يحل مشكل حياته ولا ينيله مأربه ولا يبلغه ما يتمنى من السكون الى الحب المنزلى الذى لا يعدل به شيئاً. نخطر له أن ينأى عن القاهرة زمنا عسى أن تطيب نفسه عنها وأن تروض هى نفسها على بعده . ولما لم يهده التفكير الى خير من ذلك صمم عليه وشرع فى امضاء هذا العزم من توته .

والتقيا ليلة سفره وتنزها قليلا ولما آن أن يفترقا سألته « متى نلتقى غداً ؟ »

— ليس غداً .

فقالت وهى تبتسم ولا تدرى ما عقد النية عليه « ماذا يشغلك عنى غدا يا برامينو » وكان « برامينو » اسمه عندها تناديه به حين تداعبه فأجابها وهو يتكلف الابتسام

« يشغلنى أنى مسافر »

— مسافر ؟؟ كيف هذا ؟ وإلى أين ؟

— أوه ! لا الى مكان معين سأتنقل من بلدة الى بلدة ، ومن قرية الى أخرى ثم أعود فيما أرجو .

— وما داعى ذلك ؟ متى عزمت عليه ؟

— لا داعى له الا أن دكتورك أمرنى به وألح على فيه .

فزاد لونها شحوبا وأظلم وجهها وأطرقت لحظة ثم رفعت رأسها وحدقت فى عينيه وقالت

— أنها ارادتك أنت لا مشورة الدكتور ! لاتمار ! انى أعرفك !

فلم يزد على أن ابتسم ابتسامة من يستنكف أن يكابر ولا يكترث لما تظن به فسال ما تحمد فى نظرها ولانت عضلات وجهها وبدا فيه الضعف وأمسكت بكتفه وقالت وهى تهزه ولا تعبأ بمن عسى أن يراهما من الناس .

— لا لا ! لا تذهب ! قل أنك باق !

فرفع كفيها عنه فى رفق وقال بلهجة من يريد أن يطمئنها وان لم يكن فى كلامه ما يعين على ذلك

— ولكن هذا مستحيل ياماري ! لقد أبرقت الى بعض أقاربى أنبئهم باعتزامى السفر غداً وأطلب أن يرسلوا لى من ينتظرنى

— أبرق اليهم مرة أخرى بعكس ذلك

فهز كتفيه وقال

« وما الفائدة ؟ سأسافر بعد غد ان لم أسافر غداً ! فالرحلة لابد منها على كل حال »

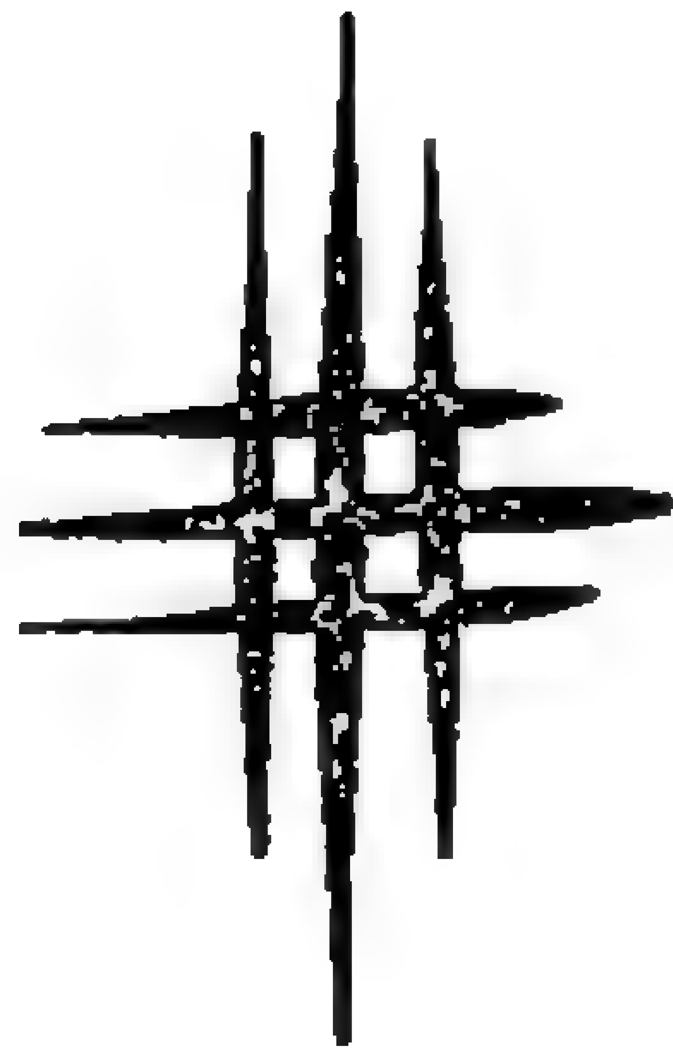
وهم أن يدعوها الى التمشى قليلا ليسرى عنها غير أنه عاد فرأى أن الاحزم والاجدى أن ينتهى الوداع حيث هما فاكتفى بأن يهون الامر عليها — وعلى نفسه أيضاً — ببضع كلمات ثم ربت لها ذقنها بأطراف أصابعه وسلم فقالت بعد أن بلعت ريقاً

ويساراً كأنما كانت تحدثها نفسها بإحساس ضمة . « ياله من حلم قصير ! »

وكان قد خلى يدها ونأى خطوة فقال

« لا لا ! لا تقولى هذا ياماري ! لو كنت ممن يتشاءمون لما حسن وقع ذلك فى نفسى قبيل سفرى ! »

فنبهها ذلك فدنت منه وأقبلت عليه تؤكد له أنهما سيلتقيان أما هو فسلم مرة أخرى وشد لها يده وهو يبتسم ولم يجب!



الفصل الخامس

« قلت أكون حكيما ، أما هي فبعيدة عني »

رجع بنا الحديث إلى الريف ..

بعد أن انطلق ابراهيم من الغرفة التي كان فيها مع شوشو وخرج منها مارقا كالسهم ، انحدر مسرعاً إلى غرفة نومه واستلقى برهة على « كنبة » فيها وأغمض عينيه كالذي يريد أن ينام ، وما به نوم ، ففكر أمام مخيلته كل ما وقع له مع « ماري » مما قصصناه وما لم نقصصه في الفصل السابق ، فعاوده الحنين اليها والأسف على فراقها والألم لما خلفه لها ، ولم يكن ابراهيم ممن يحبون أن يخدعوا نفوسهم ويحلوها من المزايا ماعطلت منه ، وكان يؤثر أن يغمط نفسه وأن يعدها مجردة من كل ما يجعله حبيباً إلى النساء موموقا منهن ، ولعل سبب ذلك أنه كان أحس بالجمال وأحسن تقديراً له وأشد شعوراً بمواطن الضعف في نفسه وأفطن لعيوبه من أن يتأتى له أن يغضي عن هذه العيوب وألا يكترث لها أو أن ينحيها عن عينيه ولايدعها تبرز وتحجب مزاياه ولذلك لم يلبث أن راح يتصور « ماري » متناهية عنه بكل ما يعدها صباها وجمالها له ومن هو ابراهيم حتى تشغل نفسها به وتشيح بوجهها عن الدنيا من أجله ؟ ؟ ان صباها الذي ألقت بها حرارته بين ذراعيه خليق أن يلقي بها بين ذراعي سواه

ولن تعدم رجلا يكون أفتن منه وأوفى أيضاً ! وأى حق له عليها بعد أن آن أن يطرحها ويفر منها على هذه الصورة ولا يترك لها حتى عنوانه ؟ ؟ وهكذا ظل يحمل على نفسه حتى آلمها فنهض وقد ضاق صدره وفتح النافذة لتخلص أنفاسه قليلا وكانت نافذته تطل على فناء خلفى رحيب بعضه ـ وأكثره ـ بستان زهر وشجر باسق ، وبعضه بيوت للدجاج والأوز والحمام والارانب وغيرها ، وحوله سور أسفله مبنى بالآجر وأعلاه مصنوع من قوائم من الحديد مغطاة من الداخل بالحصير ليحجب من يكون فى الداخل عن عيون المارة . وفى الجنوب باب للخدم وقد يدخل منه الزوار من النساء أحياناً اذا شئن ، وكذلك من الرجال الذين يمتون إلى أهل هذا البيت بصلة من قرابة أو مصاهرة ورأى ابراهيم الخدم يدخلون ويخرجون ، وحديد الباب يلمع فى ضوء الشمس فأدرك ان دهانه جديد ، وراقه أن يراقب الداخلين والخارجين وما يصنعون اذ يفتحون الباب أو يغلقونه ومبلغ التفاتهم إلى الدهان وعنايتهم باتقاء تلويثه لايديهم أو ثيابهم فلم يجد الرجال ـ وكانوا قليلين على كل حال ـ يتفاوتون تفاوتاً يذكر ، وكان كل منهم يدفع الباب برجله فيفتحه ويدخل ثم يعود فيدفعه من الداخل أيضاً أما النساء فكن أكثر اختلافاً جاءت أولاهن ـ أو أولى من أبصر منهن ـ فى ثوبها الاسود الذى يكنس الارض وراءها وذراعاها منثيان إلى

صدرها وعمودیتان علیه وکفاها مفتوحتان کأنهما ترید لتتقی بهماشیئاً ، فلما بلغت الباب دفعته براحتیها ودخلت وکأنما أحست أن شیئاً لصق بهما فنظرت الیهما وصاحت « یوه » ووقفت مکانها حائرة ، ثم کأنها لم تدر ماذا تصنع فجعلت تتلفت یمنة ویسرة ومضت إلى أقرب رجل أحدته عینها لتستشیره على الارجح ولم تصوب نظرها مرة واحدة الى ثوبها لترى ماذا أصابه ! وبعد قلیل جاءت أخرى وعلى رأسها سلة مغطاة فلما بلغت الباب مسحته جنبها ودفعته بکتفها ودخلت مطمئنة غافلة عن الخطوط وأنصاف الدوائر التی ارتسمت على ذراعها مما یلی الکتف ! فرفهت هذه المناظر وأمثالها عن نفس ابراهیم وانبسطت أساریر وجهه ولمعت فی عینیه ابتسامة خفیفة وأنه لمشرف على هذه الصورة واذا بصوت من ورائه یقول « خالی ! شوشو تسأل عنك ! » وکان المتکلم محمد بن نجیة . وهو وأخته یدعوانه خالهما اختصاراً. فالتفت الیه کالمفیق من حلم أو کأنما کان قد توهم وهو مطل من النافذة أنه مشرف من السحاب فلما سمع الصوت الذی ینادیه أحس کأنما هبط إلى الارض . ولکنه احساس لم یطل فتناول الصبی ورفعه الیه وطبع على فمه قبلة أبویة وسأله « أین هی ؟ » فقال الغلام «فی غرفة الاستقبال » ویظهر ان ابراهیم استغرب هذا فصمت قلیلا کأنه یفکر ثم قال « حسن قل لها انی هنا لا أصنع شیئاً فلتأت اذا شاءت »

خرج الغلام يعدو ومشى ابراهيم الى السرير ووقف معتمداً بظهره عليه وكان دقيق الملاحظة كثير التفكير فى كل مايرى أو يسمع، ومن عادته اذا خلا بنفسه ولم يرغب فى المطالعة أن يدع خياله يرسم له مناظر ومواقف وينشىء محاورات وأحاديث فجعل يفكر فى قول الصبى ان شوشو فى غرفة الاستقبال فى غرفة الاستقبال؟ لقد تركها هناك! فهل تراها لم تبارحها. وكم دقيقة أو ساعة مضت عليها مذ غادرها؟ وامتدت يده الى جيبه مدفوعة بحركة لدنية وأخرجت الساعة، وتأملها ولكنه لم يقرأ فيها شيئاً بل ابتسم إذ تذكر أنه لم ينظر الى الساعة حين غادر شوشو فلا يستطيع أن يعرف كم لبثت فى هذه الغرفة ولكن لماذا تبقى فى الغرفة وحدها ولا تزايلها؟ ما أغرب أمر هذه الفتاة! أتراها ساءها مابدر منه؟ ربما! بل لاشك فى ذلك فانها فتاة مسمعة مهذبة ولابد أن يكون قوله لها « ياباباء » قد جرح نفسها، وانطلق يلوم نفسه ويعنفها ويستهجن شكاسة طبعه

ودخلت شوشو تنساب كالماء فتقدم اليها باسطاً كلتا يديه وقال « أعتذر اليك ياشوشو! سامحينى! لقد أسأت اليك وكان ذلك سوء أدب منى بلا ريب فهل تغفرين؟ »

فتناولت كفيه فى كفيها وجذبتها اليها وفى عينيها نور البشر وحول وجهها كالهالة وقالت وأمالت رأسها الى كتفها اليسرى « تعتذر إلى؟ لم بالله؟ هيه؟ تعال هنا » ومضت به الى الكنبة « قل لى ماذا كنت تصنع وحدك هنا! أتراك حثت انقضى الوقت كله فى هذه الغرفة؟ اسمع! سأغلقها بيدى بعدأن

تستيقظ من النوم واحفظ مفتاحها معى ولا أسمح لك بدخولها الا وقت النوم ، أفهمت ؟ »

فأعداه بشرها وقال وقد شاع فى كيانه السرور «.فهمت وسمعت وأطعت ! والآن ماذا كنت تصنعين أنت فى غرفة الاستقبال وحدك ؟ »

فدفعت رأسها الى الوراء قليلا وهزتها كما يفعل العصفور بعد أن يشرب وقالت « أنا ؟ أوه ! لا شيء ! وماذا عسانى أفعل وأختى تأبى الا أن تمدنى ضيفه ولو أقمت معها العمركله؟ »

وفى هذه اللحظة سمعا صوت عجلات ووقع حوافر خيل فأصغى ابراهيم أما شوشو فنهضت الى النافذة وأطلت منها ثم التفتت الى ابراهيم وهى تقول « الدكتور ! »

فوقف ابراهيم وقد غاض البشر من وجهه وسألها بلهفه وهو لا يفهم « دكتور ؟ هل مرض أحد ؟ »

فبادرت اليه وقالت « لا لا ! انه الدكتور محمود ، قريب ابن عمى (زوج أختها) الا تعرفه ؟ له عيادة فى البندر ويزورنا من حين الى حين وكلما جاء قريبنا يعود مريضاً .. والآن سأذهب لاستقباله وأجىء به »

— ليس الى هنا ؟ وأنا فى هذه الثياب أيضاً ؟

فضحكت وقالت « لا تخف ! بل فى الغرفة التى أمام غرفتك . هذه (وأشارت اليها) أما ثيابك فما لها ؟ انك فى قرية ولا حاجة بك الى تغييرها »

ومضت تعدو

الفصل السادس

« ارجعي . ارجعي ياشوليت ! ارجعي ارجعي .فننتظر اليك »

لم يسمع ابراهيم الا أن يطل من النافذة ولم يكن يعرف هذا الدكتور محمود ولا سمع به ، أو على الاصح لا يذكر أنه سمع به ، فقد كانت ذاكرته أشبه بالغربال الواسع الخروق ، وكانت الاسماء أول ما ينسى اذا طال غياب أصحابها عنه ، وكثيراً ما كان ذلك يحجله ، وكان ربما التقى باثنين من معارفه لا يعرف أحدهما الآخر فيمنعه نسيان اسم أحدهما ، أو اسميهما جميعاً ، أن يقوم بواجب التعريف ، وكان اذا تحرج الموقف ولم يجد بداً من أداء هذا الواجب ، يلجأ الى المداعبة ويقول لهما « اذا شئتما أن تتعارفا فلا اعتراض لي ولكن لا تنتظرا مني معونة ! » فيتقدم كل منهما للآخر باسمه في حياء واضطراب ، ويخرج هو يتذكر ما كان ناسياً !

ولم يفارقه الوجوم مذ سمع كلمة « الدكتور » تند عن شفتي شوشو ، إما لما تركه توهمه حين نطقت باسمه أن أحداً قد مرض فجأة ، وان كانت شوشو قد بادرت الى نفي ذلك وطمأنته ، وإما لأنه لم يرتح على العموم لما ظهر له من أن شوشو تقابل هذا الدكتور وان كان قريب ابن عمها وكان هو — ابراهيم — ليس من دعاة الحجاب ، أو لانه لم يجد في الساعات القليلة التي أقامها الى الآن

فى الريف ما كان يتوقع من الايـاس والشواغل ، أو لعله كان لـكل من ذلك تأثيره . ومهما يكن من تعليل سهومه فان الذى حدث هو أنه لم يكد يخرج وجهه من النافذة حتى تراجع وأغلق مصراعيها الزجاجيين كأنما كان هذا ما قصد اليه ، ثم عاد الى الكنبة ووضع رجلا فوق رجل وأشعل سيجارة

وفى أثناء ذلك كان الدكتور قد ترجل وترك المركبة فى حراسة أحد الخدم ودخل البيت فاستقبلته شوشو فى وسط السلم وصعدت به الى الغرفة المواجهة لغرفة ابراهيم

وبعد هنيهة دخلت على ابراهيم فاطمة الزنجية التى كره وجهها وكلامها فى الصباح وقالت وهى مطرقة وبها شىء من الوجل

« تفضل ياسيدى »

فنحى السيجارة عن فمه وأرسل نفخة من دخانها وأمال رأسه الى ناحية السيجارة — وكانت فى يمناه — وقال لها بلهجة مبطنة بالمرارة

« الى أين ياستى ان شاء الله ؟ »

فأحست المسكينة أن حادثة الصباح ستتكرر فقالت وهى مضطربة .

« عند ستى شوشو والدكتور »

« ماأسرع ماانسيتنى ستك شوشو بدكتورها ! أنا أيضا ضيف كالدكتور ولم أسبقه الا بساعات . »

قال هذا بصوت خفيض وعينه الى الأرض كأنما كان يحدث نفسه ثم رفع رأسه الى الخادمة التى كانت تخالسه النظر وقال .

— ألم تجد سنك شوشو من ترسله غيرك ؟ لماذا لم تحضر بنفسها ؟

— أنا .. أنا ... ياسيدى .

— أنت تخرجين من هنا .. (بصوت عال)

تخرجت المسكينة تتعثر وبودها لو استطاعت أن تخاف ألا تريه وجهها

اما هو فكان يود أن ينهض ويتمشى فى الغرفة ، ولكن الباب مفتوح وفى وسع من يكون فى الغرفة المقابلة أن يراه ، فظل قاعدا وجعل يتمتم « قبح الله الريف وساكنيه ! . لو انها كانت فتاة من أجلاف الريف لعذرتها ولكنها تعلمت وفى المدارس الفرنسيه أيضا وليست بالصغيرة على كل حال حتى يغتفر لها ذلك ... الواقع ان مجيىء الى هنا كان خطأ . يجب أن أعود ادراجى او ان ارحل الى الاسكندرية فهى من هنا قريبة إن أعصابى ضعيفة ولا قبل لى باحتمال هذه الفصول الباردة وانا بعد لم أحتك بأهل الريف الحقيقيين بل لم أر منهم غير رفيقى من المحطة الى هنا . ذاك الميت الحى الذى لم يكفه اسماعيل واحد ولم يرض بأقل من ثلاثة !! وهو مع ذلك وكيل مصنى ! كيف يمكن أن أطيق كل هذا الجهل والخلاقة ؟؟ »

وكر به الفكر الى مارى . مارى السمحة المؤدبة الوديعة التى كانت تقرأ فى جهه كل مايدور فى نفسه وتسبقه الى مايطلب قبل ان يتحرك لسانه ، مارى التى فرمنها بلا سبب وحرم نفسه متعة حديثها وأنس محضرها ولذاذة حبها ، مارى التى كان اذا خلا بها يجلس على ركبتيها كالطفل ويسند رأسه الى صدرها ويمسح لها وجهها براحته وهى تحنو عليه وتقبله وهو مغمض العينين ! فنهض فجأة وقال وهو يشير بأصبعه « كلا ! لابد أن اكتب اليها لتلحق بى فى الاسكندرية .. »

« من هى ؟ »

فالتفت فاذا شوشو واقفة فى مدخل الباب وذراعاها ممدودتان وكفاها على المصراعين ، وقدها الممشوق بادية معالمه كلها بفضل وقفتها وثوبها الصوفى المحبوك . فبهت ابراهيم كما بهت الذى كفر فيما حدثنا الكتاب الكريم ، ولم يدر ماذا يقول أو يفعل . ولم يكن أسهل من التخلص ، ولكن خياله النشيط حسم له الامر فارتبك وبدا ذلك كأحلى مايكون فى جمود مكانه وفى ثبات حملاقه وذهول نظرته وانفراج شفتيه وتصلب يمناه المثنية الى صدره

فزايلت شوشو ابتسامتها وتقدمت إليه وردت مصراعى الباب وراءها حتى تلامسا ، ووقفت الى جانبه تحدجه بنظرها ثم قالت له وتكلفت الابتسام وإن كان لونها ممتقعا

« ستحرق السيجارة أصابعك اذا لم تنتبه ! »

وكأنما رد صوتها بعض رشده اليه فحنى رأسه وصوب عينيه الى يده وقال « نعم . أشكرك » وبدا منه مثل حركة من يهم بالقعود ، وان لم يكن وراءه شيء ، فسندته شوشو بذراعيها فأفاق تماما والتفت وراءه ثم رفع اليها وجهه الشاحب المتهضم وقال « اشكرك ثانية » فقالت وهي تقسر نفسها على الابتسام ولاتدري ماذا تهدي اليه

« من حسن الحظ ان الدكتور هنا وأنى أستطيع أن أكون ممرضة عند الحاجة ! »

فندت عن صدره « آه » قصيرة مثقلة كأنها خارجة من صدر رجل طعين وهو نائم

— يجب أن تجلس . انك مريض

وتناولت يده تجسها

— كلا ! كلا ! لست مريضا دعيني

ولكنه أطاعها وجلس وهو يتأفف ويمر يده على وجهه

— ان الدكتور وحده

— ادهبي اليه . حقيقة لايليق أن تدعيه وحده

— لاأستطيع ان اتركك وحدك ولكن انتظر .

وخرجت مسرعة

وبعد دقائق عادت وأخبرته انها صعدت بالدكتور الى اختها .

ثم قالت

« والآن اراك أحسن مما كنت حين تركتك . الست كذلك ؟ »

— نعم أحسن كثيرا

— اذن قم والبس بذلتك فقد كلفتنى حيلتى كذبة فعليك ان تبيض وجهى .

— اى كذبة ؟

— لقد قلت لها انك مصر على عدم مقابلة الدكتور إلا فى بذلتك ، كذبة قلتها كسبا للوقت لأنى خفت أن تطول هذه الحالة التى رأيتك عليها وكلفتنى غير الكذبة شيئاً آخر ولكنى سأحاسبك فيما بعد اما الآن فالبس ثيابك وسأسبقك .



الفصل السابع

« أيتها الجالسة في الجنات . الاصحاب يسمعون صوتك فأسمعيني »

— ١ —

صعد ابراهيم الى غرفة الاستقبال العائلية التي جلس فيها بعد الافطار مع شوشو برهة فالفى الأسرة مجتمعة فيها : محمد الصغير ابن نجية يبكي — أو على الأصح يبكي حنجرته الجديدة دون عينيه — لسبب لاشك أنه يدعو الى بكاء مثله ، أو في كفه مرآة صغيرة ينظر فيها ويظهر أن الغرض من ذلك أن يرى في صقالها كيف يبدو الوجه الانساني حين يبكي حامله ! وكان يكف عن النشيج كلما استوقفه المنظر العام أو لفته منه شيء خاص ، ثم يستأنف الاعوال ! وكانت زينب أخته — أو زوزو كما ألفوا أن يسموها على عادة هذه الأسرة — معتمدة بذراعيها على ظهر كرسي ومحنية عليه وناظرة الى مقعده ومشغلة بحركته الى الامام والى الوراء ، وأمها نجية تلتفت اليهـا من حين الى حين وتزجرها عن هذه الحركة ، خوفا على الكرسي ، بمثل هذه الاصوات « تؤ تؤ تؤ » ثم تعود وتحول وجهها الى الدكتور الى

جانبها ولا تنتظر نتيجة زجرها أما شوشو فلم تكن فى الغرفة ساعة دخلها ابراهيم

ووقف الدكتور وتقـدم خطوات ومد يده الى ابراهيم وتصافحا ، ورفع محمد عينه عن المرآة ونظر بمؤخرها الى القادم فى سكوت ثم أكب عليها ومضى فى عويله الذى يظهر أنه كان يجد فيه نوعا من الامتاع، ولكنه لأمر ما هبط نطبق هذه النغمات الى أوطأ ما يستطيع . وتخلت روزو عن الكرسى وخفت الى ابراهيم وتمسحت به وهو يسلم على الدكتور كما تتمسح القطط بأصحابها فاحتملها وجلس وأجلسها على ركبته فأهوت على عنقه تطوقه وتقبله فى صمت تام وابتسام لم تكد تفور عنه من موضع عطفها وحبها حتى انقلب ضحكا عاليا

ودخلت شوشو فى أثر ابراهيم ـ كأنما كانت مختبئة تنتظره ـ فأثارها الدكتور بنظره وتعلقت عينه بمرونة حركتها اذ تبدو كأن أوصالها سائلة وهى تنساب كالجدول الرقراق ، وكان قوسا حاجبيهـا الدقيقين الحادين يختلجان ، وعينها تومض فيها نظرة عجيبة جمعت بين عدم الاكتراث والخبث والدلال والسذاجة ، وكانت شفتاها الرقيقتان تقلدان حاجبيها وتختلجان مثلهما ، وكذلك جانبا أنفها الجميل واذا قلنا أنفها الجميل فقد قلنا كثيراً فما اندر الانوف الجميلة وان كثرت العيون الفاتنة والشفاه المغرية واذا أضفت الى هذا وذاك خصلا متموجة من الشعر الأصفر

وثوبا من الصوف داكن الحمرة منسجما على قوامها أمكنك أن تكون لنفسك فكرة ولو ضئيلة عن هذه الفتاة التى صارت فى هذه الغرفة كالزهرة بين الخضر!

وتخلى لها الدكتور عن مقعده ومضى الى آخر الغرفة لياتى بكرسى لنفسه فابتسم ابراهيم الذى تظاهر بالتشاغل بمداعبة زوزو — إذ رآه يمشى واحد كتفيه الى الامام ورأسه مائل الى اليسار وذراعاه تضطربان فى الهواء كأنما خلتا من الاعصاب أو كأنهما كمان فارغان.

وبعد تبادل التحيات وما هو منها بسبيل قالت شوشو وهى تنظر عن عرض الى ابراهيم، وكان مطرقا يهمس فى اذن زوزو، وان لم بفت عينه ولا اذنه شىء،

« ما قولك يا دكتور! اليوم الجمعة وهو يوم راحتك. فاقضه معنا هنا فان ابن خالتى يمل مجالستنا ويهرب منا دائماً الى غرفتى فلم يبد على الدكتور كأن هذا يضايقه جداً وقال

« ولكن... »

« قل انك موافق ... اسرع »

قالتها بلهجة لم يسع الدكتور معها أن يظل لسانه معترضاً على ما يوافق عليه وجهه فقال

« اذا كان الاستاذ (فرفع ابراهيم وجهه ونظر اليه نظرة بلهاء جوفاء) لايرى فى وجودى ما يزيد ميله الى الهرب فانى على اتم الاستعداد .. »

« معذرة ياسيدى الدكتور اذا قاطعتك. يظهر انك لا تعرف اساليب شوشو المحرجة (ضحك مكتوم من شوشو) اؤكد لك أنها لا تعنى ما تقول ... انا اعرف بها منك »

— بل أعنى كل حرف .

— نعم تعنين انك تطلبين الى الدكتور أن يقضى اليوم معنا ـ أعنى هنا ـ ولكن الباقى الذى يخصنى ليس سوى عبث منك بى وحدى .

— سله يا دكتور بذمته اليس فى عزمه أن يطير الى الاسكندرية حالا لو أنه يستطيع ؟

قالت نجية الى الامام وحملقت فى وجهه ثم فى وجوههم وقالت « يسافر ؟ كيف ؟ وهل أتام شيئاً حتى يفكر فى السفر ؟ »

— سليه ياأختى ! (بخبث)

فقالت نجية بلهجة من كاد يهتدى الى السر « أتراك رأيت ... »

ولكن شوشو قاطعتها ضاحكة

« لا لا : انك لاتنسين عفاريتك قط ! انا أعرف السبب! »

ورمت الى ابراهيم نظرة

فقال ابراهيم بصوت اليائس « ربما » واضطجع فى كرسيه وأطبق شفتيه إطباق من لاينوى أن يفتحهما مرة ثانية

وفتر الحديث لأن الدكتور لم يسمه أن يشترك فى هذه

المناقشة العائلية ولمح ان ابراهيم لايحب أن يتوسع فيها. ورأت شوشو ان اشارتها الى ماسمعته عفوا من ابراهيم وهو يحدث نفسه فى غرفته قد أعادت اليه الاكتئاب فندمت وصار الكلام متكلفا متقطعاً .

* * *

—٢—

وكان الافق قد غام وانتشرت سحابة كثيفة واحدة فى مجاليه ، وبدأت تهمى وترسل صفحات متموجة من المطر ترق حيناً وتكثف حيناً آخر ، وجعلت الأشجار المغروسة وراء البيت سوحع كالبؤساء من الرياح التى تعصف بها وتصفر بينها ، ثم طغت الرياح حتى صارت الجذوع الوطيدة تهتز وتروع الناظر اليها بهذه الحركة التى لم نعهد منها ، كما يروعك الرجل القوى حين يبكى ، وراحت الغصون المتدلية تتصعد وتصوب ، والفروع العالية المستقيمة تتلوى وتترنح وتبدو كأنها توشك أن تتقصف ، واضطربت مهاب الرياح وتعددت تياراتها وتعارضت، حتى صارت الاغصان المتقاربة فى الشجرة الواحدة من هذه الاشجار تميل كل مميل وتتضارب وقد تشتبك ، وجعلت الاوراق ما بين خضراء وصفراء تتطاير عن أعوادها وتتقاذف ثم تسقط فوق الزروع .واظلمت الدنيا وصار وقع الماء على زجاج النافذة كنقر

العصي ، وكانت روعة هذه الثورة قد تركت القوم صامتين برهة ثم قالت شوشو وفي وجهها أمارات الفوز وفي صوتها نبرات السرور « الآن يادكتور لم يبق لك مفر من البقاء ! »

ونظرت الى ابراهيم تبتغي تأييده . ولم ينتظر الدكتور هذا التأييد فأرسلها ضحكة عالية لم يفهم ابراهيم لها معنى ولم يعرف لها داعياً ! وبدا له أن من سوء التقدير أن يضحك المرء وهو محبوس من جراء هذا الجو العاصف فأخذ يراقب الدكتور ويحصي عليه حركاته وأنفاسه تخيل له — ولعله غير مخطىء — ان الدكتور يتغفله ويلاحظ شوشو باسماً حتى وهو يكلم غيرها ، ولم يزل حتى أقنع نفسه بذلك ثم صارت المسألة التي تتطلب الجواب : هل وجه شوشو يزداد احمراراً أو يشحب أو يثبت ولا يتغير على كثرة هذا اللحظان وتكرره ؟ وهل هي ترامقه أيضاً أم هذه الاختلاجات التي يراها في جفونها عفو لا عمد فيه ؟ وعلى كثرة ما فكر في ذلك وطول ما شغل به نفسه لم يستطع أن يطمئن الى جواب يسكن اليه .

ولما أعياه جواب هذه الاسئلة وأمثالها نفض يده من معالجتها كالسأمان واعتاض منها سؤالاً آخر عنيّ به نفسه برهة أخرى في خلال هذه الجلسة التي طالت بفعل الجو الفاسد . ماله هو يتعب نفسه بالتفكير في ذلك ؟ ليترامقا ما شاء ! وهل يعنيه من أمرها شيء ؟ وكان الجواب الذي لم يسترح اليه أنه حب الاستطلاع المركوز في طبيعته ، وانه مفطور على دقة

للملاحظة وليس يسعه إلا ذلك ولا حيلة له فيه ، وليس من الضروري دائماً أن يكون وراء هذا سبب آخر أو علة خفية . وأي شيء هناك يمكن أن يكون خفياً ؟ لا شيء على التحقيق ! فهز كتفيه ومط شفتيه واعتدل فوق كرسيه ووطن نفسه على الضرب في زحمة الحديث . وإذا به يرى شوشو تكاد تسقط عن كرسيها من كثرة الضحك ، والدكتور يبتسم — ابتساما هو أقرب الى الضحك المكتوم فيما يرى — ويسألها مالها ؟ ونجية مرتجة الانحاء مما أصابها من عدوى الضحك وكفها على ذلك الجانب من فمها الذي يواجه ابرهيم . فلم يفهم، وهم ـ تنفيذاً لعزمه ـ أن يضحك مثلهم ولكنه أطبق شفتيه بعد أن فتحهما ، لما لمح من حركات شوشو ونظراتها واشاراتها أن شيئاً فيه هو الذي يضحكها . فاسرع فادار عينه في ثيابه فلم تأخذ شيئاً غريباً فعاد فرفعها اليها وهز رأسه هزة خفيفة كالمستفسر فلم يلق جوابا سوى هذا الضحك ، فشعر بالدم يصعد الى رأسه ويتجمع فيما وراء عينيه ولكنه ضبط نفسه وردها بجهد، ونجية تضحك قليلا ثم تسألها « مالك ؟ » والدكتور يتلفت متظاهراً بالاستغراب ويضرب كفاً بكف ، ومحمد وزور ويقهقهان وينحنيان وتخذلهما أرجلهما فيقعان على البساط، وأخيراً خرجت شوشو تعدو منحنية وكفها على شفتيها وفمها يقول « بف بف ! » .

— ٣ —

ومضت دقائق خيلت أطول مما هي . ولم تعد شوشو . فنهض الدكتور ، وكان أظهر الجميع قلقاً وتلفتاً ، ومشى الى النافذة حيث وقف هنيهة يتأمل السماء المربدة والمطر المنهمر ولا يكاد يرى شيئاً ثم عاد ويسراه فى جيبه ويمناه تعبث بسلسلة الساعة الذهبية وقال « سأنظر أين ذهبت شوشو » وخرج فالفاها أخيراً واقفة على رأس السلم مستظلة من المطر بدورته المؤدية الى السطوح ، ومتكئة على حاجزه ، وسمعها وهو يدنو منها تغنى بصوت خفيض ، فاقترب منها على أطراف أصابعه ووقف على مسافة متر منها معلقاً أنفاسه ، مخافة أن تنتبه الى وجوده فتحرمه المنظر والمسمع جميعاً . والقارئ لا بد يعلم أن الرجل إذا وقعت من نفسه امرأة فهو يحضرها الى ذهنه فى صورة هى أحب اليه مما عداها . لأن هذه الصورة تكون أعلق بذاكرته وتكون هى المظهر الذى تبدو فيه لخياله حين يتمثلها . وقد اختارت صورة شوشو هذه الهيئة التى رآها الدكتور عليها فى ذلك المكان وصارت تزوره فيها فى كلا نومه ويقظته . والمنظر عبارة عن فتاة أقرب الى الطول منها الى القصر فى ثوب من الصوف قرمزى لاصق بالبدن بحيث لا يفلت شىء بينهما ، وهى منحنية بجنبها الأيمن على حاجز السلم ومعتمدة بخدها — الأيمن —

على كتفها ، وبكوعها على هذا الحاجز أما راحتها اليسرى فمطبقة في حصرها الذي يبرز من تحته ردفاها مرتفعين مائلين الى اليسار قليلا ، وجيدها الاتلع النضير قد انثنى عليه القرط تحت شعرها الذهبي المقصوص . وهذا ما كان باديا منها لعين الدكتور حيث وقف يرجو أن تظل كما هي لا تشعر به ولا تتحرك ولا تكف عن الغناء .

ولكنها تحركت ! إما لأنها أحست به وإما لأن الوقفة أتعبتها أو أملتها . فرأته فصبغ الدم وجهها وارتدت ولكنها لم تتجهم له وقالت وفي عينيها نظرة عتب ورضى في آن ·

« آه ! ألك هنا كثير ؟ »

فدنا منها خطوة « لا ! مع الأسف ! »

فلم ترده عن الدنو ولم تحاول أن تتحول عن مكانها لتحفظ المسافة الأولى بينها وبينه وقالت وكلتا يديها وراءها على الحاجز وصدرها بثدييه المستديرين بارز ·

« أكنت تتسمع ؟ »

فقال برقة ، ومد رجله لخطوة أخرى لم يخطها :

« ربما كنت أشد التفاتا الى مصدر الصوت »

فقالت بلهجة من يستزيده مما يحرم عليه ·

« لا تقل هذا يادكتور ! »

« ولماذا ؟ إنك تعرفين إعجابي بك »

فلم يبد عليها ما يدل على الارتياح الى اعرابه عن هذا «الاعجاب» وودت لو أنه استخدم فى وصف شعوره لفظاً أقوى من « الاعجاب » وقالت بلهجة أقسى مما كان ينتظر إذا اعتبرنا ما مر الى الآن

« كلا ! هذا لا يليق وانت تعلم أنى محقة ! »

فدهش — وهل كان يا ترى من حقه أن يدهش ؟ — ولم يدر ماذا أغضبها فجأة وقال :

« ولكن ياعزيزتى .. »

فقاطعته بلهجة أشد قسوة :

« لست عزيزة أحد من فضلك ! »

وكأنما آلمها ألا تكون « عزيزة أحد » وان كانت هى التى حرمت نفسها هذه المزية ، فحل الاكتئاب محل الغضب فى أسارير وجهها الذى بدا كأنه طال فجأة، واحمرت عيناها أيضاً حتى ليظن من يراها انها حديثة عهد بالبكاء أو أنها مشفية عليه . فلم يسعه إلا أن ينقل رجله الأخرى ويخطو الخطوة التى كان هم بها وصده عنها مالا يعلم ، وتقدم منها وكاد يلصق بها فنحت عنه وجهها ومنحته كتفها فتناول يسراها بين راحتيه فلم تسحبها وقال وفى صوته نبرات الاسف والالم الصادقين

« ولكنى لا أفهم ! بأى شىء اسأت اليك ياعزيزتى ؟ »

« قلت لك لست عزيزة عزيزتك ! »

فلم يفهم أيضاً ! وأنى له أن يطلع على ماتطوى عليه أضلاعها وهو لم يرزقه الله تلك الفطرة التي تهديه الى اللفظ الذى يكون أوقع فى نفس المرأة وأعذب فى سمعها وأشد موافقة لهواها ؟ وأراد أن يصلح ما فسد فزاد الطين بلة :

« حسن لن تسمعى منى هذه الكلمة التى تكرهينها . فلا داعى للنفور . ولكن قولى لى كيف أدعوك ؟ »

فسحبت يدها التى كانت قد تركتها له وقالت :

« ادعنى باسمى ! لماذا تدعونى بغيره ؟ »

« اتفقنا إذن ... »

وابتسم، وأبى له سوء الحظ وعماه فى هذه اللحظة الدقيقة التى كان يمكن أن تنعكس فيها الآية ، إلا أن يزيد « ياشوشو »

فرفعت عينها فى وجهه ساخطة زارية وخرجت دون أن تجيبه

وتخلف هو برهة ثم لحق بها وهو يقول :

« ما أعجب أطوار النساء ! »

ولو انه كان تبعها حين خرجت لسمعها تقول لنفسها

« ما أشد غباوته ! »

الفصل الثامن

« يغمز بعينيه ، يقول برجليه ، يشير بأصابعه ،
في قلبه أكاذيب »

— ١ —

جاء وقت الطعام فجلسوا اليه فى غرفته ، أو على الأصح فى الردهة الفسيحة التى تحيط بها الحجرات ، ولم يكن ثم سوى مائدة مربعة وبضعة كراسى من الخيزران . وكان ابرهيم قد سبقهم ولكنه تلكأ عند باب السلم ووقف — حيث كانت شوشو منذ برهة ! — يتأمل الجو ويمد ذراعه ليتلقى بكفه المطر الذى كان لا يزال ينهمر ، ويحاول أن يرفع وجهه ليرى السماء وهل رقت السحب فيها أم لا تزال كثيفة حالكة ، فنظرت شوشو الى الدكتور ، ونظر الدكتور الى شوشو ، وقد طاف برأسيهما خاطر واحد ، وقال كل منهما لنفسه « أتراه رآنا أو سمعنا ؟ » وزادت شوشو فعجبت للأقدار التى جعلتها هى تسمعه فى الصباح وجعلته هو — فيما تظن — يراها أو يسمعها بعد ساعات !

وقالت نجية « يظهر أنه لم يجع »

فقالت شوشو ، ونهضت عن المائدة :

« بل يظهر أنه ينتظر المن من السماء ! »

ومضت اليه وأمسكت بذراعه وجرته معها وهى تقول :

« هكذا يجب أن تعامل ! إجلس هنا »

وكان الدكتور حسن الحظ فقد جلست شوشو الى جانبه . وكان من بواعث سروره الحقيقى أو المتكلف أنه أصر على اتخاذ كوب سهت شوشو فشربت منه وان لم يكن كوبها ! وأن القطة التى لبثت هنيهة فى حجر شوشو انتقلت الى حجره وألمسته شعرها الذى الذى لمس كف شوشو من قبل ، يضاف الى ذلك أنه هم أن يساعدها وحمل الى طبقها شيئاً من الخضر رفضته فنقله الى طبقه بعد أن كاد يلمس طبقها ! وكان من حين الى حين يختلس نظرة الى جانب وجهها والى جيدها وغير ذلك من بدائع هذه الفتاة التى ظلت أكثر الوقت تلقى الحديث الى ابراهيم الجالس أمامها . وكانت فاطمة تتوخى أن تقف وراء ابرهيم مخافة أن يراها، وسنها شوشو لا تفتأ تدعوها أن تتنحى عنه لئلا تلوث له ثيابه وهى تضع الصحاف أو ترفعها عن المائدة ، فتشير المسكينة الى شوشو بيدها وتعض شفتها السفلى وتومئ بعينها الى ابرهيم فيضحك منظرها شوشو ويدير ابرهيم وجهه الى فاطمه فتحمد وتنقطع حركاتها وأشاراتها وتقول نجية

« دعيها ياأختى فانها مستحيية »

وفرغوا من الطعام فاشعل ابرهيم سيجارة وكان الدكتور

يهم بالقيام عن المائدة فلما رأى السيجارة عاد فوطن نفسه على البقاء ، ولمح ابرهيم ذلك فقال :

« لا تكلف نفسك هذه العادات الافرنجية معنا يا دكتور. اننا هنا . على رأى شوشو — فى الريف وعلى اننا معاشر المصريين لا نتحرى هذه العادات حتى فى العاصمة . ويمكنك أن تسبقنا إذا شئت فانى باق هنا مع بنت خالتى (وأشار بعينه الى نجية) . إذهبى يا شوشو معه »

—٢—

قالت شوشو للدكتور لما صارا وحدهما فى غرفة الجلوس

« ان هذا حسن جدا بلا شك ؟ »

« ماذا ؟ »

« أظنه يسرك جدا ؟ »

« ولكن ماذا ؟ »

ألا تستطيع أن ترى أبن خالتى رآك واقفاً معى وسمع ما تفضلت على به ؟

« ولكن كيف يمكن ؟ وهبيه رأى وسمع فماذا إذن ؟ وهل فيما قلت شىء لا ينبغى أن يقال ؟ »

« بلا شك »

« يظهر ان قلبى لن يستطيع أن يصلح ما أفسده لسانى !

فياله من زمن يتعقب سوء الحظ فيه الرجل من أجل انه لم يقدر أن يغمط امرأة ؟ لانه اعرب لها عن اعجابه بجمالها ؟ أو كان على أن أكابر وأن أزعم أنى أكره دمامتك ؟ يجب أن تعترف بانه ما كان يسعنى أقل مما قلت »

فمضت شوشو الى النافذة لتخفى أمارات السرور الطبيعى الذى لمع فى عينها ورجفت له شفتاها وقالت وهى ساثرة :

« احسب أن من واجبى أن أشكرك يادكتور ؟ »

فتبعها وهو يعبث بسلسلة ساعته وقال :

« ان من الثناء ما هو اساءة أدب ، وقد يكون هذا من ذنوبى . ولكن من المعاملة ما هو ظلم وقد تكون معاملتك اياى من هذا القبيل . رجل صريح لم يألف المكاتمة يجهر برأيه فيعد من أجل ذلك سيء الأدب ! »

فقالت ، ووجهها الى النافذة :

« لست اسمح للأغراب أن يجترئوا على حتى بالمدح »

فقال بلهجة الظافر :

« آه ! انه ليس المدح الذى تستحقين أضعافه هو الذى يغضبك بل صدوره عنى ! ولو أن غيرى — ابرهيم مثلا — كان محلى ... »

فتجهمت له وقاطعته .

« إنى أمنعك ! انه ابن خالتى بل أخى وأعز أهلنا علينا ،

وهو لا يحلم بأن يفعل ما فعلت .

فلم ينهزم أمام هذه التعبيسة وضاعف الحملة :

« أن من بواعث اغتباطى على كل حال أن أعلم انى صادق فى وصفى لك رضيت أم سخطت . وهل كنت تريدين أن أراك ثم أذهب أتحدث عن دمامتك لا لسبب يسوغ هذا الكذب الشنيع سوى أن أعفيك من الارتباك والخجل حين تسمعين انك جميلة ؟ »

فزادت تعبيسا وقالت بصوت مرتفع قليلا :

« أن هذا كله تكلف . وانت تعلم ، كما أعلم ، انك لم تقل انى ... »

« لقد قلت انك جميلة »

« كلا ! هذا كذب ! »

« وأقول ذلك الآن . وانك لكذلك . بل أنت أجمل من رأيت . . ويعساً .. »

« لا تخاف فلن أصغى اليك انك فظيع .»

ووقفت مضطربة بين الخجل من سماع ذلك والرغبة فى الاستزادة منه أما هو فلم يعبأ شيئاً بمقاطعتها ومضى يشد عليها ويقول :

« ا كرر انك من افتن النساء فهل فى هذا كذب ؟ ان الأمر واضح لا خفاء به . وقد يكون فى قولى هذا اجتراء

ولـكن الاخلاص شفيعي ... »

« كلا . لأنك غير صادق »

« مهلا مهلا ياشوشو ! واسمحي لى أن أكبر هذا الأدب وأعجب به اعجابى بجمالك . ولا أحسبنى أول من وصفك بهذا .

« ويجب أن تصدقى الناس إذا لم تصدقيني »

فلم تستطع ان ترد نفسها عن مسايرته الى حيث يجرها فقالت:

« أن الناس لا يقولون عنى ذلك »

« بل لا بد أنهم يفعلون وإلا كانوا عمياً . »

« أعنى انى لا أسمعهم فانك تعلم إنى لا أقابل غير أهلى ولعلى مخطئة فى السماح لك برؤيتى »

فلم يلتفت الى الشطر الأخير من كلامها ولم يسمح لها أن تزحزحه عن موقفه وقال :

« ولـكنك تعرفين انهم يقولون هذا ؟ »

فاغرتها حلاوة الاعتراف بالموافقة وصدها الأدب والحياء فاضطربت

« لا — أعنى — سمعت فاطمة تقول انهم يذكرونى بذلك . غير أن .. »

ولمحت اختها وابن خالتها مقبلين فنبه ذلك فى نفسها طبيعتها العابثة وأمسكت عما كانت فيه وقالت بصوت عال

« إذن نحكم ابن خالتى . تعال افصل فى الأمر »

فريع الدكتور واصفر وجهه ودارت الارض به ولم يعد يدرى أواقف هو على رجليه أم رأسه، وتلفت كالذى يبحث عن نافذة يثب منها ولم يستطع أن يمنعها أو يقول لها شيئاً لأنها باغتته بما لم يكن له فى حساب ولم تزد على أن ألقت اليه نظرة خبيثة ثم تقدمت الى الباب

وقال ابراهيم « ماذا ؟ فيم تختلفان ؟»

وكان الدكتور لايزال واجما ممتقع اللون مسمرا فى مكانه وقد بدا لنفسه سخيفاً جداً لا يدرى بأية قوة يواجه الموقف المخجل الذى تهم شوشو بان تضعه فيه

فقالت شوشو — وهى ترمى الى الدكتور بالنظرة وتمتع عينها بمنظره وبما يكابد من ألم وحيرة وخوف —

« انه يقول لى ... ويكرر . ويؤكد ... ويقسم .. أنى . أنه

فعيل صبر الدكتور وصاح بها « شوشو ! »

« لا تقاطعنى من فضلك . يجب أن يعرف ابن خالتى هذه الحماقة »

فقال ابرهيم عابساً

« حماقة ؟ ماذا تعنين يا شوشو ؟»

«أعنى أنها حماقة وجرأة وجنون .؟ ولابد أن أبسط لك الأمر لينأتى لك أن تحكم فامسك أنت أيضاً عن المقاطعة من فضلك . . »

ثم كأنها رثت للدكتور المسكين فكفت عن تعذيبه وقالت:

« يقول أنه لا يستطيع البقاء معنا وان لا بد له من العود الى المركز لأن عليه أن يعود أحد المرضى مهما كانت المشقات. وأنا أقول له أن العود مستحيل فى مثل هذا الجو المطير. فاقض بيننا بالحق. »

وجلست. فجلس الدكتور كأنما كان قد انقلب آلة حاكية ولم يسرعنه ما قالت لانه — على فرط ذهوله — أدرك أنها تبيعه صمتها بثمن معين هو أن يجلو عن البيت حالا. فيالها من عقوبة تنزلها به جزاء له على ما اجترأ به عليها من المغازلة البريئة؟ أفتراها كانت، وهى تعاطيه الحديث، تفكر فى هذه الوثبة التى قصمت ظهره وأطارت لبه وشردت عقله؟ ويا ليت من يدرى أجادة هى أم هازلة؟ وعلى أنه لم يطل التفكير فى تلك اللحظه ولم يسعه إلا أن ينزل على حكم المقادير التى جعلته رهن مشيئة شوشو، على لأقل فى هذا الموقف، فهز رأسه لنجية وابرهيم أن « نعم » وبلع ريقه ومد يده الى جيبه ثم أخرجها وقال « لقد كنت ناسياً فذكرتنى المفكرة وأنا أنظر فيها عرضاً. وأنا أعلم أن الخروج فى هذا الجو حماقة، ولكن واجب الطبيب فوق راحته. » وأظهر الاصرار وراح يدفع « بالواجب » و « بحالة المريض » كل اعتراض. حتى أذنوا له بكرههم.

الفصل التاسع

« من صعد إلى السموات ونزل ؟ من جمع
الريح فى حفنتيه ؟ من صر المياه فى ثوب ؟ »

انقطع المطر وسكنت الريح ، وكان ابرهيم واقفاً الى نافذة غرفته يطل على الحديقة التى مر بك الكلام عليها، أو على الاصح يحدق فى الظلام الدامس والسكون الرهيب اللذين لف فيهما السكون ، حين دخلت عليه شوشو ودنت منه ووقفت تتأمله ، وهو لاه عنها بما يرسمه له خياله النشيط ، وكان البرد قارصاً والليل صامتا لا حركة فيه ولا حس ، كأنما استحال كل شىء فى السماء والارض صورة مرسومة ، وقد خيل لابرهيم وهو يرى هذا السواد بعينه كأن هاوية من الخرس قد ابتلعت كل صوت ونأمة، وأنه لو أرسل فى ظلمتها صيحة لما ارتد منها الى الأذن رجع ولا كان لها صدى ، وأنه لو ألقى فيها بحجر لما سمع له وقعاً ولا بلغ الحجر قاع الهاوية ، وبدا له كأن الأرض قد ضرب عليها السحر شيطان وألزمها حالة غير انسانية يعيي الانسان نعتها ، أو كأنها فى غيبوبة أفقدتها وعيها أو كأنما هو ينظر الى الدنيا الذاهلة عنه

من خلفها ويتأملها وهى مدبرة عنه أو يسترق السمع من وراء أستار الكون

وعالج ابرهيم ، وهو ثابت الحلاق ، أن يصور لنفسه وقع هذا المشهد الرهيب وما انطوى عليه من الجمال والجلال والموت فى آن ، وأن يتبين نوع احساسه به وأن يهتدى الى العبارة عنه فاعياه التماس ذلك ، وماذا عسى أن يبلغ من طاقة المرء على تصوير هذا المنظر المسحور — هذه الدنيا التى أنامتها عين غير مرئية ؟

وطال الامر على شوشو أو لعلها خشيت أن تعديه الطبيعة فيجمد وينقلب تمثالا فقد جعلت تمر كفها على ذراعه وتمسح له شعره براحتها . وهو فى شغل عنها ، فلما رأت أن ذلك لم يرده الى الحياة ولا أشعره وجودها أدارته اليها وربتت له خده فاختلجت شفتاه ولكنه لم ينطق فافترت له عن أعذب ابتساماتها وقالت له وهى تجره الى الكنبة :

قل لى مالك ؟

فقال وهو يقعد أو يلقى على الاصح بنفسه على الكنبة

— تسألينى ما بى ؟؟ بى هذه الطبيعة التى كانت منذ ساعة تبرق وترعد وتمطر وتصخب كأنما يعول فيها مائة ألف شيطان ثم آضت كما ترين ، الآن فقط فهمت ما كنت أقرأ فى صباى عمن مسخوا حجارة !

— هل تريد أن تقول أن هذا أول عهدك بمثل ذلك ؟؟

— نعم . ولشد ما أتمنى أن أحرب ذلك فى نفسى لحظة واحدة ! لحظة واحدة تسكن فيها نفسى هذا السكون فتخرس ألسنة الهواتف ، وتمحى صور الحوادث ، ويغيض ذلك العباب الجائش هنا فى صدري هذا ،

فقاطعته شوشو قائلة .

— ما أعجب أمرك والله ! نكون معا كأن لاشىء على وجه الأرض يعنيك ثم لاتكاد تخلو بنفسك حتى تنقلب انسانا غيرك كأن فى جوفك بركانا يريد أن ينفجر ، أفلا تفضى الى بما يكربك ؟ قل لى ! هات ماعندك ! أفرشنى دخلة نفسك ! ائتمنى على سرك !

فوقع من نفسه عطفها وحنوها وهم أن يبثها شكواه ويقول لها نشجوه ، ولكنه ضعف لم يساوره إلا ريثما التفت اليها ثم ملك نفسه وكبحها . وقال وعلى فمه ابتسامة سرور وشكر لم تخل مع ذلك من السخر

يافتاتى الصغيرة أتقدرين أن ..

لحزت هذه الابتسامة فى نفس شوشو ووثبت الى قدميها وهى تقول

— بودى أن لا تكلم كأنك شيخ هرم وأنا طفلة أحبو ؟

— لا تغضبى ! (ومد يده فتناول ذراعها) عودى الى مكانك بجانبى دعى بدواتى هذه لا تلتفتى اليها . أنها مرارة النفس يقطر بها اللسان ويصطبغ بها الوجه وتفيض بها العين ،

وبكرهي آن ترى مني ذلك — أنت أو سواك من خلق الله .
آه ياشوشو لو تعلمين ! إذن لعذرتني .

— وماذا يمنعك أن تخبرني فتطرح عن صدرك هذا الحجر ؟

— يمنعني كبرياء نفسي وعلمي أن الشكوى عبث وباطل ومحال ليس يجدي .

— أدام الله عليك هذه الكبرياء التي أفاضها عليك !

ونظرت الى ساعتها على معصمها وقالت

— الساعة الآن الحادية عشرة فقم الى سريرك والتحف بها!

فضحك وقال :

— وأنت ؟ هل أثقل رأسك النعاس ؟

— أو يعنيك أن تعرف ؟

— بلا شك

— إذن اعلم أني لست ذاهبة لأنام

— وماذا تنوين أن تصنعي ؟

— سأجلس قليلا وأفكر

— في أي شيء ؟؟

— ليس لي مثل كبريائك فلا أكتمك إني سأفكر في غرابة أطوارك

— آه ! أولا تزالين غضبي؟؟

— كلا . ليس ما بي غضباً لقد كنت أود . . على أن هذا

لايهم الآن ... »

تخطر له أن هذه الفتاة على صغر سنها متعلمة وأنها قد تستطيع أن تفهم وأن تعذره فقال

« اسمعي ياشوشو . أن الواحدة منكن تكون طفلة وتدعى لنفسها مع ذلك قدرة الانبياء ومنزلة الرسل . ان ... »

قالت مقاطعة « لا أفهم »

قال « لست وحدك لا تفهمين . أن كل امرأة مثلك لاتستطيع أن تخرج من خصوصها الى العموم . انقلب الواحدة منكن يدق عطفاً ومرثية للالم الفردى ولكنه يعجز عن أن يجعل عطفه أو احساسه على العموم عميقاًشاملا لآلام الحياة ... »

فابتسمت وهزت رأسها وقالت بلهجة مبطنة بالسخر

« صدقنى انى أعطف عليك »

فقال ولم يلتفت الى سخرها

« أن الجنس الانسانى معناه فيما تعلم المرأة هذا الطفل المعين أوهذا الرجل المعين الذى لعلها أبصرته واقفاً الى جانب الباب ينتظر في البرد أوتحت الشمس مثلا . ان المرأة عاجزة عن الاحساس بالآلام العامة عمياء لاتستطيع أن تراها . هذه هى الدنيا نصف عمياء نصف مستوحشة تصرخ شرقا وغربا وقد أجنها الألم والخطيئة أيضاً . فهل ثم امرأة واحدة يشحب وجهها إذ ترى هذا النمر العالمى يهز قفصه ؟ هل تكف واحدة منكن عن نظم العقود وتطريز

الثياب من فرط إحساسها « بجملة » هذا الألم العالمى ؟ أرينى دمعة واحدة أراقتها إمرأة — كما أراقت كورديليا عبراتها — لأن الدنيا جنت ؟ ليس من بينكن من ترى أن تبكى من أجل هذا على كثرة دموعكن وسهولة إسبالها ! انكن لا تبكين إلا لما تعرفن وأنتن معذورات : طفل مريض تلمسه المرأة باصابعها فتحس ما به من الحمى فسهمر الدموع ! ولكن مليوناً يمرضون آه هذا شيء آخر ! ولأولى أن ينتظر المرء منكن أن تبكين من أجل الكسور الاعشارية أو المركبة ! إنكن لا تفهمن الدنيا باعسارها وحدة وكلا ، ومن أجل هذا لا تتأثرن بكن هذه الدنيا لأن الواحدة منكن لا تقدر أن تتسرب فى المجموع وتفنى فى الجماعة . نجد منكن الأم الرؤوم والزوجة الوفية الكاملة ، وقد نرى فيكن الولية والقديسة ولكنا لن نفوز منكن بنبى أو رسول — لا حتى ولا بشاعرة »

وأمسك بعد هذه الخطبة الطويلة ، وعجب لنفسه الذى ساعفه على كل هذا الكلام واضطجع وأطبق شفتيه

ولم تجبه شوشو بشيء بل نهضت وأغلقت الباب وراءها .

— ٢ —

استيقظ ابرهيم على صوت بقرة فدفع يده تحت الوسادة وتناول الساعة فألفاها الثالثة صباحا فعاد فأغمض عينيه وفى ظنه أن البقرة ستكف عن هذا الصخب الذى جاء قبل أوانه ، ولكن البقرة على ما يظهر كانت تعتقد أن الليل قد انحسر وأن الصبح قد أسفر ، فوثب عن السرير الى النافذة فاذا السماء صافية والقمر مضىء ففتحها وأطل برأسه فرأى البقرة الى جانب الباب وقد مطت عنقها ورفعت عينيها الى السماء ولم يكن يعرف البقر إلا مجازاً ولا كان له بهذا الضرب من الخلائق عهد فجعل يصيح بها « هش . هس . » ويوهمها أنه سيقذفها بشىء غير أن صيحاته وحركاته وأشاراته كانت تنعشها كأنما سرها أن تعرف أن لاصواتها مستمعاً ، كما يشجع المغنى أن يرى الطرب يهيج السامعين فلما رأى ذلك منها توهم أن ظهوره لها هو الذى يشجعها وأنها خليقة أن تثوب الى السكينة وان تثبط همتها إذا انصرف عنها فأغلق النافذة وتحرى أن يحدث فى اغلاقها من الضجيج أكثر مما تدعو اليه الحاجة ايذانا لهــا باهمال شأنها . وكأنما حسبت البقرة ان احتجابه عنها كان داعيه أنها قصرت فى الاداء ، وأن التعبير كان ضعيفاً وان الاحساس فيه فاتر ، فاطلقت عليه أقوى أصواتها ، وكانت جفونه قد كاد يطبقها النعــاس فاطارته هذه الصيحات

المتلاحقة وكادت تطير بلبه معها فجر نفسه الى الكنبه وانطرح عليها واشعل سيجارة ومضى يفكر على هذا النحو

« النوم قد جفانى ولاسبيل اليه الآن مادامت هذه البقرة قد شاءت أن تعد الصباح قد طلع . والجلسة هنا — الى صباح الآدميين لا صباح البقر — كلفة شاقة . وإذ كان الحظ قد رمى بى الى هذا الريف الذى يبكر ناسه فى النوم وتبكر أبقاره فى اليقظة فالرأى أن أخرج الى هذه الحديقة التى أفسدتها البقرة وأن أنتظر فيها الفجر لعله يوحى الى ببعض معانيه »

ولما انتهى الى هذا الرأى أسرع فلبس معطفه وحذاءه وأخرج من الحقيبة مذكرته وقلمه وفتح الباب وخرج واغلقه خلفه ولكن من أين ؟

وكانت البقرة تواصل الصخب فاراد أن يسرع ليدركها ويثأر منها غير أن الاهتداء الى باب السلم المؤدى الى الحديقه استغرق من الوقت وكلفه من المتاعب ما لم يكن يخطر له ببال . وكانت الغرف كلها موصدة حتى غرفته والمكان مظلماً وكان ظنه أن هـذه الصالة فارغة فاذا به يحسها مكتظة فقد كان ثم دلو ثقيل اصطدم به أكثر من عشر مرات فى لفه ودورانه حتى اهتدى الى وجوب حمله معه وهو « يطوف » فى ارجاء هذه الصالة التى أصارتها الظلمة لا أول لها يعرف ولا آخر لها يوصف، وراح يعزى نفسه عن حمل هذا الدلو الثقيل بانه سيضرب البقرة به .

ولـكن كيف يهتدى الى الباب وهو لم يكد يخطو خطوات فى الصالة ويصطدم بالدلو لأول مرة حتى اختلط عليه الامر ولم يعد يعرف شرقا من غرب بل لم يعد يعرف أين باب غرفته هو ؟

ووقف برهة يفكر فى المخرج من هذا النيه فبدا له أن الاشكال يحل بان يلتمس الحائط ويسير على محاذاته فانه ان فعل ذلك لا محالة موفق الى الباب ، ففعل بلا عناء يستحق الذكر وسار كما اعتزم . غير أن الواقع أنه بدأ بباب السلم وهو يحسبه باب غرفته وراح يمضى عنه لا اليه ، والتقى فى طريقه بما لا يذكر انه رآه فى النهار أو فى اللحظات القليلة التى اجتاز فيها هذه الصالة قاصداً الى غرفته أو خارجا منها ، وتعثر بما حسبه «غابة» من القوارير حتى لم يجد معدى عن أن ينأى عن الحائط مرغماً ، وسار بضع خطوات فاذا به يلتقى بقوارير توهمها غير الأولى فضحك وقال لنفسه لعل أرض المكان قد فرشت بالقوارير !

وصادف بعد ذلك برميلا نعم برميلا فوقف يعجب ويتساءل هل قررت شوشو أن تقلب الصالة حانة خمار ؟

وما هذه البراميل والقوارير فقال أترك الحائط وأرمى بنفسى فى جوف الصالة وأدفع أول باب أبلغه . ألم يقل بشار « وفاز بالطيبات الفاتك اللهج » ؟ فكان هذا فاتحة التوفيق . ذلك أنه وجد بابا لم يعن نفسه لفرط ضجره بالتساؤل عنه أى باب هو ؟ وطاله فانفتح فاذا به باب سلم فصافح وجهه نسيم الليل المقرور

وأعاد اليه اتساق خواطره فانحدر ولكنه لم يجد حديقة ما ! فوقف كالابله !

وكان صوت البقرة لا يزال يصل اليه فلم يجد عسراً فى فهم ما حدث . ذلك انه لم يهتد الى سلم الحديقة بل الى سلم خلفى يفضى الى فناء « الحريم » وبذلك صار الجناح الذى ينزل فيه بينه وبين البقرة فقال « لا بأس وان كانت البقرة قد نجت بجلدها» ووضع الدلو مقلوبا وكان لايزال معه وقعد عليهوأخرج القلم والمذكرة ليدون ما يخطر له

ولم يخالجه شك فى أن الشمس ستطلع لا محالة من الناحية التى جلس ينظر اليها فقد أخذت السماء تصطبغ بلون قرمزى شيئاً فشيئاً ولكنه لم يكتب شيئاً ولم يخط حرفا لان احجام الشمس عن الطلوع حيره حتى خالجه شعور وقتى بالخوف عليها وابتسم وهو يقول لنفسه « لولا ما نعلمه فى المدرسه لحسبت الشمس قد غيرت رأيها وعدلت عن الطلوع اليوم »

ثم نهض ونظر خلفه ولم يمنعه قيام البناء فى وجهه أن يدرك أن الشمس طلعت من ورائه !

وجلس وكتب فى المذكرة هذه الملاحظات وهو يبتسم ويقول « لعل فيها فائدة لسوشو ! »

« ديسمبر — فى الريف . يظهر أن البقر أحس بالفجر من الديكة وأسرع الى تحية الصباح من العصافير . وفى وسع من

يعنيه ذلك أن يقضى ليلة في الريف ويبكر في القيام قبل الفجر بساعة وبعض ساعة وليس في الريف ذلك السكون المزعوم فانه إذا سكتت الطبيعة هاجت الابقار ويجب على من يبغى الراحة والنوم العميق في الريف أن يأخذ معه كمية من الاسبرين أو الفيرامون تكفى له وللبقر عند الحاجة »

ولم يفتح الله عليه بأكثر من هذا أو أشبه به بالمعانى الشعرية ، ولم يدون شيئاً من الخوالج أو الاحساسات لأنه كان في تلك الساعة مجرداً منها وعلى أنه — كما قال لنفسه ، ماحاجته الى الاحساسات التى قد يخطىء في تصويرها أو يوشيها بما يجعل ألوانها أزهى أو أقتم ؟ أليست هناك مدرسة ترى أن يكون الوصف مطابقاً للحقيقة عاريا من زينة الخيال وحليه وتفويفه ؟ وهب لا مدرسة هناك فما ذنبه هو إذا كانت شمس الريف قد أبت ألا أن تطلع من ناحية غير مرقوبة ؟ ومن أين تأتى هذه الخيالات أو تنشأ الاحساسات ولا تفكير له إلا في البقرة التى هدت رأسه بأنغامها ، والدلو الذى شل ذراعيه جميعاً على التوالى بنقله ؟ ؟ »

ومع ذلك لم ير أن يبخل على السماء بملاحظات نفعه إذا حدثته نفسه أن يكون روائياً فكتب

« تبدو السماء قرمزية ثم تخضر لسبب ما ثم تصفر أو تبيض لسبب آخر غير واضح »

وضحك وقال لنفسه فلنشبهها بشيء ! أليس التشبيه ضروريا في كل كلام شعري ولو لتقريب الصورة التي يراد اداؤها ؟ ولكن من أين يجيء لها بمشبه وهي لا تثبت على لون ؟ وماذا تقول شوشو إذا اطلعت على هذه العبارات ... شوشو ؟ لقد خطرت له سوشو مرتين في نصف ساعة ؟ ولكن لا عجب فما يقضي معظم وقته إلا معها ولا يملأ جوه سواها الى الآن

وعاد الى التشبيه اللائق بهذا الجانب من السماء الذي احمر ثم اخضر ثم اصفر ، وبينما كان جاداً في البحث عنه ، خرجت فاطمة الزنجية من باب الحريم ولم تكد تراه — وهو لاه عنها — حتى انكفأت راجعة وعادت بأهل البيت جمعاً كباراً وصغاراً وسادة وخدما وفي طليعتهم نحية وشوشو وأقبلوا عليه جميعاً يسألونه في وقت واحد عما به ؟ وما جاء به الى هنا ؟ وفيم الجلوس على هذا الدلو ؟ وماذا يصنع بالقلم والكتاب في يده ؟ وهل هذه عادته في مصر ؟ الى آخر هذه الاسئلة التي فقد ينتظر آخرها على غير جدوى وهو ينقل عينيه من وجه الى وجه تبعاً لمصادر الاسئلة حتى كاد يجن .

ولما أعياه أن يجد فرصة للكلام وسط هذا اللغط المتصل نهض عن الدلو في صمت ومضى الى غرفته وأوصد بابها وراءه وانطرح على السرير بما عليه من ثياب وهو يقول

« لماذا لم أنم ؟ سأنام حولا كاملا متى عدت الى القاهرة !

ماذا كنت أصنع ؟ لقد كنت أريد أن أخرس هذه البقرة التي أرعجتني كما لم تزعجني سيارات القاهرة وأبواقها وترامها وصياح البائعين فيها ! ذلك كله هناك غير مستغرب وأعصاب المرء مستعدة له بسبق التوقع وبالعادة ولكن هنا . هنا حيث يقولون ان السكون سابغ والهدوء مطبق محيط والمرء لا يتوقع شيئاً من الضوضاء ! والاعصاب متفترة مسترخية من الاطمئنان والأمن، تكفي بقرة واحدة لاطارة العقل .»

وأخذه النوم وهو يحدث نفسه بالرحيل .



الفصل العاشر

« العين لا تشبع من النظر والاذن لا تمتلئ من السمع »

لم يطل نوم ابرهيم . ذلك أن الكرى كان قد عقد أجفانه قبل أن يتخطى فلم يلبث أن ارتد فاستيقظ وكانت الساعة قد جاوزت الثامنة بدقائق فقام ونظر من زجاج النافذة الى الشمس المشرقة على الحديقة والحقول وراءها ففتحها فتضوع اليه ريا الخضرة المطلولة والازاهير الندية دافئة تحت الشمس وكان واسع الاطلاع ملماً بأساطير القدماء وما نسج خيالهم حول الطبيعة ولكنه نسي ذلك كله لما صار وحده مع السماء والأرض وهما أوسع وأشد نبوغا من أن توائمهما الخيالات المسطورة فى الكتب وأحس فى هذه اللحظة حنينا — لا الى شيء معين — وغبطة تشيع فى كيانه كله، وظمأ خيل اليه أنه ما من شيء يمكن أن يطفئه ويفثأ غلته فمال بذراعيه على النافذة وأبرز وجهه للشمس وحدق فى السحب البيضاء تتفرق وتتجمع وتسبح فى بطء وخطر له — وعجب هو لنشوء هذا الخاطر — أن من الخطأ أن ننعت الطبيعة بالقسوة كلا ليس فى الطبيعة قسوة حقيقية انها حارة حية ولا تكاد تتفق الحرارة والقسوة وإذا كان بعض ما فيها يسطو على البعض الآخر ويأكله أو يلتهمه أو يأتى عليه فما قيمة هذا ؟ ان كل شيء يحيا وإذا كان يموت فانما هذا ليعين غيره على الحياة وأين

ياترى قرأ أن الـكون فنان لايزال يعبر عن نفسه لصور مختلفة ؟ لايذكر أين قرأ هذا ، ولـكنه يذكر أيضاً أن الـكاتب قال — أم ترى هو صاحب هذا الخاطر ؟ — أن هذا الفنان الأعظم لايزال يحقق فيما يحاول أن يبدعه ويخلده من خارجياته ، على أن العالم بل العوالم كلها صغيرها وكبيرها مثلنا ومثل الازهار والاشجار ليست سوى قطع شتى من هذا الفن ، وكل منها تام فى ذاته كامل من حيث هو. وكل حياة تجرى الى مداها ثم تراق وترد الى هذا الفنان المبدع الذى لا ينفك يحاول ضروبا جديدة من الفن . العقل والمادة شيء واحد ومن يدرى ؟ فلعله ليس ثم لاعقل ولا مادة وعسى أن لايكون هناك إلا نمو ودبول ثم نمو جديد وذوى وهكذا الى ما لانهاية — فنان لا يفتأ يعبر عن نفسه فى ملايين وملايين من الصور المتغيرة . والذبول والموت — أو ما اسميهما كذلك — انما هما راحة ونوم . أو هذا هو الجزر الذى يجيء بين مدين، أو الليل الذى يفصل نهارين، والنهار الذى يطلع لا يشبه الذى سبقه فى شيء . ولا المد كالذى كان قبله . وهذه الصور التى نراها فى الدنيا وفى أنفسنا ، هذه القطع الفنية التى يخرجها الفنان الاعظم لا تعود ولا تبقى على حال واحد ولا تلتزم شكلا معيناً . بل هى دائماً جديدة عوالم جديدة وآحاد وأفراد جديدة واراهير طريفة . وليس فى هذا ما يكرب النفس كلا إنما يكرب النفس أن تعلم أنها ستطل

حية أبداً حتى بعد ما يسمى الموت : أو أنها ستحيي كرة أخرى فى جسم آخر فلا أنا أنا ، ولا أنا مخلوق آخر . ان هذا يكون ماذا ؟ فساد ذوق ؟ هبنى كتبت مقالا أو وضعت قصة أو نظمت قصيدة . فهل أستطيع أن أتصور أن مقالتى تصبح مقالة أخرى أو أن قصيدتى تنقلب قصيدة ثانية ؟. وهل فى وسعى أووسع سواى أن يفصل ما بين العبارة التى صببت فيها المقالة أو القصة أو القصيدة ، والمادة الذهنية التى أعربت عنها بهذه الألفاظ ؟ كلا . وكما أنى أنا الفنان الاصغر لا أزال أصوغ كل يوم جديداً ، كذلك الفنان الاعظم لايزال يخرج من القديم جديداً ومن التالد طريفاً . كالنافورة تقذف الماء خيطا من القطرات لا تشبه منها واحدة اختها ، وتقع هذه القطرات فى الحوض وتعود أدراجها من الانابيب الى النافورة فتقذفها قطرات جديدة مصوغة فى أشكال وحجوم غير الأولى .

ثم تنهد وقال لنفسه «ولكنى لاأستطيع أن أفهم أو أدرك لماذا تظل هذه القوة الابدية منهمكة فى الاعراب عن نفسها فى صور فردية شتى لا آخر لسوعها ؟ لماذا لا تكف ولا تنقطع عن العمل ولا يصير كل شيء الى «لاشيء» ؟ طلام أبدى شامل ..! وياليت من يدرى أهما اثنتان لا ثالث لها :— أن يظل هذا الفنان يعمل ويخرج ويبدع كما هو فاعل أو أن لا يكون ثم شيء على الاطلاق؟ وهل من الاتفاق المحض ان حدث هذا ولم يحدث ذاك؟»

وسكت وحدق بعينيه الواسعتين فى الفضاء كأنما يبغى أن يرى شيئاً هناك وراء كل منظور ثم هز كتفيه وقال وهو يمشى الى « الـكنبة »

« كل هذا جميل . ولـكن هل بنا حاجة الى التفكير ؟ هذه لدنيا امامنا واحسب أن كل ما بنا حاجة اليه هو أن نتناولها كما هى وأن نقنع بذلك . »

وهم بالجلوس فسمع نقراً على الباب ففتحه وطالعه وجه شوشو كأنه — أى وجهها — فى حلم ، وأحس وهو يصافحها كأن حولها جوا من الماضى والمستقبل وذلك ما لا عهد له به فسألته

— ماذا كنت تصنع ؟

— لاشىء

ولـكن وجهه مال الى النافذة فقالت

— أ كنت تسخط على هذه الطبيعة التى لا تثبت على حال ؟ ألا ترى معى أنهـا كالطفل ، تكون عابسة با كية ثم إذا هى تضحك لغير سبب مفهوم ؟ ان تناقضها أو اضطرابها كثيراً ما يحيرنى ؟ وكم تمنيت لو انى أستطيع أن ألزمها الحالة التى يتفق أن تروقنى — الى أن يتغير مزاجى على الأقل »

فعجب أن يجىء أول ما يجرى بخاطرها بسبيل مما كان هو يفكر فيه ولـكنه كتم هذا — وإن لم تكتمه عيناه — وقال مجيباً على كلامها

« كلا ياشوشو أنا لا أحس بالرغبة فى إلزام الطبيعة حالة ما أو بعبارة أخرى لا أعنى أن أفرض عليها مزاجى الخاص أو أى مزاج معين ولعل ذلك لأن تنوع الأمزجة أو تعدد الحالات التى تكون عليها الطبيعة فى جميع مظاهرها — هو مصدر السرور الذى أفيده منها، بل هو الذى يرجع اليه ويقوم عليه ايمانى بالحياة. ولولا هذا التنوع لما بقى ثم شىء اسميه الحياة»

فافترت عن ابتسامة اعجاب وقالت

« ذلك لأنك أديب . لأنك ابرهيم الكاتب ! »

قال « نعم . أحسب الامر كذلك وان كنت لا أرى ان كونى كاتبا هو السبب فى ذلك كلا ان طبيعة الفنان أو روحه ترتاح إلى التغير فأنا أحل هذه الجدة التى أراها فى كل صباح يطلع وكل مساء يجىء وفى كل شخص فى كل مظهر من المظاهر التى تعبر بها الحياة عن نفسها ارتاح لأنى لا أرى شيئاً نهائياً ولما كان التغير دائما فلا أرانى أشبع من النظر والتأمل والتفكير. احب كل شىء . ما كان وما هو كائن وما سيكون أحب حتى . الموت . »

وسكت وساد سكون عميق ثم رفع اليها عينه وقال

« وأنت يا شوشو ؟ ما رأيك ! »

وكانت جالسة على كرسى وأصابعها متشابكة فوق حجرها وعينها إلى النافذة فالتفتت اليه كأنما ايقظها صوته من حلم والتقت عيونهما وقالت

« انا ؟ لا أدرى ! انى لم أ كن مصغية . »

فاضطرب شيء فى صدره وخفق قلبه خفقة عطف مضطرم وشعر كأن بها حاجة الى حمايته ، واستغرب من نفسه هذا الاحساس الذى لا مثير له ولا موجب لنشوئه فابتسم وقال :

« ألم أقل لك ان المرأة يعجزها أن يكون إحساسها شاملا ونظرتها جامعة وروحها واسعة محيطة ؟ »

ورآها مصغية اليه فمضى فى كلامه .

« انا مثلا — ولست أعنى نفسى على وجه الخصوص ولكنى أعنى الرجل على العموم — أستطيع أن أفتح قلبى للطبيعة كلها بكل ما اشتملت عليه وأن أغمر كل مظاهرها بحبى ، حتى هذا العنكبوت الذى يخيفنى فى العادة والذى أكره أن أرى نسجه فى زوايا النافذة أو أركان الغرفة ، يفيض قلبى له ويتفتح . ولكن المرأة شيء آخر لم ترزق هذه السعة الروحية . نعم قد تحس أحيانا بشوق الى أن تضم الكون كله بين ذراعيها. ولكن هذا لماذا ؟ لانها تحب إنساناً معيناً لا ترى سواه ولا تحس إلاه والكون كله مختزل فى شخصه. وليس لشيء وجود منفصل عنه فهى إذا احبت الطبيعة فانما تحب فيها هذا الرجل الذى يملأ دنياها ويستغرق عالمها »

فأرخت شوشو عينها هنيهة ثم رفعتها اليه وقالت :

« وإذا كان الرجل هو الذى يحب ؟ إذا كنت أنت مثلا هذا الرجل ؟ »

فاضطرب وتدافعت العواطف فى صدره ، وأحس الندم بيمض قلبه ، وخيل اليه كأنه يرى وجه زوجته التى ماتت منذ سنوات ، يطالعه من ظلمة الماضى الدفين ويلومه ويتهمه — يتهمه ؟ لماذا ؟ وكأنه يسمع صوتها يقول معنفاً « كيف يمكن أن تحب مارى ؟ » وغاب الوجه واستتر ولم يبق إلا شوشو تنظر اليه بعينين تحلمان وابتسامة فيها شىء من المرارة ، ووجه ، ماذا جرى له ؟ أين ذهب إشراقه ؟ ماذا فعل الله بصباحته ؟ إن هذه الفتاة عجيبة ! وها هى ذى تومض عينها إيماضة خبيثة كأنما يسرها ما تقرأه فى وجهه من الاضطراب ! ما لعينها منعلقة بعينيه ؟ أهى ناظرة اليه ؟ كلا ! انها كالتى ترى شيئاً هو أحلى وأعذب من كل حقيقة منظورة ...

ونهض وقال :

« أى سؤال هذا يا شوشو ! »

فنهضت مثله وقالت ·

« أهو سؤال غريب ؟ غير جائز »

وكان يمتى فى الغرفة فلم يصبح الله عليه بخير من ·

« كلا . لاغرابة . إنى جائع جداً ولست آتياً هنا لأصوم . »

فانفجرت صاحكة وقالت ·

« ألا تزال ملتحفاً بكبريائك ؟ »

فلم يلتفت الى هذاودنا منها ووضع يمناه على كتفها وقال :

« إسمعى ياشوشو . لقد قضيت هنا ليلتين ولم أجاوز عتبة الباب إلا دقائق أمس . فما العمل ؟ لست أرانى سأطيق هذا الحبس . فقولى لى أين أذهب . ولكنّ بالله عليك لا تقذفى بى فى وسط جحفل من أجلاف الريف . »

فتكلفت الجد وقالت :

« هل تستطيع أن تخرج وتسير فى هذه الأوحال ؟ »

فقال :

« قبح الله الريف ! ألا شىء غير الجلوس فى هذه الحجر ؟ »

قالت :

« أمللنا جداً ؟ وبهذه السرعة ؟ »

فأسرع يؤكد لها أن الامر على العكس ، وانه لم يضجره إلا الحبس ، وأن بوده لو استطاع أن يخرج معها الى الحقول . فصفقت وصاحت به وقد اضطرم حداها

« ما أحلى هذا ! أوده من كل قلبى »

— « ولكن كيف يمكن ؟ »

— « أوه . سأجد الوسيلة . دع هذا لى . »

وخرجت لتحيئه بالطعام .

الفصل الحادى عشر

(حبيبي مد يده من الـكوة ، فأنت عليه أحشائى)

ما معنى هذا ؟

حار ابرهيم فى تفسير خوالجه وما جاس به صدره وهو جالس مع شوشو. ولم يكن ما قرأه فى أسارير وجهها وعينيها العميقين أقل تحييراً له ، فلم يطق الجلوس فى الغرفة وانتظار الطعـام ، وحتى أن تجيئه به تلك الزنجية اللامعة كالفحمة وكره أن يرى وجهها بعد شوشو ، واختلج فى قلبه شيء من العطف عليها زمن أحل هذا الـكره الذى يحسه لهـا ، وكأنما أراد أن يهرب من نفسه ويجب أن يواجه ما تضطرب به ، فأسرع فانحدر من السلاملك الى الفضاء الذى أمامه ، وتذكر وهو يهبط السلم كيف تمرته شوشو بين ثلاثة كلاب ضارية ، فابتسم وهو يقول « تالله ما أظرفها ! أن معين حيلها لاينضب » ثم تجهم إذ رأى نفسه يكر الى ذكر شوشو ويدعها تستولى على خواطره فأسرع فى المشى ولم يلتفت بأحد ، فمال الى الحديقة غير عابئ بالاوحال التى تراكمت على حذائيه ، وقال يحدث نفسه وهو يقتلع رجليه واحدة بعد أخرى من الاوحال « أما لو أن الارض جافة ! إذن لاستطعت أن أمشى قليلا وأن أفنى بالمشى هـذه الاحساسات الجديدة وأتقيها فيها وأحيلها عرقاً يتصبب »

ورأى رجلا جالساً على حجر يضحى فى آخر الحديقة فمضى اليه فألفاه شيخاً هرما فى يده العصا ونهض الرجل متوكئاً على عصاه ورفع له يده بالسلام وراق ابراهيم وجهه المغضن كالحصير وشارباه المتهدلان كأنما كلت شعراتهما وفترت ، فحياه ووقف صامتاً لا يدرى ماذا يقول ، وأحس كأن بينهما جونا ينماظم المجتاز، واشتاق أن يفسح قلبه لهذا الشيخ المتهدم الضيق العينين المتدلى الشاربين المتوكئ على العصا والذى اجتاز ادغال الحياة كلها وشق طريقه بين أشوا كها ، وتمنى لو يفتح له هذا الشيخ قلبه ، فيقول هذا بشجوه مرة وذاك بشجوه ، ولكنه لم يجد الكلام حاضراً ولم يدر كيف يجره الى التحدث عن نفسه ، فاكتفى بأن يقول ·

« من أبناء القرية »

وسخر من نفسه إذ قال ذلك . من أبناء القرية ؟ إنه من حدودها بل جدها الأعلى فيما يعلم !

وقال الرجل بصوت حاد كأنه الصفير « إيوه » ووقف ينتظر السؤال الثانى فقال ابرهيم « أنا من مصر » كأنما أحب أن يبادله التعريف ويشعره أنهما نِدان .

فقال الرجل « ماشفتهاش يا أفندى »

فقال ابرهيم « لم تخسر شيئاً »

ولمعت عين الرجل وهو يحجب الشمس بكفه ويقول

« بيجولوا انها جميلة بماشفتهاش يابنى »

— ليست أجمل من قريتكم

وسر الرجل هذا الثناء على قريته وبدا الارتياح فى هزات رأسه وفى إزدياد عمق الاخاديد التى فى وجهه وهو يبتسم وقال

« بلدنا ؟؟ الشبان مايعرفوهاش يا افندى. بيرحلوا ويجمدوا فى البنادر . يبعتوهم المدارس يجوموا ما يطيجوش البلد ثانى . بيعدموا الصحة حداك والمال كان »

وتحمس فدق الأرض بالعصى وقال « بجالى سبعين سـنة عايش فى الارض ما هجرتها يوم . وأروح فين ؟ » وابتسم ووقع كلامه من قلب ابرهيم فقال :

« وهل كل الفلاحين مثلك ؟

— إيوه . زيى ؟ لع ! ما حد زيى ؟ شبان الزمان ده كيف يبجوا زيى ؟ ما طيج أفوت ريحة الارض »

وضحك الرجل أو على الاصح انفرجت شفتاه عن فمه الذى عاد أدرد كالـكهف الخاوى وقال

« آنه زى البحر اللى تهزل وتهبط لما يتغير المرعى »

ثم رفع يده التى فيها العصا وقال مشيراً الى نوافذ السلاملك

« بيسادم عليك ياافندى »

فتركه ابرهيم آسفاً ولم يتحول الى السلم بل قصد الى نافذة غرفه مخترة اليها الحديقة وطاف برأسه العجب من أن تأمر

الأرض رحلا كهذا وتقيده اليها سبعين حجة ، ما أقوى هذه الارض التى لا يعود رجل مثله يطيق فراقها أو حرمان رائحتها ! وأدار عينه فى الحديقة وهو سائر لا يلتفت الى شوشو التى كانت تشور له أن يرتد ويتحول ، ورمى طرفه الى المساحات المترامية وراء السور ، ثم رده الى جمال الغصون وسحر الالوان إذ تخفق الافنان فى ضوء الشمس . فلم يعد عجيباً أن يتدفق حب هذه الارض فى عروق أبنائها ويجرى مع دمائهم ، وهم الذين يفلحونها ويتعهدونها بما يزيدها خصباً ، ويرصدون لها عيونهم وقلوبهم حتى يعودوا من فرط إلفها لا يطيقون أن يبرحوها وأن تخطىء لحاظهم غضارتها ونضارتها وخضرتها الندية وشمسها الدافقة الحرارة وجوها الطليق ونسيمها العطر ومطرها المنهمر وسحبها المتكاثفة طبقات بعضها فوق بعض، وماشيتها ، وكل ماحفلت به من حيوات صغيرة وكبيرة لها كل ساعة بل كل لحظة تجديد .

وصار تحت النافذة فأومأ لشوشو وقال :

« من هنا أطعميني من هنا »

فابتسمت . ما أحلى وجهها وأعمق عينيها ! لم يرها قط أصبح ولا أجمل منها اليوم وكانت عينها تتنقل من الطعام الى الارض ثم قالت :

« ولكن كيف أستطيع ؟ تعال الى . هذا أحسن »

فهز رأسه مصرا وأعلن اليها اكتفاءه بلقمة وقطعة من

الجبن أو بضع زيتونات ، واهتز كيانه سروراً بتناول الطعام على هذه الطريقة . وراق خياله أن تلقي اليه شوشو باللقمة بعد الاخرى ، وأن يلقف ماتلقى، بل أن تفلت اللقمة وتخطئها كفه وتقع فيلتقطها ويلتهمها بكل مايعلق بها، ولكن شوشو كانت تهم أن تلقي اليه برغيف كامل حشته ما لايعرف فصاح بها

« لا لا . لقمة لقمة . من فضلك »

فرمت اليه نظرة دل واغتباط وضحكت وراحت تطعمه على نحو ما أراد وهو يشعر بالحاجة إلى التوثب والقفز ولا يكاد يطيق الوقوف على قدميه . وكانت ربما أوهمته أنها ملقية اليه باللقمة فيمد كفيه ليلقاها فتخيب أمله ، فيضحكان ويكون هذا أحلى وأمتع .

ولما أصاب كفايته من الطعام ، قال لها

« ليس فى الحديقة أحد غير هذا الشيخ الهرم . انزلى إلى »

فنظرت إليه مفكرة ، ثم حنت على النافذة واطلت بوجهها وصدرها وتلفتت ، وكأنما اطمأنت فقالت

« من هنا ؟ اتلقفنى إذا هبطت اليك ؟ »

فصاح يردها وقد خاف ان تجازف

« كلا تعالى من السلم الآخر . »

ومضى ليسبقها إلى المدخل ويستقبلها عنده ولم تلبث ان جاءت تعدو تخشى أن تزل قدمها فى الزحاليق ، فدفع دراعيه لتلقيها العنور وهى تجرى مقبلة فاذا بها ترتمى بينهما . فكاد يقع

بها ولـكنه كان قريبا من الحائط فاعتمد عليه بكتفه ، ولو كان الأمر إلى شعوره وإلى ما يشى به سكونها بين ذراعيه من الرغبة فى البقاء ، لظل يحتضنها ، ولـكنها كانت شوشو — بنت خالته وصديقته الصغيرة التى كم داعبها وهى طفلة وخرج بها للرياضة والنزهة ، وكم ركبت ظهره وزحف بها على البساط ! وكم دفست كفها الصغيرة فى جيوبه باحثة عن الشكولاته والحلوى واللعب الدقيقة التى اعتادت أن يشتريها لها ويبقيها معه حتى تتاح له فرصة يقدمها اليها فيها من غير أن ترى أختها الأخرى ! وكم تسللت إلى سريره وراحت تمسح له وجهه وهو نائم بيدها اللينة الدقيقة الاصابع حتى يفتح عينيه ويتثاءب فتلثم أقرب مايكون اليها منه ، وكثيراً ماقبلت اللحاف ، ثم تضحك فيبتسم ويعجب كيف لايغضبه منها ازعاجها له وايقاظه ، وتشد ذراعه وقد تجر رجليه لينزل عن السرير ويلاعبها

طافت برأسه هذه الصور ومئات غيرها من أيام طفولتهـا فاحمر وجهه ، وأنكر من نفسه أن يتركها بين ذراعيه ، ولـكنها كانت كالعصفور وجد وكره واطمأن إلى عشه ، فلم يجد فى قلبه من جفوة الطبع وقسوة النفس مايشجعـه على أن يدفعها بغير مراعاة لها أو اكتراث لاحساسها . فمسح شعرها بكفه — ايه ماأنعمـه وأبدعه موهجـا فى ضوء الشمس ، وهمس فى أذنهـا « شوشو » فرفعت اليه عينيها فى فتور كأنما كانت تحلم ، فرمت لهـا كـفها وقال « هلم بنا » فاعتمدت على كتفيها — وكانتا على كـتفيه — وحملت نفسها فى تثاقل وبطء وبجهد واضح

الفصل الثانى عشر

(فى الليل على فراشى طلبت من تحبه نفسى — طلبته فما وجدته)

لم يغمض لشوشو جفن فى تلك الليـلة ، وان كانت — على خلاف عادتها — قد بكرت فى الذهاب الى مخدعها وتركت أختها نجيـة وحدها مع طفليها وزعمت أن جفونهـا مثقلة ، وجعلت تتثاءب وتهوم وتتناوم حتى قالت لها نجية

« قومى ياحبيبتى . لاتتحاملى على نفسك »

وكانت الاشجار ترى فى ضوء القمر من نافـذة غرفتهـا . وأكثرها قدذهب مع الربيع رونقه ، ولـكن بعضها ، وأدناها الى النافذة كان موردا رفافا منورا ، وكان ضوء القمر ينفذ الى الاوراق الخضراء ويومض فى صفحاتها كأنه قطرات لامعة من الفضة واستراحت الاطيار والضفادع الى سكون الليل وسهوم القمر فانطلقت هذه تنقنق وتلك تصدح أو تصفر ، وودت شوشو فى هذه الساعة لو أنها كانت عصفوراً يذهب الى حيث يشاء ، ويحلق فى الهواء ، ويسبح فى الفضاء ، ويبصر وهو ناشر جناحيه كل مابين الارض والسماء — عصفورا ينحدر على شعاع من نور الشمس أو خيط من ضوء القمر — عصفورا يرفع منقاره وهو طائر ويتلقى فى فمه الدقيق قطرة من المطر — عصفورا يحط على أعلى فنن فى أعمق شجرة ، أو يهوى الى الارض ويخطو بين

أغيصان البرسيم فتحجبه ، ويضع بيضه الصغير فى حيث يروقه أن يؤلف عشه ، ويمد منقاره الى الماء حيث يجده ويمص قطرة ويتلفت — عصفوراً لايغير ثيابه ولا يبدل أفواف ريشه ولا يكون فى رأى العين مع ذلك الا جميلا . آه انه روح الكون ولا شك فى العصافير والسحب — سابحة تجوب الآفاق — وفى الأزاهر والاشجار التى لاتكون الا عطرة ولا تبدو الا حالية مونقة ولا يعتورها قلق ولا يساورها اضطراب . آه لماذا تقلق النفس ؟ لأى شيء تطلب ماليس فى اليد وتريغ أن تحس وأن تعلم وتبغى أن تحب وأن تحب ؟ ؟

ولما بلغ بها التفكير هذا المدى اعتمدت بكوعها على النافذة واتخذت من كفيها كأسا لذقنها . لقد تغيرت الدنيا كلها فى عينها فى يومين اثنين ، لا بل فى يوم واحد : نعم كانت تحب ابرهيم من قبل كما كان يمكن أن تحب أخاها لو أن لها أخا ، غير أنها لم تكن تحس بمثل هذا الحنين اليه ولا كانت تصبو الى مشاطرته كل شيء بل الى أن تهبه روحها وتمنحه نفسها وتسليه وتحميه وتفوز منه بالروح والراحة — الراحة ؟ من أى شيء ؟ أهذا هو الحب الذى تصفه القصص الفرنسية التى قرأت منها عشرات وعشرات ؟ كلا ! تلك حكايات لفقها الخيال النشيط ، ومن أين لكتاب تلك القصص المزورة أن يعرفوا كيف يثب القلب إلى الحلق وتضطرم النفس وتعود كالبركان الذى يوشك أن ينفجر ويقذف بالحمم ؟

أيكون الحب طاغياً عنيفاً كما تجد هى ؟ ويا ليت من يدرى كيف صارت تحمل الآن وتشعر بالنار تندلع فى وجنتيها وبالدموع كأنها ستطفر من عينيها كلما رأته بعد أن طما فى نفسها هذا العباب الزاخر وهى بين ذراعيه عند باب الحديقة ! ان لهذا الحب روعة ليست لسواه .

وابراهيم ؟ انه وعر مر النفس — لماذا يا ترى ؟ ألا تستطيع إن تستدرجه حتى يكاشفها بما تنطوى عليه أضالعه لتحيط خبرا بدواعى هذه المرارة ؟ — ولكنه حيي كثير الجهامة وان كان من واجبى أن أعترف أنه ظريف الدعابة مليح الفكاهة حين تسلس نفسه ويصفو أفقه ، وآه من عينه على رقتها ! لم تر شوشوأحد منها ولا أنفذ ، هى عين تأخذ كل مادق وجل مما يقع تحتها فليس يفوتها شيء حتى ماهو مغيب فى الصـــدور . ويا ما كان أحلاها هنيهة على قصرها وأنا بين ذراعيه ورأسى على كتفه ! وما كان أرقه وأحناه وهو ينحنى عنه وقد تصلبت عضلات وجهه حتى صار كالدمية المنحوتة من الصخر والورود البيضاء ترف فى حوضها كأنها مصوغة من ذوب أشعة القمر ، والبقرة التى أزعجته وأضحكتنا فى الصباح مستلقية الأنداء تنظر بعينى نائمة ، والافنان تهتز وتترنح فوق راسينا ولأوراقها حفيف مطرب ، والسماء تبدو من خلالها شتى الشكول ، وندى الصباح على وجهينا ، والسكون واسع عظيم ، وكأن الدنيا كلها فى صـلاة وتسبيح ، وقلبى مثلهـا

يسبح بحمد الله . لقد كنت سعيدة ، وأظنه هو أيضا كان سعيدا على الرغم مما كان فى وجهه ... ما أشد سحر هذا الحب الذى يجمل الدنيا ويفيض عليها من الفتنة مالم يكن لها ، ويحيلها كالحلم اللذيذ لا بل كالصوت الجميل — كالنغمة العذبة — كالغناء الملائكى . لكأن روحى هائمة مع روحه الآن ... لم تعد روحى فى بدنى .. فليتها تظل معه هائمة فما أريد أن ترتد الى جسمى .. لست أبغى أكثر من هذا . أبداً أبداً ! ايه أيتها الغبطة نشدتك الحب الا مابقيت معى ! لاتنقضى . لاتذهبى عنى !

ولكنه يفزعني . سبحات عقله تخيفني .. ووثبات خياله تزعجني فأضاءل واتضاءل حتى أحس كأنى لم أعد شيئاً ! ماأقساه حين يفتح عينيه كأنما يريد أن يلتهم بهما الدنيا ويروح يتكلم كأن ليس معه أحد. لايحسني فى تلك اللحظات ولا أظنه يرانى ، ويخيل الى أنه يبصر ماورائى من خلال بدنى وانتفضت كأنما سرت فى جسمها رعدة ولفت شملة الصوف التى كانت على كتفيها وجمعت أطرافها على يديها فوق صدرها ومضت الى السرير وقعدت ونهدت وقد طاف برأسها أن هناك سرا هو علة هذه الاطوار الغريبة من ابراهيم . فان له ساعات يطول فيها وجومه فلا تتحرك حتى شفتاه ، وأحيانا ينفجر هاضبا بما لاتكاد تفهمه فيحيرها ويروعها ، وطوراً تنبسط نفسه الى الحياة والدنيا وتهش روحه فلا يكاد يطيق جسمه وطوراً آخر يضحك ويلعب كأنه حديد

فى الدنيا لايعرف الا صفحتها المشرقة — ليس كل هذا عفوا!!
ترى ماذا يجن فى صدره هذا ؟ ألا يمكن أن أعلم ؟ كلا ! لا أمل.
فانه كتوم كتوم متكبر كما يقول، يعد الافضاء بما فى نفسه ضربا
من الشكوى .وكل شكوى عنده ضعف لايليق بالرجل .واأسفاه.
لن أعرف أيحبنى كما أحبه ؟ لن أسمع اللغة التى أود لو يخاطبنى
بها . لغة الحب المجنحة لغة القلب النارية . كلا . لاأمل فى هذا
أيضا . لأنه شىء ينكره خلقه الوعر .

واشتهت أن تقول بشجوها وأن تصب فى أذن انسان ما .
حديث حبها ، وأن تطرح عن قلبها ثقل هذا الكتمان . ولكن
لمن ؟ ألأختها ؟ واأسفاه ! ان هذا يكون جنونا مطبقا ، فما
تستطيع أختها نجية أن تقدر الحب الا بين زوجين ، وحتى بين
الزوجين لايليق عندها ان يجرى كلام فيه. أختها نجية ؟ انها ليست
سوى كذا قنطارا من اللحم ، وما عرفت قط الا العفاريت
والخرافات ولا عهدتها شوشو تستطيع أن تنزل عن شىء مما
درجت عليه

ووجدت شوشو نفسها تنحى على أختها كأن لها عندها
ثأرا فعجبت لهذا وأسفت وانثنت تعتذر لها بنشأتها وجهلها،
ولكن أسدت الدنيا فلا سبيل الى أحد تبثه ما فى نفسها ؟
وخطر لها أن أختها الوسطى سميحة أقدر على الفهم ، غير أن
سميحة فى الاسكندرية مع ابن عمها (زوج نجية) وعلى أن

مكاشفتها بهذا الحب ، مسألة فيها نظر كثير . فان سميحة أكبر من شوشو ، والكبرى تسبق الصغرى الى الزواج ، وليس بمجهول أن سميحة ماانفكت منذ سنتين تتحبب الى ابراهيم وتحاول أن تستولى على هواه وتقتنص قلبه وابتسمت شوشو وهى تفكر فى هذا ، فما يخفى عليها أن ابراهيم لايطيق سميحة وأنه على الرغم مما هو معهود فيه ومعروف عنه من ضبط النفس والقدرة على كتمان عواطفه ، لايحاول أن يداجى سميحة أو يداريها ولا يتكلف أن يكتمها أنه يمقتها . فهو يحرف اسمها ويدعوها « سوسه » ولا يكون إلا سيىء الخلق فى حضرتها بل لايزال يفر من مجلسها كلما وسعه ذلك . وهى ؟؟ وا أسفاه ! لاتنهزم ولا تبالى هذه الجفوة ولا تحفل نفوره منها ، بل تزداد شدا عليه ومطاردة له،ومع أنه سر شوشو أن تشعر أن فى وسعها أن تكون على يقين من أن « سوسه » لاأمل لها فى ابراهيم وأن لها « أى لشوشو » أن تطمئن الا أنه لم يخف عليها أن كون « سوسه » لم تتزوج بعد سيكظ الطريق بالعقبات والمصاعب ويجعل أمامها هى « أى شوشو » لاأقرب ولا أيسر. فنكست رأسها وقد اغرورقت عيناها وزايلتها الغبطة التى كانت تحسها وحل محلها الاكتئاب ، وبدأ اليأس يدب فى صدرها فأحست أنها توشك أن تختنق . ماذا تصنع ؟ أين القلب الذى يمكن أن يعطف عليها ويرثى لها فى هذه المحنة ؟؟ بل أين المخلوق

الذى تستطيع أن تبيحه دخائلها وتفضى اليه بسرها ؟؟ لا أحد ! وهالها أن تشعر بالوحدة فى هذا العالم الزاخر . وأن ترى إلى أى حد أصارها حبهـا لابراهيم مستفردة . وفى هذه اللحظة فقط أدركت أن حولها أربعة جدران سميكة ، وأن هذه الجـدران الاربعة — من ورائها ومن قدامها وعن يمينها وشمالها — محيطة بها مسدودة عليها فى حيثما تكون من الأرض . لماذا خلقها الله فى مصر ؟؟ لماذا يضرب عليها هذا الشقاء ؟ حتى ابراهيم لا يسعها أن تذهب اليه وتقول له « انى أحبك » كلا ! هـذا أيضـاً مستحيل . لأن التقاليد والآداب تأبى ذلك . وأنها لواثقة الآن ان ابراهيم يحبها وانه يتمنى لو إستطاع أن يعلن اليها حبه ، ولـكنه مثلها تقيد لسانه التقاليد والآداب وما أدراها ؟ لعله الآن — فى هذه اللحظة بعينها — تؤرقه الحيرة والـكمد .— الا ان فى هذا لعزاء لقلبها . وبحسبها أن تعلم انه مثلها موجع مكروب مهموم مؤرق ولـكن من يدرى ! حتى هذا العزاء التافه فيه شك كبير ! ألا تستطيع أن تذهب اليه وترى ؟؟ واأسفاه! كان هذا أمس — أمس فقط — ممكنا ! لشد ما يتغير كل شىء فى يوم وليلة ، بل فى ساعة واحدة ، لم تكن أمس قد انتهت إلى الاعتراف والاقرار فيما بينها وبين نفسها بهذا الحب ، فـلم تكن تحجل أن تجرى اليه وتدفع الباب فى جرأة وتوقظه اذا كان نائما ، وتجره من رجليه ، وتمازحه وتداعبه ، وتكون معه

كما تكون الأخت المدللة مع أخيها الذى يحبها أما اليوم ، فقد سد شيطان الحب هذا الطريق . ولكن لماذا ؟ لا تدرى ، وكل ما تدريه هو انها صارت تستحيي حتى أن تلقاه بعد أن عرفت ما فى نفسها له .

ولكن ألا سبيل مع ذلك الى معرفة ماتصبو الى معرفته ؟ ألا يمكن أن توفد ... من ؟ فاطمة ؟ ليس ثم غيرها . انها أمينة مخلصة وفيها وفاء . وانشرح صدرها فتسللت من غرفتها الى حيث فاطمة نائمة . وكانت ملفوفة فى لحافها ولا شيء يبدو منها ، فكشفت عن وجهها وجعلت تحركها حتى أيقظتها . وأشارت اليها أن تتبعها فى صمت . ولما صارتا فى غرفة شوشو قالت فاطمة وهى تفرك عينيها :

« نعم ياستى »

فابتسمت لها شوشو ودنت منها ووضعت كلتا يديها على كتفيها وقالت :

« أريد منك أن تذهبي الى السلاملك وتنظرى ماذا يصنع ابراهيم . »

فأفاقت المسكينة جداً ودقت صدرها بكفها وقالت « أنا ؟ أنا ياستى ؟ »

فأسرعت شوشو تزجرها عن رفع صوتها وقالت « هس . لاتدعى أحداً يسمع . نعم أنت ، وما الضرر ؟ »

قالت « الضرر ؟ أتريدين أن يقتلني ! ان سـيدى ابراهيم صعب . لا ياستى ! »

قالت شوشو « لاعليك . سأعطيك فستانى الأخضر . انه جديد . »

فقالت فاطمة وهى لاتفهم « ولـكن لماذالاتذهبين أنت ؟»

نعم لمـاذا لاتذهب هى ؟ ؟ ياليت من يدرى كيف صار هذا عسيرا ؟ ورأت فاطمة أن ستها شوشو واقفة مطرقة وفى وجهها مهدم غريب ، فأدركهـا العطف على ستها ، ولـكن خوفها من ابراهيم كان أعظم من رثائها لشوشو فقالت

« ثم انه لايليق ياستى أن أذهب اليه فى الليل هكذا ؟ هذا عيب ! ماذا يقول عنى ؟ لالا ياستى ؟ أتريدين أن يقتلنى سيدى الشيخ ؟ »

ولـكن هذا العـذر الذى تقدمت به فاطمـة لتنجو ، هو بعينه الذى هون الأمر على شوشو ويسر لها الحل فقالت

« لن تذهبي وحدك فسأرافقك . وأقف فى الصـالة وأنت تتقدمين الى الباب وتفتحيه بلطف وتنظرين . فاذا سألك أو زجرك أسرعت الى نجدتك . افعلى لأجل خاطرى يافاطمة . »

— ولـكنه لاشك الآن نائم ياستى

— لا لا لا

— كيف تعرفين ؟

وزادت دهشة الخادمة وصار اللغز فيما ترى أعوص ولكنها ليست مطالبة بالتفكير ولا بحل الالغاز ، وتذكرت الفستان الأخضر وأن سيدها لم يشتر لها فى هذا الشتاء كسوة وسيدتها نحيـة لم تخلع عليهـا شيئا من ثيابها القـديمة ، فتوكلت على الله وخرجت تطلب المصباح فتبعتها شوشو . ومضيا معا فى الظلام والبرد وشوشو تسأل نفسها « ما آخر هذا الحب ياترى ؟ »



الفصل الثالث عشر

« عهداً قطعت لعيني فكيف اتطلع فى عذراء ؟ »

ما آخر هذا الحب ؟

فى هذا كان ابراهيم أيضا يفكر تلك الليلة ، وهو مضطجع على سريره فى الظلام ، وكان لايستريح الى النور اذا ثقلت على كاهله وطأة الحياة أو الح عليه احساس أو خاطر ، كأنما يخشى أن يفضح النور له سراً ، أو يهتك لما يخفيه سترا ، وكان امرءا لاينفك يغالب نفسه حتى يقهرها أو تقهره قبل أن يستسلم لعاطفة أو فكرة ، وكان مذأوى الى مخدعه ، يدخن سيجارة فى اثر سيجارة ويشعل الجديدة من القديمة . ولا يجد للدخان طعماً ولا يفيد منه سروراً ، وأراد أن يشغل نفسه أو يلهيها عما يكظ شبابها ، فشرع يلتمس تعليلا لفتوره هذا عن التذاذ الدخان ، فزعم لنفسه أولا أن الحواس — ولا سيما حاسة النظر — هى التى يرجع اليها الارتياح الى التدخين ، وان المرء انما يعتاد فى الحقيقة أن يرى الدخان يتلوى ويعقد سحابات صغيرة بعد أن ينفخه نفمه ، وأن يشعر بالسيجارة بين أصبعيه وبين شفتيه ؛ ولكن المهم هو رؤية الدخان لأن العين أهم الحواس وأوثقها اتصالا بالدماغ وأقدرها على افادة الصور الذهنية .

ولـكن هذا التعليل — على قربه من الصواب — لم يقنعه ووجد ابراهيم نفسه يتساءل . « هب النور مضاه ، ومعى ... شوشو ، أ كنت أنظر الى الدخان خارجا من فمى ومتلويا فى جو الغرفة ، أم اليها هى ؟ » وغضب لما رأى نفسه يكر الى مايريد أن يتلهى عنه ، وقال فى عناد « حسن اذن فلنواجه الموضوع »

وواجهه فى حزم وشجاعة واستعداد لاحتمال النتائج : لقد تحول حبه لشوشو من اخوى الى جنسى ، ذلك مالا شك فيه فهل له أن يأمل أن يفوز بها وأن يقنع أهلها بان يزوجوه منها؟ كلا ! فان فى الطريق تلك البنت الخبيثة التى لاتحجم عن كل شر اذا هم أهلها بأن يقدموا شوشو عليهـا . وسكون النتيجة أن تشقى شوشو ، وهى ستشقى على الحالين ، ولـكن أهون الشرين أن تيأس من الآن ، والعاطفة غضة لم يستفحل أمرها ولم يستعص علاجها .

وهو ؟ أوه . ليست هـذه أول عاطفة احتاج أن يخنقها ! وإنه لعذاب وإنه ليحس كأنما يقتلع أحشاءه مع العاطفـة التى يحاول أن ينزعها من قلبه وطاف برأسه قول ابن الرومى

« وقع السهام ونزعهن أليم »

فقال « صدق المسكين » ، وود فى هذه الساعة لو أن معه ماطبع من ديوانه، اذن لقضاها ليلة طيبة مع هذا الشاعر المنكود الحظ الذى ألهبه الحياة بسياط من نار ، وكربته هذه الخواطر

فراح يتساءل « ما الحب ؟ وما البغض وما الشهرة والخمول ؟ وما السعادة والشقاء ؟ وما الحياة نفسها ؟ » وأعياه أن يهتدى الى جواب مريح — أو أى جواب آخر سوى أنها عناء وباطل ليس يجدى وليس هذا بجواب وانما هو همسة الضعف ووسوسة العجز وصحيح أن الحياة لا فرق عندها بين سعيد وشقى ، ومجدود ومكدود ، ومعروف ومغمور ، وعاشق وخلى ، وحيوان ونبات أو جماد ، ولكن هناك فرقا بين إحساسات المرء بوقع الحياة ، والمرء ليس الحياة حتى يطلب منه أن يكون نظره الى الاشياء كنظرها هى ، واعتباره لها كاعتبارها

« والخلاصة ؟ » وجلس ابراهيم فى السرير ورد على سؤاله « والخلاصة أنى لن أذوق النوم فى ليلتى هذه على ما أرى ؟ » وضايقه أن يكون هذا أكبر ظنه وأن يقضى الليل المقرور أرقا يناجى نفسه ويحاورها ويداورها على غير طائل وتوهم أن ليس عليه إلا أن يعتزم النوم وإلا أن يريده فينام . فانطرح على السرير وتغطى وأغمض عينيه وراح يتنفس بانتظام محاولا أن يتقى التفكير فى أى شىء ولكن جهد اتقاء التفكير كان كجهد التفكير نافيا للنوم ، لا نه جهد على أى حال ، فخطر له أن يوحى الى نفسه أنه سينام وجعل يكرر « سأنام » حتى قالها أكثر من ثلاثين مرة ، ثم ضحك فجأة وقد تذكر أنه كان مفتوح العينين وهو يردد هذا اللفظ ولم يكن ضحكه إلا حركة عصبية لا عن

مرور نفس ومراح ، فما عتم أن تجهم وهو يسأل نفسه «وبعد؟» وضاق صدره اذ لم يسمع مجيبا له على سؤاله . فطرح الغطاء بعنف كأنما كان هو علة أرقه ووثب عن السرير حتى اذا استقر على رجليه تلفت وقال « ترى أين المصباح ؟ » ولم يسمه على كل مابه الا أن يبتسم . أترى تجربة الامس ستعاد ؟ البقرة البارحة — ترى ماذا صنع الله بها ؟ — والليلة المصباح ؟ وألفى نفسه يعجب لحياة الريف التى لم ير منها شيئا إلى الآن، ويقيسها — متحاملا عليها الى — حياة المدن. ولكن دقته وما فطر عليه من العطف الذى تؤدى اليه سعة الأفق والقدرة على الاحاطة بالجوانب المختلفة — رداه الى الانصاف فمضى يقول لنفسه ان المفروض أن المرء فى المدن يصنع مابدا له ولكن استبداد العادات والتقاليد يقضى على كل نزعة الى التحرر ولا يدع للمرء مفراً من النزول على حكم هذه العادات والتقاليد أما هنا فى الريف فالحياة أشبه بمفاوشات مستمرة ، فالمرء يجد نفسه مثلا يتناول طعامه وحده فى أية ساعة وقد تظمأ فى الليل فتجد القلة فارغة أو لاتجد قلة على الاطلاق ، وهذا الشيخ على ، على كثرة ماأنفق على بيته هذا — بناء وتأثيثا — لم يعن بأن يعلق مصباحا فى الغرفة يتدلى من سقفها ، فمرة ينام المرء فى مصباح يضاء بالبترول ومرة لايجد الا قنديل زيت أو شمعة ، وقد لايجد شيئا من هذا كله . ويذهب المرء الى الحمام فلا يستطيع أن يوصد الباب

اذ لا مفتاح ولا رتاج وهذا عجيب اذا ذهبت تعتبر أن الشيخ على كلف نفسه أن يجهز الحمام بحوض كبير ، وقد تكون فى الحوض عاريا فيفتح عليك الباب خادم أو واحد من هؤلاء الفلاحين الذين لايدرى ابراهيم أهم خدم أم أقارب أم من عمال الأرض. والواحد يذهب الى حيث يشاء فى الليل أو النهار فلا يسأل أحد فيما يرى الى أين أو لماذا أو متى تعود ؟ وأدهش ابراهيم أنه لايعلم أين يبيت هؤلاء الرجال الذين يبصرهم فى النهار رائحين غادين وداخلين خارجين ، وأدهشه فوق ذلك أنه لا يرى أحدا يقلقه اختفاؤهم دفعة واحدة بل لاأحد يذكرهم أبداً ، ولم يذكر ابراهيم أنه رأى أحدا يلعب شيئا خارج البيت — كل مارأى من الالعاب ، وهو لايعدو الورق أو الطاولة ، يؤدى داخل البيوت وعلى الكراسى أو الوسائد . ولم يعجب ابراهيم لهذا فان الزراعة رياضة كافية . وما حاجة الفلاح الذى يقضى يومه عاملا فى الحقل الى كرة أو متوازيين ؟ ولم يسع ابراهيم الا أن يعترف على الرغم من كل ذلك بانه يشعر أن هناك روحا تمسك البيت وتحفظ عليه وحدته — روحا أو لعلها فتاة فى ثوب قان من الصوف .. آه شوشو مرة أخرى ! تالله ماألح هذا الخاطر وأشد تشبثه بالنفس ! أتراه هجر السرير فى هذا الليل المقرور ليعود الى التفكير فيها ، أو لم يفرغ من هذا الأمر ؟ ألم ينته منذ لحظة الى وجوب القنوط والاقناط ؟

وقطع عليه تفكيره صوت تهامس خافت . فأرهف أذنيه وتسمع وكانت حاسة السمع عنده قوية . تخيل اليه أن انساناً يخلع نعليه . فهز رأسه ومشى على أطراف أصابعه الى الباب ووقف بجانب الحائط يترقب ويفكر : ما العمل اذا كان هذا الطارق لصا ؟ ليس معه سلاح يدفع به عن نفسه ، ولا هو قوى مفتول الساعد فيستغنى بقوته عن السلاح ، فماذا يصنع ؟ والمهم فى هذه اللحظة أن يستغل الظلمة ، فعاد الى السرير فسحب اللحاف عليه وسواه كأنه نائم تحته ليوهم القادم ورجع الى حيث كان بجانب الباب واعتزم أن يدع اللص — اذا كان لصا — يدخل فى سكون ومن غير أن يعترضه وأن يتسلل هو فيخرج ، واذا وسعه فوق النجاة بنفسه أن يوصد الباب على الضيف الثقيل ويغلقه بالمفتاح ، كان ذلك خيرا ،

وسمع قرقعة كأنما داس اللص المحتمل على بندقة فارغة ، فابتسم وقال لنفسه « سيكون هذا الظلام عونى وحليفى » ، ولكن صوت القرقعة تلته صرخة خافتة مكتومة ، فحيره ذلك ، لأن هذا الصوت قد يند عن طفل أو امرأة أما عن رجل فلا ونازعته نفسه أن يطل برأسه ولكنه استحمق هذا الخاطر فطرده ، ولم يطل وقوفه وانتظاره فقد بدأ مصراع الباب — وكان مواربا — يتحرك ببطء شديد حتى لامس الحائط منه شيء فعض ابراهيم شفته وأدرك أن المفتاح من الداخل . اذن لن يوصد الباب على هذا الواغل ؟ وليس من الحزم أن يعالج اخراج

المفتاح ، والواغل منه قريب فلم يبق إلا أن يترك كل شيء للحظ ولالهام الموقف ، وعليه أن يحافظ على هدوئه واتزان أعصابه ليتأتى له أن يتصرف بحكمة .

وأطل شيء كالكرة الحمراء فلصق بالحائط جدا ، وحدق فى هذه الكرة العجيبة التى بدأت ترتفع حتى حاذت رأسه ، وامتدت ذراع ، ليس لها كف ظاهرة ، الى الحائط الآخر ، وكأنما اطمأن صاحب هذه الاعضاء الغريبة ، فخطا بجرأة . فما أسرع ما غير ابراهيم ما كان قد صمم عليه ، فأهوى الى ساقى الداخل وجرها بقوة فوقع صاحبهما على وجهه وندت عنه صرخة أيقن منها ابراهيم أن هذه امرأة . فحمد الله على أن حماه عار الفرار من امرأة وحنق عليها لأنه كان يوشك أن يبدو لها جبانا ، وتقدم اليها فى ثبات وركلها برجله وصاح بها « قومى أيتها اللعينة »

فتوسلت اليه المسكينة « فى عرضك ياسيدى فى عرضك »
فشد ذراعها بعنف وقال :

« ماذا تصنعين هنا يابنت الكلب ؟ انطقى » وركلها برجله

فلم تقدر المسكينة على القيام وجعلت تكرر وهى تنتحب « فى عرضك ياسيدى فى عرضك » وغاظ ابراهيم أنها تبكى وأنها لا تزيد على التوسل وانه لن يقف على سر هذه الزيارة فكاد يجن وقبض على عنقها وهو يصيح .

« سأقتلك ان لم تنطق قولى ماذا جاء بك ؟ »

« أنا ! »

تخلى عنقها وانتفض قائماً ينظر الى مصدر الصوت فى مدخل الباب ثم دفع فاطمة برجله وقال « قومى هاتى المصباح » ومضى الى الكنبة فى سكون .

وقالت شوشو وتقدمت اليه « معذرة يابن خالتى . لاداعى للمصباح . أنا أرسلتها اليك ورافقتها حتى لاتخاف »

فلم يدعها الى الجلوس ، وقال فى جفوة متكلفة

« أريد أن أفهم معنى هذا »

فارتبكت شوشو ، ولم يكن شىء من هذا كله مما تتوقع ، ولم يخف عليها انها كانت طائشة فيما فعلت ، وانه مصيب فى سؤاله محق فى غضبه ، ولكنها على عادة جنسها نسيت ذلك وتعلقت بلهجته الجافية فحزت فى نفسها وسالت الدموع على وجنتيها ، ووقفت تود النشيج بجهد ، ولم يكن ابراهيم ملتفتاً اليها لانه آلى أن يتكلف الجفوة وأتيحت له الفرصة فاغتنمها ، ولم يكن هذا بالهين ولكنه كان الواجب فى اعتقاده فلم يتردد ، ومضى يقول لنفسه وهو جالس لاينظر الى شوشو : أن الحياة كالنظر الى الظلام . والمرء لايعرف أى شىء هذا المقبل عليه وانما يخمن ويقدر ، كما يقدر فى الظلام ويخمن أى شجرة هذه التى تصادفه فى طريقه ، وكما يحاول أن يتبين وهو سائر هل بلغ شفا شىء ...

والانسان وحده هو الذى يفكر ويتبرم ويمنى نفسه بهـذا وذاك — بالحياة والموت ، بالحاضر والمستقبل ، وبالنور والظلام ، وبالحب والبغض ، .. لقد كنت فى الصباح مع شوشو هذه فى الحديقة ، ومازلت أذكر وهى على صدرى تلك النحلة الصغيرة التى طارت فوق رأسينا ومضت الى الحشائش وغرزت رأسها فيها وراحت تنام ، وقد أنهكها الطيران وأضناها مص الورود — ألقت رأسها فنامت . فياليت أنا كهذه النحلة نحيا كل لحظة أتم حياة ، فاذا تعبنـا ألقينا رؤوسنا ونمنا . أما لو أن شوشو ليست هنا الآن ! ... مسكينة شوشو . واقفة وحدها فى الظلام تحدق فى سواد اليأس الذى لايتخلله عرق واحد من النور ... مسكينة مسكينة »

ونهض ومضى الى النافذة ففتحها وأطل منها . فتضوع الى أنفه نسيم الروض العطر ولم يكن يرى شيئا ولـكنه لم يشك فى أن كل ورقة على غصنها ، وكل زهرة وكل عود نابت — كل أولئك متآمر أن يذيع كل مافيه من عبير وعطر ، وتنهد وهو يحدث نفسه أن كل هذه الحيوات الصغيرة متحابة متعاشـقة . وإلا لما اتسق جمالها كل هذا الاتساق .

وأغلق النافذة وعاد فلم يجد أحداً فى الغرفة

———

الفصل الرابع عشر

« حبيبى نزل الى جنته ، الى خمائل الطيب ليرعى بين الجنات ويجمع السوسن »

— ١ —

كان أول مارآه ابرهيم من حياة الريف — غير ما فى البيت الأنيق الذى شاده الشيخ على — أحمد الميت راقداً فى حظيرة البهائم ، وكان ابرهيم قد اعتزم أن يقلل من المكث فى البيت وأن يكثر من الخروج الى الحقول والتجواب فى القرية ، على الأقل فى النهار حتى يجئ الشيخ على من الاسكندرية ، فقادته رجلاه الى هذه الحظيرة وهو لايدرى .

وكان أحمد قد سكر فلما بلغ الحظيرة عرج عليها وارتمى فيها ، ولم يكن يدرى لاهو ولا سواه كم ساعة قضاها هناك راقداً يغط ، بعمامته وجلبابه الأسود وحذائه الأصفر الشامى ، وعلى أنه لم يكن يكترث لذلك ، بل لم يكن يبالى كم ساعة أخرى يمكن أن يقضيها هناك

ولم يكن منظر هـذا السكران الطافح بالغريب على مايظهر

فى القرية ، يدل على هذا أن ابراهيم رأى قريبا من رأس النائم حجراً منصوبا كأنما أراد واضعه أن يتماجن على النائم — وشهرته الميت — فرفع عليه حجراً كالذى ينصب على القبور ، وفيما عدا هذا الماجن المجهول لم يتبين ابراهيم أن أحمد أزعجه أحد آخر ، اذا استثنينا حماراً كان مطلقا فى الحظيرة وكان لاينفك يدنو من هذا الراقد ويشمه كأنما يحسبه بعض المذاود أو بعض مايوضع فيها . يضاف الى الحمار كلب — لم ينس ابراهيم أنه رآه ليلة جاء الى هذه القرية — مستلقيا عند قدميه ولا يزال يرفع رأسه فتقع الشمس فى عينه فتختلج جفونه

وقف ابراهيم ينظر الى هذا « الميت » ويفكر فيما ينبغى أن يصنع ، ويعجب للشيخ على كيف يتخذ مثل هذا المجنون السكير وكيلا له ويعهد اليه فى الاشراف على شئون ضيعته . ثم تقدم فدفع الحجر برجله فألقاه ، ولاحظ أن عمامة الرجل على الأرض وأن رأسه عار وأن أشعة الشمس واقعة عليه وظن أن هذا قد يؤذيه فالتقط العمامة وغطى بها جبينه وعينيه وترك له فمه وأنفه ليتنفس ، ولم يجد أن فى وسعه شيئاً آخر فأولاه ظهره ومضى ولـكنه تلفت مرة قبل أن يخرج . فاذا بالعمامة على الارض مرة أخرى واذا باحمد الميت قاعد يقول كلاما غير مفهوم

والحقيقة أن احمد الميت — على خلاف أكثر أهل الريف — لم يكن يطيق أن ينام وعلى رأسه غطاء ، ولعله يؤمن فى

أعماق نفسه نفاذة الشمس للجسم ولا يخشى وقوعها حتى على رأسه ، وكان منذ حداثته يأبى أن يضع على رأسه شيئاً وهو نائم ، ولكنه وهو قاعد ورجلاه ممدودتان لم يستطع أن يفضى الى ابراهيم بعقيدته هذه ولا أن يبين له أن تلك عادته ولم تنفرج شفتاه الا عن غمغمة غير مفهومة ، فكر اليه ابراهيم وزجره وأمره أن ينهض الى بيته ان كان له بيت غير هذه الحظيرة

فنهض أحمد الى قدميه وسأل ابراهيم

« البيت ؟ لماذا أذهب الى البيت ؟ »

ولم يكن هذا بالسؤال الذى يلقى على ابراهيم ، ولكنه مع ذلك قال له وهو يمتعض من منظره

« اغسل هذه الاقذار عن جسدك أيها البهيم القذر »

ولم يكد يقولها حتى كان أحمد الميت يخلع جلبابه ويقذف بحذائيه ويعدو فى قميصه وسرواله المصفرين ، الى النهر . فدهش ابراهيم وأيقن أن الرجل لامفر له من الغرق ولما كان لايدرى كيف ينقذه فقد بدا له أن يرجع الى البيت ويخبر من فيه

— ٢ —

دفع ابراهيم باب الحديقة الخلفى ، بقدمه واتجه الى اليسار ثم وقف . ذلك أن شوشو كانت حانية على حوض الزهر تقطف زهرة من أزهار الاراولة وظهرها اليه . فعض شفته وخطر له

أن يتراجع غير أنه خشي أن تنتبه ، فظل واقفاً وقد بدأ المنظر يروقه فقد نفخت شوشو الزهرة لتطير عنها الحشرات ، ثم قبلتها ثلاثاً وراحت تنزع غلائلها المستطيلة المتجاذبة على مدار كأسها — واحدة واحدة — وتلقيها وهى تقول على التوالى « نعم . لا . نعم ..... » فوافقت « لا » آخر ورقة فتجهم وجهها وتفلت من الزهرة من بين أصابعها الى الأرض ، ولبثت هنيهة جامدة لا تتحرك ، ثم أهوت على الحوض فجأت واقتلعت زهرة أخرى واعادت التجربة فكان ختامها « نعم » فى هذه المرة فلم تكد تقوى على الوقوف ساكنة وراحت تدب برجليها وتضم كأس الزهرة الى ثديها بحنان !

ثم كأنما طاف برأسها أن النتيجتين معادلتان وأن « نعم » يقابلها « لا » فالمسألة لم تتزحزح عن موضعها الذى كانت فيه من قبل ، فلابد من تجربة ثالثة للترجيح ، وشكت فى أنها بدأت التجربة الثانية كما بدأت الأولى « بنعم » فقد يكون عدد الغلائل واحدا فى كل زهرة من هذه الازهار ، فان كل هذا هكذا فلا شك أن النتيجة تختلف تبعا لاختلاف ماتبدأ به ، واذا صح أن البدايتين اختلفتا ، وأن عدد الغلائل واحد . فهل غشت الا نفسها ؟ وهل يمكن أن تكون النتيجة الا واحدة فى كل مرة ؟

ولكن هل الغلائل عددها متساو ؟ هذه هى المسألة ! ولحلها حنت على الزهر فقطفت اثنتين ومضت تشد الورق وتعده ، فاختلف

الرقان ، فتهلل وجهها وبدا السرور فى وقفتها وحركاتها ، فقد صار التجريب معقولا والامر متروكا للمصادفة والاتفاق ، وليس مما يسهل العلم بنتيجته من غير أن يتكلف المرء قطف الزهر وإفساده بنزع ورقه وصاحت « لنبدأ من جديد »

فعلم ابراهيم أنها محت التجربتين وأسقطتهما من حسابها ، وراحت تنزع الورق فى تؤدة وأناة وتثنى رأسها على صدرها فى كل مرة ، حتى بقيت ورقة واحدة قالت من غير أن تنزعها « نعم » طويلة ممطوطة كأنها الصعداء تتنفسها وتحط بها عن كاهلها وقرا ، ثم وقفت ساكتة لا تصنع شيئاً ولا تتحرك ، ورأسها مثنى على صدرها وعينها ترنو إلى الكأس الذى لم تبق على حافته سوى ورقة واحدة ، وفى نظرتها سهوم وفى وجهها طول ، وفى هيئتها استرخاء وكأن جسمها موشك أن يتهافت وأن يهوى إلى الأرض كوما مفكك الذرات

فعجب ابراهيم لهذه التى كانت تطفر كالفراشة قبل دقيقة اذا وجمت نغتة ، وللنفس الانسانية وسرعة انتقالها من المرح إلى الكآبة ولخفاء البواعث التى تفضى إلى هذا أو ذاك على حين تدعو الظواهر إلى النقيض ، وود فى هذه اللحظة لو يستطيع أن يرد اليها البشر الذى كان ينضج به وجهها والخفة ، التى كانت فى روحها والمراح الذى كان فى سلوكها والضحكات السكروانية والدعابة التى كانت تركب بها الحياة نفسها — فى لىلات معدودات

غاب كل هذا ، وذهبت شوشو اللعوب المفراح التى لم تحتج يوماً أن تفكر أو تمد بصرها إلى ما وراء اللحظة التى هى فيها ، .. ولكن هذا ليس فى وسعه ، وما هو بأخف منها حالا ولا بأقل حاجة إلى الغوث ، نعم الغوث ولكنه رجل مجرب وهى فتاة غريرة ، وهو قد خاض العباب وغالب التيار وتدرب على المكافحة ، وهذا أول عهدها باللجة الطامية ، وما أهول الغصص التى تعانيها وهى تغوص وتطفو وتختنق وتشرق وتدفع باليدين والرجلين وتحاول ان تصيح طلبا للنجدة فيخرسها الماء الذى يملأ فمها ، وتومئ فلا يراها أحد ، ومن ذا الذى يغيث فى هذا الخضم الطاغى ؟ أين اليد التى ليست فى شاغل من أمرها ؟

ومع أن ما كانت شوشو فيه ، واضح المعنى ، فقد شاء ابراهيم أن يتجاهله وارتد إلى الباب ففتحه ثم أغلقه بعنف كأنما كان داخلا لتوه وأقبل على شوشو التى انتبهت على صوت الباب ، وتكلف البشاشة وفى صدره أظافر تمزقه وبسط اليها كفيه وقال وهو يسرع اليها

« ما أبدع الجو فى الكور ! هل أفطرت ؟ »

فنحته كلتا يديها وسألته بصوت خافت

« أين كنت ؟ »

فأبقى كفيها فى يديه ونظر اليها وقال بلا تكلف .

« ما أبدئك ! »

« ابراهيم ! »

« انك تفرغين على الحديقة جمالاً جديداً أحب أن أخبرك انى اليوم مجرم . لماذا تتراجعين ؟ أتتخلين عنى فى محنتى؟ نعم لقد قتلت رجلا . لاتراعى ! أنه ليس إلا أحمد المنيت ؟ غرق أو هو يغرق الآن أو لا أدرى فقد يعود الى الحياة للمرة الثالثة ! على كل حال ليست هذه أول ميتاته أن صح ما تحكون عنه »

ولما رآها حائرة مضطربة قص عليها ماحدث وبالغ فى الوصف فسرى عنها وأغرقت فى الضحك وجعلت هى تطمئنه وتؤكد له أن لا خوف أن يقاد به .

* * *

وجاءت هى اليه بالطعام فى غرفته فلما جلس اليه على البساط أسندت ظهرها الى الكنبة فنظر اليها فقالت «لا أحس جوعا» فالتفت اليها وقال بلهجة الجد الصارم :

« سأرخى لحيتى إحتجاجا »

فقالت وهى تضحك :

« ولكن لماذا ؟ ماعلاقة لحيتك بان آكل أو لا آكل ؟ »

فقال « تصورى منظر قريبك وقد أرسل حول حديه وتحت دقنه لحية كثة ! إنه منظر يوقظ الضمير النائم وما أظنك ترتاحين الى لقائى بعد ذلك ولحيتى فى يدى أفهمت الآن؟ »

فانتفضت ، فجرها من ذراعها الى الطعام

وبعد أن أصابا شبعهما قال « والآن أين القهوة يافتاتى المهملة ؟ ألا تعلمين أن لى معك حديثا خطيرا يتطلب كل ما فى رأسى من اتزان وحكمة ؟ »

ولم تدر أهو يجد أم يهزل ، ومضت عنه ولكنها ما عتمت أن عادت لا بالقهوة بل بأدواتها . بحق البن وحق السكر ، والسبرتو ، وقعدت أمامه تصنعها

وقال دون أن ينظر اليها بصوت لايكاد يسمع فكأنه يتنفس أو يحدث نفسه

« شوشو أيتها الفتاة الرائعة لقد رأيتك اليوم سرعين ورق « الاراولة » وتجربين حظك أو تستوحين هذه الزهرة الفانية تسأليها عن مصيرنا . »

فتحولت إلى جانبه ولم تتكلم فأراح ذراعه على كتفها ومضى فى حديثه أو مناجاته

« هممت أن أصرفك عن استفتاء الزهر ، ولكنى قلت أدع لها ذكرى جميلة تنعم بها فى الايام المقبلة أترك لها حلمها الجميل وان كنت فى شك من أن الاحلام ليست خطرة شوشو ان أنفاسك لاتتعاقب أو تحتبس حين ترينى مقبلا أو مدبراً »

فتمتمت فى حياء « ولكنى أسر . »

فقال « رغما » (فرفعت اليه عينيها بسرعة فلم يعبأ بهذه الحركة ومضى إلى غايته) « على أن هذا أشبه بأن يكون شعوراً أخوياً

منه بأن يكون أ .. أ تعرفين ماأعنى ؟ نحن قريبان وبيننا من الود فوق ما يكون بين الاقرباء فى العادة ولكن هـذا ليس معناه أننا أنا أ كثر من ذلك .... اسمعى يا شوشو . لقدأخطأت حين جئت إلى هنا . لو كنت أعلم أن هذا سيحدث لما جئت ولكن هذا لاينهض عذراً لى أنا الملوم ماذاجرى؟ أتبكين ؟ يالله ! » ..

وجذبها اليه فأسندت خدها إلى صدره وهى تنشج فكاد قلبه يتمزق رقة لها وعطفاً عليها وعلى نفسه أيضاً ولم يسعه إلا أن يهمس فى أذنها

« شوشو يا فتاتى الساحرة . أزجرى العين عن بكاها انك تعلمين انى أتصنع انى كاذب لا أعنى ما أقول . انى مجنون بك وسأظل مجنوناً بك هـذه هى الحقيقة وليكن ما شاءت المقادير فلن تصبو نفسى إلى غيرك »

وكان صوته يرتعش ويده ترتجف وكيانه كله يهتز فلفت ذراعها بعنقه وقالت هامسة

« أعرف ذلك »

وهدأت الاعصاب، وبعد لحظة أدار اليها وجهه والثم شفتيها ثم قال « اصغى إلى فما أستطيع أن أرفع صوتى سأبكى إذا فعلت »

فدنت منه حتى لصقت به ، وشد هو نفسه حتى حيل اليه انه

صار كالصخرة ولكن صوته ظل متهدجاً على الرغم منه .

« إنى أكبر منك سناً وأكثر تجارب ولم يكن من حقى أن أدع الامر بينا يبلغ هذا الحد وعلى ان لك على صغرك وغضارة سنك وقلة خبرتك ، من الذكاء ما يعينك على التقدير السديد والنظر السليم . وإنى لأعلم كما تعلمين ان بيننا . تفاهماً تفاهماً مباركا . ولست أعتقد ان بين اثنين سوانا مثل هذا التعاطف الطبيعى . كلانا خلق لصاحبه ولكن لهذه الامور . مقتضياتها . مستلزمات لامفر منها ولا معدى عنها اذا لم يكن الزواج هو المصير فليس يجوز أن ينشأ بينا أو يظل مثل هذا التفاهم انه تحد للطبيعة أن يتحاب اثنان ثم لا شئ . الشأن شأننا فى الحقيقة والأمر لايعنى سوانا ولكن الأيام مقلوبة والعادات والتقاليد سخيفة منافية للعقل والواجب صارمة أيضاً ونحن نوشك أن نحدث فى سورها ثغرة أن نقتحم الحصن المنيع الذى بناه الجهل ... ولست أراك تقوين على ذلك ولا أحسبنى خيراً منك . ينبغى أن نفتح عيوننا . فاحلا أو آجلا . أنا أوثر أن يكون ذلك آجلا هو أحلى وأعذب وأندى على النفس ولكنه لن يكون الا حلماً مهما طال ونحن نسى أحياناً مصير كل شىء لايساير التيار ولا يوافق الزمن ولا يطابق روح الايام . واذا كان لابد من التحطم على صخور التقاليد فليكن ذلك ... اليوم »

خنقت الفتاة عبرتها وتعلقت به يائسة ثم قالت . وكلتا ذراعيها حول عنقه ووجهها مدفون فى صدره

« لا أقدر ! لا أقدر ! مرة واحدة كلا لا أقدر . »

فسح لها شعرها فى رفق وقال « لابد وانك لتعلمين ذلك لابد أن نكسر قلبينا »

فقالت « نكسر ؟ ولكن أوه ! أوه ! لماذا نمزق قلبينا ! دعنى أياماً أمهلنى وقتاً كافياً . لا هكذا فى دقيقة واحدة . بالتدريج. ابرهيم بالتدريج... ليبقى لى شيء أذكره . أحلم به . أدخره للأيام السوداء دع لى شعاعا واحداً من النور لا أكثر لا تهشم حياتى كلها اليوم . لا تمح دنياى بلفظة . حتى التعذيب يجب أن يكون تدريجاً ليحتمل . »

فابتسم لها — فى عينيها

وكما أن لمسه جسمها ألانه وفتره وسرى عنه أيضاً ، كذلك ضعفها قواه وأمر عزمه فقال

« كلا ! ياشوشو ليس هذا خليقاً بك يجب أن نصدق أنفسنا ونكون أقوى منها أيضاً . نحلق فوق مقاديرنا وسيفسد كل شيء اذا لم نختم هـذه الحكاية الآن ثم ننهض مبتسمين . لقد غرسنا معاً أجمل زهرة . ونمت وتفتحت حتى صارت منى النفس وريحانة العين والانف — حسن منظر وذكاء مشم . وقد آن نقطفها ... يجب أن يكون قطفها كما ينبغى . لا ورقة ورقة .

فلا تبق هناك زهرة وتصورى جمال الذكرى ذكرى الزهرة الجميلة التى كانت لنا والتى لم نخف أن نقطفها ... لما أينعت ... سنزهى بذلك ونسعد أيضاً . حين نذكره ... نذكر زهرتنا التى لم ندعها تذبل أو تموت .. ويجب أن نقطفها بابتسامة ياشوشو من أجلك وأجلى . . »

« آوه ! ان هذا كالموت . لا أستطيع أن أواجهه »

« بل تقدرين معى . نحن الاثنين نستطيع أن نواجه أى شىء وماذا يعنينا من الموت مادمنا نستطيع أن نسير فى الحياة بقلب سليم ؟ »

فرفعت شوشو رأسها وقالت

« بم أنت محق . يجب — يجب أن نسير بقلوب سليمة »

وتحولت عينها إلى النافذة وارتفعت منها الى السماء ثم ارتدت اليه ومدت يدها البضة ولمست شعره ومشطته باصابعها إلى الوراء ، وتركها هو تداعب شعره كما تحب ثم قالت وهى باسمة وفى صوتها حنو دافق

« فلنقطف زهرتنا الآن »

فابتسم لها ..

والتقت شفاههما فى قبلة طويلة ودارت الارض حولهما . . أرخى ذراعيه وحلت عنه وتناول كفها فلثم أطراف أصابعها

ثم اضطجع على الكنبة وأخرج سيجارة وأخـذ يلعب بها وهو يفكر ويبتسم ثم رفع رأسه وقال

« شوشو   ماقولك فى مكثى أياما أخرى ؟ لقد كنت معتزما أن أرحل ، ولـكنى أظن اننا نستحق أن نبقى معاً قليلا — كأخوين ! »

فقالت وهى تنهض وتشده معها : « لقد ترفقت بى على الرغم من قسوتك» وغادرا الغرفة معاً إلى حيث أختها .



الفصل الخامس عشر

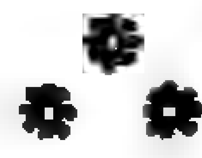
« قد دخلت حنتى يا أختى العروس »

مرت ثلاثة أيام كانت من أرخى وأهنأ ماعرف ابراهيم وشوشو فى حياتهما ، لاتفكير فى شىء ولا أسف على شىء . وتلك احدى أعاجيب الطبيعة البشرية . فما فتر الحب بينهما بل زاد اضطراما ، ولا كبر الأمل بل صار أضعف ، ولا أمحت الحوائل بل تكاثرت وغص بها الطريق، ذلك أن نجية لم تكن لاعمياء ولا بلهاء ، ولو كانتهما لكان حسبها غريزتها تدرك بها مالا ترى ولا تفطن اليه بذكائها، فما هى إلا أيام حتى لاحظت تحنن شوشو على ابراهيم ورقة ابراهيم لشوشو ، فلم ترتح إلى ذلك وان كانت لم تر طريقها الى قول أو عمل تحول به بينهما ، ووقف حبها واحترامها لابراهيم وواجبها نحوه وهو صيفها دون التفكير فى تعكير الايام التى يقضيها عندها ، وتنغيص الوقت القصير الذى يمم به فى دارها ، ولم يكن أدعى إلى سرورها واغتباطها من أن ترى مقام ابراهيم فى بيتها يسبغ عليه الصحة ، وخطر لها أن من الممكن الانتفاع بوجوده وتحويل التيار الى الناحية التى هى آثر عندها وأوفق على العموم وأكثر مطابقة للتقاليد، وقد كان رأيها دائماً أن من واجب ابرهيم أن يتزوج مرة أخرى

لتنتظم حياته ويجد الروح والراحة فى بيته، وإن كان هو لم يشك اليها ولا بدت منه أية رغبة فى هذا التغيير ، ولكنها المرأة لا ترضى عن العزوبة ولا تستطيع أن تروض نفسها على التسليم بها مادام أن فى الدنيا فتاة صالحة للزواج وهل ثم فتاة غير صالحة؟

فكرت نحية إذن فى تحويل التيار وتغيير الاتجاه ، ولم تعن نفسها عما يبدو من ميل ابرهيم لشوشو، وما قيمة هذا؟ إن هذا الميل عندها لا قيمة له إلا على اعتبار أنه دليل على أن ابرهيم عاد بعد ثمانى سنوات يفكر فى المرأة ويشتاق حياة الزوجية ، أما الحب فكلام فارغ ، وحب إمرأة بعينها لا يقبل أن يعتاض منها سواها كلام أفرغ ، وليست شوشو إلا واحدة من جمهرة الفتيات الصالحات للزواج ، وهبه يحبها فمن يمنعه أن يظل يحبها؟ انها بنت خالته وليس بينهما حجاب وفى مقدوره دائما أن يراها وهذا كاف جداً ثم أن الفكرة أن يتزوج اختها الوسطى «تميمة» ، والاختان صنوان وليست واحدة بأفضل من الثانية ولا أصلح، وهذا يستوجب أن يعود الشيخ على من الاسكندرية بهذه الاخت التى استصحبها معه لتكون فى خدمته ، أو أن يبعث بها ويطلب شوشو بدلا منها، ولكن إبعاد شوشو الآن ليس من حسن السياسة ، فقد يفطن ابرهيم الى الأمر ويرى فيه تعمداً فتحبط الحيلة وتفسد المناورة ، وهو عنيد وفى طبعه على الرغم من لينه وسماحته ، صلابة وعنف بل تمرد إذن فلتبق

شوشو ولعد اختها سوسو لتكون الى جانبها وعليها أن تصرفه الى نفسها شيئاً فشيئاً ، وهي فتاة ذكية واسعة الحيلة وأبرع من شوشو وأمهر ، وستكون نحية فى عونها ، ولا بأس — إذا اسدعى الأمر ذلك — من اتخاذ الشيخ على حليفا والمهم على كل حال أن لايدرك ابرهيم أن هناك مؤامرة لتلايفات العصفور والباق على الله وبه التوفيق .



وفى خلال ذلك — فى الفترة التى تقضت قبل أن تعود « سميحة » أو « سوسه » كما يسميها ابرهيم كان هو وشوشو كأسعد ما يكونان : يمثلان آدم وحواء — فى الجنة قبل أن يمارها — يتعهدان الحديقة ويقطفان ورودها وأزاهيرها ويؤلفان منها توافيق يزينان بها الحجرات ويستدرجان الارانب من السراديب التى تحفرها فى جوف الارض ليقنصاها للبيت ، ويحلبان البقرة — وفيما عدا ذلك يسهان بالقرب والحب ، فاذا اتعبهما الجرى أو المحاورة قعدا على الارض أو البساط أو غير ذلك تبعاً للاحوال والمكان الذى يتفق أن يكونا فيه ، فيقول ابرهيم وهو يلهث وقد شعر بالجوع .

« كفى أغواء ، إيه ياحواء انك لاتزالين كما كنت ، بل شراً مما كنت ، مصدر إغراء وفتنة ! وبعد كل هذه العصور أيضاً ! لا بأس ! أظن أن من سوء الأدب فى حقك أن أذكر الطعام

لأن منظرك ساحر وانت جالسة هكذا . ولـكن ... »

فتقول شوشو « لقد اذكرتنى ! انى أكاد اموت جوعا . كلا كلا ! يا آدم ! لست أعنى ما أقول ! ان النظر اليك يغنى عن ولمية ، اليس كذلك ؟ ! » ويضحكان

وفى الليل بعد أن يأخذا حظهما من السهر تهم بالقيام الى مخدعها فينهض ابراهيم ويرجو منها ان تبقى ويرتب لها الوسائد على الـكنبة ويقف هو متوكئا على النافذة فتسأله

« ولـكن أين تجلس أنت يا أدم ؟ »

فيقول « أقف رشيقا كما ترين مستندا الى النافذة وأقص عليك اسطورة »

فتقول « أما الاسطورة فهاتها وأما الوقوف فلا كن طفلا واقعد على البساط »

فيجلس الى جانبها ويقول « طفل ! أنسيت يا حواء انى قديم كالجبال ؟ »

فترفع حاجبيها وتبتسم وتقول « وأنا أيضا يا أدم »

« كلا ! على التحقيق »

« ولـكن — »

« لا أبالى هذا التمثيل إنك خالدة . والخالد لا يذهب شبابه »

فتصمت برهة ثم تقول

« قل لى ياآدم ! هل شهدت هذه الغرفة مثل هذا من قبل ؟ »

« من يدرى ؟ لعلنا لسنا بأول آدم وحواء رأتهما هـذه الجدران ! »

« ولـكنها لا ترى »

« صحيح ولدت كفيفة . ومن أجل هذا تكون أحد سمعا وأقوى ذاكرة . ان هذه الجدران الأربعة لا شك تذكر كثيرا من المر والحلو والعنيف والرقيق والمضحك والمبكى »

« أظن الجدران تبتسم الآن يا آدم »

« تبتسم ؟ نعم . ولـكنها ابتسامة حكيمة أبوية . اذكرى أنها ترى فينا عاشقين ـ آدم وحواء فى جنتهما »

« لقد نسيت إذن ما أحق هذه الجدران بابتسامة أسف على مصيرنا ـ فسنخرج من الجنة يا آدم ! »

« شش ! أن الجدران تحب العشاق فترفق بها ولا تخيبى أملها والا كسرت قلبها هذا جدار يريد أن ينقض من الآن. »

فتضحك وتقول

« ولـكن الحيطان ليس لها قلوب تكسر ؟ »

« بالطبع لها . ان قلوبها خير القلوب وامتنها أيضا قلوب من الحجر أبت لنا مثلها »

ويسعل سحارة فتقول له محذرة

« عندها أقوم »

« أمره يا حواء »

وبعد برهة تقول شوشو

« لم تقص على أسطورتك ياآدم »

فيقول « أظنك تعرفينها أنا اسطورة جندى طارىء
« وصف له الناس ما فى المدينة من بدائع وروائع وحدثوه عن
« الملك والاميرة الجميلة بنته فسألهم كيف يستطيع الانسان
« ان يراها ؟

« فقالوا له جميعا بلسان واحد « لا سبيل إلى ذلك . انها
« تعيش فى حصن عظيم له اسوار عالية ومن حوله القلاع .
« لايدخله أو يخرج منه غير الملك لأن المنجمين قالوا ان
« الاميرة بنت الملك ستتزوج جنديا بسيطا فغضب الملك ولم
« يستطع أن يحتمل ذلك فقال الجندى لنفسه « انى اريد
« أن أراها »

ويسكت فتقول « وبعد ؟ »

فيقول « وبعد فان الاساطير لا تحكى لمن لهم أدوار فيها »

فتسأله « أأنا إذن من خيالات الاساطير ؟»

فيقول « توشكين أن تصبحى ذلك ياحواء »

فتقول « واأسفاه وأنت أيضا ياآدم ولكنها نعم الخيالات
نعمر بقية العمر ! أليس كذلك ؟ »

« نعم »

وتنهض قائلة « جاء وقت النوم — نومى على الأقل »

فيساول المصباح ويقول « سأرافقك الى بابك »

ويلف ذراعه بذراعها ويمضى بها ويقول له وقد بلغا رأس السلم

« آدم »

« نعم »

« أكان آدم — آدم الحقيقى — يقبل حواء قبل أن تنام ؟ »

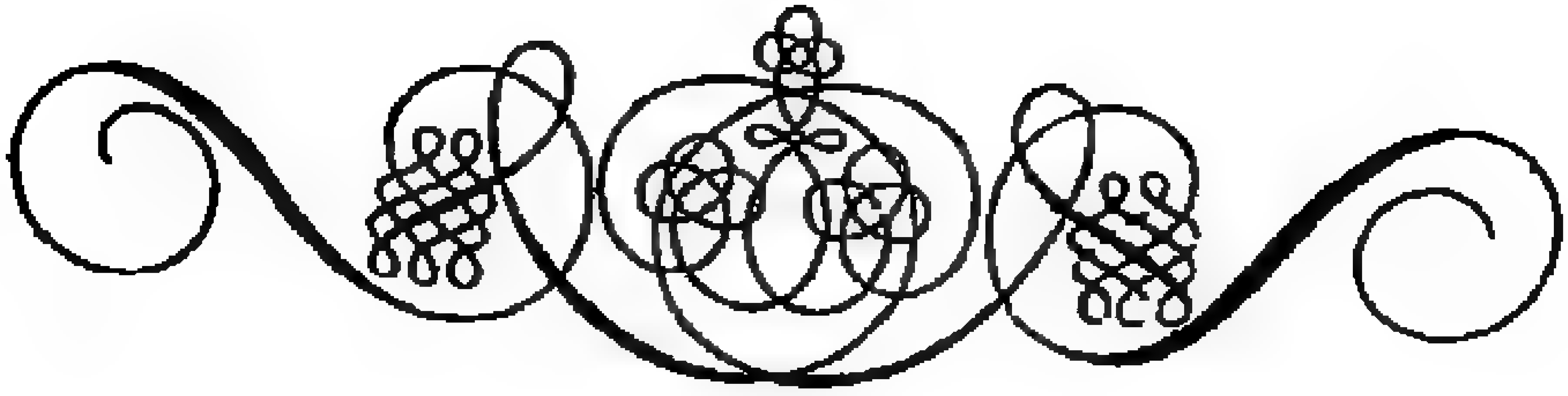
فيقول « أوه ، آه ! هكذا ! »



القسم الثانى

« اذا امتلأت السحب مطرا

اراقته على الارض »



القسم الثانى

الفصل الاول

(فى عنقه تبيت القوة ، وأمامه يدوس الهول)

— ١ —

« هل قرأت دوماس ؟ أعنى الفرسان الثلاثة ؟ »

فهز الدكتور محمود رأسه أن « نعم » وهو يثنى عنان الجواد إلى اليمين ليعطفه وقال « لماذا ؟ »

فقال ابرهيم « إذن أنت تذكر فرسانه لما دخلوا الحانة وهم فى غير ما يمكن أن نسميه سروراً أو حالا عادياً . فقد كان بورثوس محنقاً ثائراً فكأنما ضرب سحره على الحانة ومن فيها . وصار هم كل امرىء أن يترضاه ويتألفه ويسرع إلى خدمته وأن يلبي طلبه بأسرع مما ينطق هو به « مخافة أن يحدث ماهو شر من ذلك » — أى من وجوده — أهو يريد قشده ؟ إذن ينـدفع الموجودون ليجيئوه بها ؟ أم الجعة طلبته ؟ فهم يحملون على « البار » . ولما كان لا يقنع بشىء ولا تقف مطالبه عند حد ، فان القيامة قائمة فى الحانة ، وبورثوس يخور كأن فى جوفه ألف ثور . ولم تعد الحانة حانة بل صارت هيكلا لبورثوس ، وكل من

عداه من خلق الله مذهوب به إلى الشيطان . كذلك كنا اليوم بعد أن عاد الشيخ على — أو على الأصح — بعد أن زلت قدمه وهو يطارد أحمد الميت . واحتجنا أن نحمله إلى غرفته »

فضحك الدكتور وسأل « وكيف استطعتم أن تحملوه ؟ ليتني كنت حاضراً »

فقال ابرهيم « حاول أن يحمله أربعة من رجاله الأشداء ، لقد كان منظراً لى أنساه ما حييت . الشتائم والأوامر التى كان يصدرها — هذه وحدها ستظل منقوشة على صدرى أبد الدهر ، أؤكد لك أنه كان منظراً « هومريا » إذا كنت تفهم ما أعنى . ليس فى وسع ريشة أن تصوره وأن تثبت الجو الذى كان يحيط به . وللشيخ على الفضل الأكبر فى خلق هذا الجو المختلط المعقد . فقد أبى إلا أن يشترك عمليا فى « محاولة » نقله إلى غرفته . وكان بحكم العادة فيما أظن ، يصدر الأوامر ويجاهد — أثناء القيام بنقله — أن يصحح الخطأ الذى يقع من خدامه فى تنفيذ أوامره أو نواهيه — نواهيه على الأكثر — وأن ينزل العقوبة الجسدية بالمخالف أو المخطىء . أراد فى خلال هذه الرحلة أن يصل الى « أبو حسين » ليهشم له رأسه فاعتمد بيده على وجه « زناره » فكاد المسكين يختنق ، وكاد ينخلع عن كتفه ، فلولا أن شككت الشيخ على بدبوس واضطررته أن يرفع كفه عن وجه الرجل ،

لـكان قد هوى برأسه على الأرض ، وقد كافأنى بأن أمرنى أن أدفن نفسى حيا ! »

فقهقه الدكتور ثم قال « ان عمى غريب . لعلك لم تغضب ؟ »

فقال ابرهيم « أغضب ؟ كلا . أولى أن أغضب من العناصر الطبيعية . انه مثلها . ولـكن الـكلاب هى التى ضايقتنا . فقد اختلطت بالموكب وجعلت تتوثب وتدعج . ومن الغريب أنهـا كانت تسبقنا اذا صرنا الى مكان فسيح ، حتى اذا شرعنا نصعد السلم لم يعجبها الا ان تمشى بيننا والى جوانبنا وفى حيثما يكون وجودها عثرة فى سبيلنا ، والشيخ على يصيح بنا أن نخرس الـكلاب الحق ان صعود السلم كان بطولة تستحق التخليد . فقد حارت قوى اثنين أحدهما ذلك العبـد العملاق . ولست أدرى ما سر هذا الولع بالوجوه السوداء اللامعة ؟ وصدر الامر لأحمد انيت بأن يغرق نفسه فى الترعة ـ الليلة ـ وأن يجيئه فى الصباح جثة منتفخة وأمر « زناره » بأن يناوله سكينا ليذبحه حالا . وكان العبد يتوهم أن هناك درجة أخرى باقية فدت رجله لشدة فأمر أن يقطعها بالمنشار واخيرا وضعوه على السرير ووقفوا يمسحون العرق المتصبب بأكفهم الزرقاء ، وأيديهم الاخرى على صدورهم الصاعدة الهابطة ، ولا قدرة لهم على الحركة من فرط ما أصابهم من الاعياء فلعنهم وأمرهم أن يجلسوا على الارض وأنذرهم بالشنق بعـد أن يستريحوا . الموت كان أقل

ما يتوعد به أو يأمر ... ثم دخل النساء والاطفال بعد ذلك فأمر الى نجية أن تبعث لزوجات الرجال الذين حملوه بمقادير متساوية من السمن والجبن والقمح . هكذا هو أبدا ... »

— ٢ —

لم تكد مركبة الدكتور تبلغ الدار حتى كان احمد الميت يحل الجواد الذي وقف يهز جانبيه كأنما يريد أن ينفض ما عليه مما شد به ، والدخان يتصاعد من جسمه على الرغم من البرد والضباب

وأسرع الدكتور وابرهيم وراءه الى غرفة الشيخ على فتلقاهما بالزراية والتهكم . وكان الشيخ على قد استدعى امرأة عجوزا « فى يدها الردة » كما يقول أهل القرية فدلكت له قدمه ولفتها ولكن الدكتور حسبها مع ذلك فألقى الامرهينا ولا كسر هناك . وأوصاه بأن يلتزم رقدة خاصة سبعة أيام على الاكثر . فكان جزاؤه أن يتمنى له الشيخ على « أن يسجن سبع سنين على الاقل »

ولما رآه لا يحفل بذلك رماه بكوب كان يشرب منه

ولم يبالغ ابرهيم فى الوصف فقد كان الشيخ على مثل بورثوس ضخما هائل الانحاء قوى البنية كثير الارعاد والابراق سريع الغضب حاد الكلام ولكنه على هذا كان كريم النفس وفيه أريحية وذكاء وفكاهة ، وكان يسمى الشيخ على لانه

جاور فى الازهر زمنا طويلا ثم انقطع عنه بعد وفاة أبيه ، وتزوج بنت عمه نجية ، وتخلى لزراعته الواسعة وكثر تردده على الاسكندرية فاشترى له بيتا فى ضاحية الرمل على شاطىء البحر وخلع الجبة والقفطان والعمامة واعتاض منها ثياب « الافندية » غير انه كان اذا عاد الى « البلد » يكر الى جلباب من الصوف والطربوش .

وتلقى وهو فى الاسكندرية كتابا من احمد الميت ينبئه فيه بأن زوجته نجيه تطلب أن يبعث اليها بسميحة أختها ، واحتاج هو أن يرجع لشأن له فعادا معا

غير انه قبل أن يؤوب بها أحس بألم فى أحد أضراسه فرأى أن يعالجه قبل السفر ، فقصد الى طبيب يعرفه وكان الخادم جديدا حديث العهد « بالزبائن » ورأى الشيخ على يهجم حطأ على غرفة انتظار السيدات فتعرض له فدفعه صاحبنا فألقاه ودخل والغضب يتطاير من عينيه واللعنات تتزاحم وهى خارجة من فمه وانحط على أقرب كرسى

وكانت فى الغرفة سيدة تنتظر الطبيب فأفزعتها الزلزلة التى أحدثها الشيخ على ، وهاجها اقتحامه الغرفة عليها فنهضت ودنت منه وصاحت به

« اخرج من هنا يا قليل الأدب »

ولـكن الشيخ على كان قد وضع كفه على عينيه ومضى يحلم أو يتصبر على الألم فلم يسمع فاحتاجت أن تعيد الخطاب

« أقول لك أخرج من هنا يا وحش »

فوثب إلى رجليه وقال

« أتعنيني ؟ »

قالت « نعم آمرك أن تخرج يا قليل الأدب يا وحش »

فتراجع خطوة كأنما كانت قد صكته بحجر وتمتم

« وحش ؟ قليل الأدب ؟ لى أنا هذا الـكلام ؟ »

قالت « نعم . وإن فى بقائك هنا وردك على لدليلا آخر على أنك سيىء الأدب . حيوان متوحش يجب أن يحبس فى قفص »

فغلا الدم فى رأسه ولـكنه تماسك وقال

« بأى حق تجترئين على مثلى بهذه الألفاظ ؟ »

فلم تتراجع وصاحت به

« أترد على ؟ أتتحدث ؟ أن هذه عيادة طبيب وليست ميدان مصارعة للثيران . ثم إن هـذه غرفة للسيدات وليست محلا للفيلة . اخرج من هنا »

فتلفت الرجل يمينا وشمالا كأنما يبحث عن شيء ثم رفع وجهه المحتقن وقال بصوت متزن

« أنك تعتمدين على امتيـازات جنسك . ولـكن هذا لا يبيح لك أن تصفى الناس بمثل هذه الألفاظ على أنى أسف

لأنى دخلت هذه الغرفة من غير أن أنتبه الى أنها للسيدات واعتــذر لك . ولـكنى أؤكد لك أن مخاطبتك لغريب مثلى بهذه العبارات ... »

فقاطعته

« لماذا قرعت الباب ؟ »

فقال وهو فى دهشة

« لأدخل »

« ألم يكن الباب مفتوحا ؟ »

فسكت . فأعادت عليه الـكرة

« انطق . ألم يكن الباب مفتوحا ؟ ألا بد أن تحدث ضوضاء تمزق الاعصاب لتعلن الى الدنيا انك داخل ؟ ولـماذا شتمت الخادم ؟ »

فوجد لسانه وقال ·

« لانه حاول أن يمنعنى »

« انه كان يحاول منعك من أن تسىء الادب بالدخول فى حجرة السيدات . ولماذا ضربته ؟ »

« بأى حق تسألين ؟ انه كان وقحا . »

« ولماذا تدخل الغرفة كالقنبلة ؟ »

« لم يحصل هذا منى »

فقالت « لا تكن سخيفا . لقد دخلت كالوحش وارتميت

على الكرسي كالوحش ولم تكلف عينك النظر ... »

فقال مصراً « لست كالوحش . ولا حق لك في هذا الكلام »

فألقت اليه نظرة احتقار وأدارت وجهها ولم تجب

وظهر الخادم في الباب فخرج الشيخ علي ولم ينتظر الطبيب وسافر مع نجيحة إلى البلد . فلما بلغها كان ما حدث له لا يزال يحز في نفسه ويهيجه فلم يكد يلتقي أحمد الميت ويرى منه بعض التلكؤ في تنفيذ أمر حتى ذهب يعدو وراءه فزلت قدمه وكان ما تعرف

ولم يفت الشيخ علي أن يقص ما حدث له وأن يؤكد أنه سيخطفها لامحالة يوماً ما

فقالت نجية « تخطفها ؟ يا خبر اسود ! »

فصاح بها « دافعي عنها ! لك الحق . الكلب لا يعض أذن أخيه ولكني سأخطفها . فانها فضلا عن وقاحتها جميلة »

فقال الدكتور — وكأنما أراد أن يطمئن نجية — « ولكنك لا تعرفها »

فقال الشيخ علي ملغزاً « انق معتمداً على هذا . سنرى »



الفصل الثانى

(المرأة التى هى شباك ، وقلبها اشراك ويداها قيود)

نظر ابرهيم إلى ساعته فألفاها الثانية عشرة فقال « أوه » ونهض

فقال الشيخ على وهو ينفض السيجارة « ماذا ؟ »

— « النوم ياصاحبى . جسمى متعب ، وهذا الدفء يزيدنى تفتيرا »

فمد له الشيخ على يده وهو يقول

« طبعاً . طبعاً سأعد لك ثلاجة أضعك فيها الليلة الآتية »

وانحدر ابرهيم الى « السلاملك » وهو يعجب أين ذهب الماقون . الدكتور الذى اضطر أن يقضى ليلته هنا ، ومحية وأختاها ولما لم يبده التفكير الى شيء خلع معطفه وارتمى على السرير وتغطى ونام

وأيقظه نقر خفيف ، ففتح عينيه ورفع رأسه قليلا وتسمع . فتكرر النقر ياعجبا ! فى كل ليلة حادث ؟ مرة تكون البقرة وأخرى تكون تلك الرجحية والليلة ماذا ياترى ؟ ربما كان الدكتور ؟ ولكن كيف يمكن أن يكونه ؟ من عساه أن يكون غيره ؟شوشو؟؟ لا . لقد قطفا زهرتهما وانتهى الأمر قطفاها ولم يدللاها واحتملت شوشو أن تقطفها ، ولم ترتجف يدها

وان كان كيانها كله قد زلزلته الصدمة . ولم ترق دمعة ولم تتنهد وان كان فى جوفها بركان مضطرم. ولم يشحب وجهها وان كانت حياتها قد جفت استطاعت بقوة حبها أن تسمو وتحلق فوق « الحياة » فيالها من ...

نقرة أخرى .

فرمى اللحاف ووثب الى الأرض فى خفة ومضى الى الباب وقال من ورائه — دون أن يفتحه — بلهجة السأمان

« من هذا ؟ »

— « أنا . افتح يابن خالتى »

صوت سميحه — أو « سوسه » — كما يسميها ماذا تبغى؟ لأى شىء تجىء فى مثل هذه الساعة المتأخرة ؟ واضطرب ولم يجر بباله إلا كل سوء ، وحار ماذا يصنع وكيف يستقبلها وهو لا يكاد يطيق أن يراها ؟ ومن يدريه ؟ لعلها ليست سوى رسول

« افتح امال ! » بلهجة الضجر

ففتح — وهل كان يسعه خلاف ذلك ؟— ووقف فى مدخل الباب — حجر عثرة — فألفى فى يمينها مصباحا ولمح شبحاً عند باب السلم فهى ليست وحدها إذن ؟ فهل يطمئن أو يقلق ؟

وقال « ماذا جاء بك الآن ؟ »

فابتسمت له — ولم تكن دميمة ، وقالت بأرق أصواتها وأحلاها نبرات :

« ألا تمهلني ريثما أدخل ؟ أعوذ بالله ! ماذا جرى لك يابن خالتي حتى تتركني واقفة أنتفض من البرد ؟ »

وتحرك الشبح عند باب السلم حركة من يتوارى

وأدرك ابرهيم أن لا شيء هناك يدعوه الى القلق على أحد، وساءه هذا السلوك من سميحة ، وخيل له أن وراءه غرضا تعتمده ، وخاف ما قد يجر اليه سماحه لها بالدخول فى مثل هذا الوقت ، من التأويل والتخريج وهى فتاة تخلق من الحبة قبة ، ومن العنبة خمارة ، ولا يبعد أن تكون قد انتوت أن تستأنف مطاردته التى أتعبته وأرهقته وبغضت النساء جميعاً اليه . واذا عرف أهل البيت انها زارته على هذا النحو وأنه تقبل منها هذه الزيارة ، فأى شيء لا يفهمونه ؟ كلا ! يجب أن يمنعها مهما كلفه ذلك ! وماذا يخشى ؟ انها داهيـة خبيثة ولكن شر مايدخل فى طوقها ، قد وطن هو نفسه عليه ، وكذلك شوشو

وقال « لست أفهم معنى لهذه الزيارة ولا أرى لها داعياً »

فضحكت ولم تنهزم وقالت وهى تدفعه لتفسح لنفسها طريقا

« بلاش دلع . أتحسب انى جئت بلا علم أختى وإذنها ؟ لقد أرسلت معى فاطمه وهى تنتظرنى »

فتنحى لها ، ولكنه ظل واقفا فى مكانه فلما وضعت المصباح وجلست قال

« اذن أخرج أنا »

فقالت « عجيب هذا ! وبعد ان قلت لك إن أختى تعلم ؟ »

فلم يتزحزح وأمضته هذه الصفاقة وقال بلهجة مرة إلا أنها هادئة متزنة النبرات

« اذن سأصعد اليها وأبلغها انى لا أرتاح الى هذه الزيارة وأن الاذن بالدخول على — وان كنت ضيفا عليها — يجب أن يكون منى أنا لا منها أو من سواها. ليس أحد وصيا على ، اذا كنت أنت تحت الوصاية »

فدقت كفا بكف وقالت محاولة أن تنقل المسألة عن هذا الوضع

« ولكن أى ضير فى حضورى وانت ابن خالتى كأخى ؟ »

فقال « إن كونى ابن خالتك أو عمتك أو من شئت غيرهما لا يجيز لك هذا ! »

فلم تتراجع وخيل لابرهيم ان كل غرضها أن تقضى دقائق عنده والسلام ، وانه لا يعنيها كيف تقضيها ، مادامت تقضيها .

وقالت « كأنى لم أعد من الاسكندرية اليوم . ولم أرك منذ شهور »

فغاظه إلحاحها وازداد مقته لها ولم يعد يتقى ايجاعها بالكلام الصريح وقال

«هذه الزيارة فى الليل ـ بعد منتصف الليل ـ يسهل جدا أن تعد خلوة مدبرة . وأنت تعلمين أنى برىء من ذلك ولا يد لى فيه . وتعلمين أيضا انه ليس بينى وبينك أكثر من القرابة التى لا تجيز لك توريطى فى مثل هـذه المواقف التى لا أرتاح اليها ولا أستطيع احتمالها . ثم انك فى قميص النوم أيضا فكيف أنظر اليك حتى لو كنت أخاك ؟ وماذا يقول الشيخ على أو يتوهم حين يعلم .... »

فقاطعته وقد فزعت

« أتنوى أن تخبره ؟ »

وكان سؤالها هذا وما نم عليه من الفزع زلة منها ، وأدرك أن الشيخ على لا يد له فى هذه المناورة ، وسره ذلك وسرى من غضبه ، ولكنه أراد أن يعرف الى أى حد يسعه أن يستغل خوفها من الشيخ على فقال

« من واجبى أن أخبره »

فأقبلت عليه تتوسل اليه وتناشده القرابة والدم وتستحلفه بابنه ، وقد أخذ الخوف ذكاءها وأطار المكر الذى فى رأسها ، ولكنه أبى أن يعد بالكتمان وقال ويده على مفتاح الباب

« انى أريد أن أنام »

فخرجت .

— ٢ —

ولكنه لم ينم بل أشعل سيجارة وشرع يفكر :

سميحة فتاة يعرفها كاذبة ماكرة . ويحسها بكل جارحة فيه ثقيلة بغيضة ، ولم تكن دميمة ولا كان ينقصها الظرف والكياسة والرشاقة أيضا ، ولكنه هو كان يحس أن على صدره حجرا حين تكون معه ، وكان اذا أخذتها عينه ، يخيل له كأن وجهها مغضن وكأنها هى تحمد الله على الغضون وتشكر له ان لم يبعث فى وجهها لحية . وسر هذه الكراهة التى نمت كالسرحة ، ان سميحة أغريت به وألحت عليه بالتحبب اليه ولجت فى محاولة « توريطه » أمام الاقارب والمعارف لتوهمهم ان كلا منهما — هى وابرهيم — يصغو الى الآخر بما هو أقوى من الود بين الاقارب ، ولم تكن هى تحبه أو تعبأ به ، ولكنها شارفت الحادية والعشرين ولم يخطبها أحد ، فخزنت أختها نجية ولم تبال أن تتكلم أمامها بخوفها أن تكون سميحة قد كتب عليها أن تعنس ، وجعلت لها دالة عليها كأنما أرادت أن تعوضها بالعطف عليها من الانصراف عنها ، فأفسدها التدليل وأكسبها جرأة تحمد فى الرجال ولا تكون فى النساء — عوضا عن الحياء — الا منفرة . وفكرت نجية ثم فكرت فلم تجد أمامها من « المرشحين » سوى اثنين . ابرهيم والدكتور ، والدكتور أغنى ولكن ابراهيم أسمى مقاما ثم انه آثر عندها لانه قريبها فلتهد اليه سميحة ! أما الدكتور فثم

شوشو تنتظره اذا شاء ولا يضيره الانتظار لانه أصغر سنا من ابراهيم ، وشوشو لم تبلغ العشرين ففي وسعهما أن يصبرا .
ومن أجل هذا جعلت تلقى سميحة على ابرهيم وتغريها به ، وتتغاضى عن مغازلة الدكتور لشوشو وتحمد لشوشو فى سرها انها تنفر منه ولا تقبل عليه فان ذلك منها أعون على شحذ رغبته وأدعى الى إطالة « الحبل » حتى يأذن الله وتتزوج سميحة .

ولم يكن ابرهيم يعرف كل هذا — وأنى له أن يعرفه ؟ — ولكنه كان يلمح أمارات الرضى من نجية عن سلوك سميحة ويشعر شعوراً غامضاً ان بينهما تفاهما أو اتفاقا — قد يكون صريحا وقد لا يكون — على مطاردته وتوريطه ، فكان هذا يستفزه ويستثير نقمته ، وينفره ، ولو أن الامرجرى على خلاف ذلك لكان من الممكن أن يفكر ابرهيم فى سميحة ، أوعلى الاقل أن لا ينطوى لها على كل هذا المقت

وكأن الله شاء أن تكون حياة ابرهيم كلها حربا ومشاكل . فما طلب أمرا أو اشتهت نفسه شيئا إلا اكتنظ طريقه بالعوائق ، حتى زوجته الأولى كان اقترانه بها على رغم أنف أمها . حتى ماري — آه مسكينة ماري ، لقد نسيها . غرقت قطرتها فى الاقيانوس الذى أزخره حب شوشو . ولكنها قد تسلت عنه ولا شك ! — حتى ماري كانت علاقته بها مشكلا . والآن ، تقف سميحة فى وجهه وتأخذ عليه طريق قلبه ، ويسد شيطان حبها كل فج

إمامه ولماذا ؟ أمن أجل أنها سبقت شوشو الى الوجود وتقدمتها فى الحياة تكون أحق بأن تحب وأولى بأن تكون له زوجة ؟؟ كلام فارغ . وما ذنب شوشو ؟ ماذا جنت حتى ينزل بها هـذا القضاء الماحق ؟

ونهض ابرهيم يتمشى . وراح يتصور المستقبل المظلم الذى قسم لشوشو . سيزوجونها يوما ما ، واحدا لاتعرفه ، أو تعرفه ولا تحبه واحدا كالدكتور مثلا . فلا تجرؤ أن ترفض وهبها استطاعت أن تجترىء وحبست نفسها عن التزويج فان هذا لايكون أقل قسوة . ولماذا كل هذا ؟ لانه هو — ابرهيم — أقنطها ودعاها الى اليأس وزينه لها على الرغم من حبها له ومن حبه لها . فهل من حقه هذا ؟؟ هل تجيز رجولته له أن يتخلى عنها ويدعها تحترق — تحترق فى الجحيم الذى أضرمه بيده ثم قذف بها فيه ؟؟ ألا يشعر أنه مسئول عن مصيرها هذا ؟ بلى وان تبعته لعظيمة . وهبه غير مسئول فان عليه واجباً لنفسه ، فلماذا يسمح لسميحة أن تعترض طريقه وتأخذ عليه متوجهة ؟ ما سميحة هذه ؟؟ فتاة ؟ ومن أجلها يدع نفسه يشقى ! من أجلها يترك شوشو تعانى الغصص ! من أجلها يقف هو وشوشو متقابلين وتكنهما روحان معذبان ! لا يفصلهما شيء . غير أن أيديهما لا ترتفع ، وشفاههما لا تلتقى ، وأنفاسهما الحارة لا تبترد ! كلاهما يجب أن يصرع

رغبته فى الحياة كلاهما ينبغى أن يغيب — وهو حى جدا — فى فراغ الموت المظلم — يجف ويذوى ويرفض الماء الذى يرويه، — وبقتات سم الألم ، وتذبل شوشو ، ويبيض شعرها الجميل المتهدل على جيدها الناصع المتألق ، وتغور عيناها وتعمق الكهوف حولها ، وتنقلب تغريدتها نعيبا وفتنة صوتها حشرجة ، لأن صحيحة تشاء هذا ؟؟ ولأنى أنا ضعيف مهين كغيرى من الناس الذين أحتقرهم من أعماق قلبى . لأنى لست من طراز بروميثيوس ! لانى لا أزال أنظر الى الأشياء من وجهة شخصية أنانية ! « أنا » دائما . و « أنا » فى كل شىء . بحسبى أن فزت منها بقبلة ! يالها من نعمة ! وما أعظم بطولتى ! ثم أدعها تغرق فى اللجة الطامية التى دفعتها اليها ! أتركها تحترق فى النار التى أوقدتها وعجزت عن اخمادها

كلا ! كلا ! لن يكون هذا

وارتاح لما انتهى الى ذلك ورمى الى الحديقة نظرة مطمئن الى ما صمم عليه وكانت الحديقة العطرة مظلمة ، وأغصان أشجارها تكون فيما بينها أقبية تحت السماء الخضراء ، وعلى سطح الأرض البليلة ضباب خفيف خافق فكأنما هناك أشباح غير مرئية تجوب مسالك الحديقة الصامتة وتسرى بين الاشجار الجامدة فترجف لطيفها الأوراق والأزهار الناعسة .

الفصل الثالث

أما خاطئ واحد فيفسد خيراً جزيلا

— ١ —

« آه . زوزو ؟ »

وفتح عينيه على كفيها الصغيرتين تعبثان بجيب جلبابه وتخرجان أزراره من عراها ثم تعودان فتدخلانها فيهـا ، ولم يكن أحب الى الشيخ على ولا أثلج لصدره من أن يصبح على وجه فتـاته «زوزو » ولم تكن وحيـدته ، فان له غيرها ابنا هو محمد ، ولـكن « زوزو » آثر عنده ، وهو بها أكلف ، وكثيرا ما كان ابرهيم يعجب لذلك منه ويقول له ان الولد — لا البنت — هو الامتداد الطبيعى لحياة المرء ، فيهز هذا الرجل الطيب رأسه ويقول

« كلا . يا صاحبى : وليس ايثارى لها لانها الـكبرى ، كلا إيضا أنت شاب فى حقك أن يكون هذا رأيك فى ربيع العمر وللشباب حكمه . حكمه الذى لا تؤثر فيه فلسـفة ولا يغيره علم أو اطلاع » .

ويصمت برهة ثم يقول كأنما يحدث نفسه — بصوت خافت متهدج

« للحياة كما للأيام فصول ، ولـكن فصول الحياة تتوالى على غير ميعـاد ، وليس كل فصل منها كـكل فصل فقد يكون

الربيع أياما والخريف أعواما ، والذى يجىء منها لا يعود ، ومتى جاء الخريف وبدأ المرء يشعر بأنه قد رأى خير ما كتب له فى عمره ، وان ما بقى من رحلته فى هـذه الدنيا أشبه بأن يكون « وجودا » منه بأن يكون « حياة » — استمرارا ومجرد اندفاع فى الطريق الذى كانت تجرى فيه « الحياة » الاولى ، كما يجرى النازل من « الترام » خطوات الى جانبه ، بقوة « القصور الذاتى » — عرف المرء ان أذنه التى كانت تثملها همسة الحب الخافتة ، لن تسمع بعد ذلك تلك اللغة العذبة ، وصار القلب الذى كان يطفر اذا هتف بالنفس هاتف من أمل أو طماح ، يخفق بلا احتفال ولا يخرج فى دقه عن الاسظام وبدأت الآمال والرغائب التى كنا نعتز بهـا ونحرص عليها ، تفقد حلاوتهـا وقوتها ونضارتها ، ويهى استيلاؤها على نفوسنا ويضعف اغراؤها لخيالنا ، وتتعرى زهراتها من أوراقها وتجف وتصفر وتتساقط على اليد ويطيرها النسيم هنا وهنا — متى صرنا الى هـذا فان المرء تهتز نفسه لابنته وترتاح الى مسحها الحب ، ان هذه الفتاة الصغيرة ياصاحبى تعيد الى الشعور بحرارة الحياة وقوتها الدافقة فى ربيع العمر ، نعم انهـا انما تحيى « ذكرى » ذلك ولا تجدد الشعور ولا تهب القوة التى نفدت ، ولكن الذكرى غناء . »

ويطرق هنيهة ثم يرفع رأسه ويستأنف الـكلام :

« وأنتم بالصبيان يشبون ويكبرون ويصبحون رجالا

يحملون الأعباء ويشقون لأنفسهم طريقاً فى هـذه الدنيا ، ويفوزون بحسن الذكر وطيب الاحدوثة ويشرف بهم الأصل الذى هم فرعه ، ولـكنهم يا صاحبى بعد أن يدخلوا فى حدود الرجال ينقلبون « أصولا » لأنفسهم ولا يعودون « فروعا » من غيرهم . ثم . . ثم .. — هذا يا صاحبى أوجع ما فى الامر — يحتلون المكان الذى نخليه نحن ، ويجعلوننا نشعر اننا أخليناه لهم . وما أكثر ما يجعلوننا نشعر بأنهم يطالبوننا بإخلائه . ان مجرد وجودهم فى الحياة يشيع فى نفوسنا الشعور الذى كان غامضا قبل بضع سنوات ، بأننا لسنا من أهل هـذا الزمن الحاضر ، لسنا من أبناء هذا الجيل الذى يزحف ويستولى على الدنيا — نعم يحتملوننا ولا يبخلون علينا بالرعاية والترفق ، وقد يحبوننا ويحترموننا ولكنهم يشعروننا أننا انتهينا ، وأننا محسوبون على الماضى مصافون الى آثاره ، — يصغون الينا — هذا صحيح — وقد يطيعوننا ولكن بلا حماسة ولا اقتناع بل على التسامح »

فيقول ابراهيم وقد غلبه صوت الشيخ على وعدوبة لهجته على الرغم من المرارة التى فيها

« صحيح . لقد كان يوليسيس خلا فى زمانه طوف فى الدنيا لشجاعـة وغامر بقوة ولـكن تلماك هو الذى نحمل بالنا اليه ونوقظ له قلوبنا وعقولنا »

فيقول الشيخ على وكأنه لم يسمع :

« ولكن البنت شيء آخر مختلف جدا ، يظل أبوها — حتى يحل زوجها محله — مستويا على العرش الذى ألفت أن تنظر اليه من طفولتها ، لا يدوبه فى نظرها الكبر ، ولا تخلق ديباجيه العادة كل صفاته المحببة تزداد على الايام رقة اخواتها الصبيان — على حبها لهم — ليسوا سوى صور ضعيفة فاترة من ذلك الاصل العظيم . وفضائلهم ومزاياهم أضواء منعكسة . أبوها هو محور وجودها وقطب الرحى فى حياتها وحبه لها سماوى . ملائكى . ليس من هذه الارض . لا يشوبه أو يعكر صفوه الاحساس بأنها ستحل يوما ما محله ، وهى بنت أمها . فأخلق أن تثير فى نفسه ذكرى مهذبة لحبه القديم لأمها ، ذكرى تكون كالحاشية لذلك الحب الابوى الذى هو من أسعد وأقدس أسرار الحياة »

وكأنما يتذكر فجأة شيئا فيرفع رأسه ويقول وهو يحدق فى وجه ابراهيم

« كيف تستغرب ؟ »

فيقول ابراهيم « ماذا ؟ »

فيقول الشيخ على مستأنفا « وانت القائل — لا أذكر فى أى كتبك — ان المرأة هى الحياة مختزلة ؟ لقد أثمرت تعاليمك كما ترى »

ويضحك .

فيقول ابراهيم « هـــذا أكثر مما كنت أعنى . وأعترف انه لم يخطر لى »

— ٢ —

وبينما كانت « روزو » تداعب اباها وتفيض عليه من حبها وأشراق نفسها ، كانت أمها نجية قاعدة فى غرفة أخرى على الوسادة وأمامها الموقد على مسداره أباريق القهوة كبراها وصغراها ، فى واحدة منها القهوة وفى الثـانية ماء مغلى ، وهى ترشف من الفنجان تارة وتبسط كفيها فوق النار التماسا للدفء تارة أخرى وتفكر طول الوقت ، على حين كانت شوشو لا تزال مستلقية فى سريرها ، وسميحة تروح وتجىء وتدخـل وتخرج وفى يدها مكنسة وهى لا تصنع شيئا وكأنها تصنع كل شىء

وكانت نجية وهى قاعدة على الوســادة وكفاها على كرشها « والشــال » يغطى رأسها واذنيها وظهرها ويجمع طرفاه على صدرها تفكر فيما تفكر بها ، وهى لايكربها شىء سوى مستقبل سميحة ، ولا نحتاج أن نقول ان مستقبل اية فتاة فى رأى نجية ليس له معنى سوى زواجها .

زواج سميحة ؟ نعم لا شىء غيره ، وقد ادارته فى رأسها مائة ألف مرة واجـترته حتى لم يبق له طعم وحلمت به أغرب الاحلام وأبعدها عن إمكان التحقيق، ومن حقها أن تولى الامر هذه العناية، فان حادثة حياتها الوحيدة هى زواجها، به استغنت

عن الاقامة فى مصر بعد وفاة والديها وأمنت الفاقة واستطاعت أن تحيا حياة ترف عليها النعمة ،وأن تكفل أختها وأن تعلمها فى أرقى المدارس الفرنسية فى الاسكندرية وأن تنشئهما أحسن تنشئة .

ولم تكن هذه أول مرة تحلم فيها بزواج سميحة ، فقد كان هذا خاطرا مخامرا ، وما خلت الى نفسها لحظة الا راحت تتصور أختها هذه معقودا لها على واحد ومزفوفة الى آخر ممن تسمع بهم أو ممن لهم بزوجها أو بالاسرة صلة ما ، ولم تكن أحلامها على خلاف المألوف فى الاحلام ،مطلقية أو منتظمة ، فقد كانت تصور لنفسها سميحة وقد تزوجت كل واحد ممن يخطر على بالها، فترى بعين خيالها واحدا وقد تقدم اليها ليلبسها سوار«الشبكة» وجاء ثان فى حفل من الاخوات والاقارب والأصهار ليعقد له عليها ،وأقيمت الزينات وجيء بالمغنين والمغنيات واحاطت « العوالم » بسميحة يزففنها الى ثالث ، ولا تكاد تبلغ هذه المرحلة حتى تؤثر شابا رابعا فتجعله هو الداخل عليها ، حتى اذا مد يده ليرفع النقاب عن وجهها ويقبلها انقلب فى خيالهـا شخصا خامسا وهكذا فليس لخيالها حين تطلق له العنان استقرار،ولا لاختيارها تعلق بشخص دون سواه

وكانت نجية أذكى وأحزم من أن تدع أحدا يطلع على هذه الصور التى تتعاقب على ذهنها وترتسم واحدة بعد واحـدة فى

نفسها ، وان كانت هى لاتكف عن احضارها وتمثلها فى خاطرها لتنعم بها وحدها ، ولم يكن أحد من الشبان أو الرجال الذين تحلم بهم ازواجا لأختها ، يتوهم انه بعض ما تدور عليه هذه المناظر العجيبة فى رأس هذه السيدة الضخمة الساكنة ولا كان يجرى لهم فى بال — وهم جلوس فى بيت الشيخ على يشربون القهوة ويتحدثون فى شتى الشئون . أو وهم فى حقولهم أو أمام مكاتبهم أو فى دورهم — انهم ينقلبون اشخاصا آخرين فتنضى عنهم ثيابهم العادية ويكسون بدلا منها أخرى سوداء رسمية على قميص أبيض وربطة بيضاء ، او جبة سوداء وقفطانا مخططا ، وان أيديهم واحدة بعد واحدة توضع فى يد الشيخ على الكبيرة وان افواههم تتمتم فى حياء « قبلت نكاحها » وان السرادقات تنصب فوقهم وتزدان ، وان اصوات المغنين ترسل فضية النغمات تحاوبها اصوات السامعين بآهات الاستحسان ، وأن الموسيقات تعزف مرحبة بالقادمين من المدعوين

ولم تكن سميحة تلزم حالة واحدة فيما تتخيل أختها فهى مرة زوجة « باشا » يغنيها ويرفعها مقاما محسودا بين اترابها ولداتها ، ثم تستحيل زوجة « وجيه » موسر له مصيف فى الاسكندرية ومشتى فى القاهرة وضيعة طويلة عريضة يقصدان اليها كلما سئما حياة المدن وتبرما بضجاتها وحفلاتها واستقبالاتها ، طلبا للروح والراحة بين احضان الطبيعة ، ثم هى بعد ذلك زوجة

الدكتور يعنى بها ويسبغ عليها الصحة وينتقل بها بعد أن تتسع دائرته ويتسامع به الناس ، الى رمل الاسكندرية فتكون قريبة منها ، ويغنى شيئا فشيئا ويكثر لديه المال فيبتاع لها الحلى الثمينة يزين بها رأسها واذنيها وجيدها ومعصميها واصابعها وصدرها أيضا ، ويلبسها كل مايشتهى شبابها من الافواف والاوشية ، ـ ثم يهتز الكليدسكوب وتتغير مواضع الزجاج الملون فتبدو سميحة مع ابراهيم الحازم العطوف ، يبيحها قلبه ويقطعها حبه ويلازمها طاعته ويحكمها كما يجب ان تحكم المرأة وكما لا يحسن غير ابراهيم فيما تعلم أن يفعل ، وتتنهد وتبتسم حين يطوف برأسها هذا الحلم الذى تستريح اليه وان كان المال فيه قليلا وفرص الثراء ضئيلة ، ويخيل لها وهى ترسم خطوط هذه الصورة وتلونها أن سميحة تصبو الى ابراهيم وتحبه ، وتنحى عن خاطرها أن ابراهيم لايبادلها هذا الحب ولايبدو منه مثل هذا الود ، وتقول لنفسها من يدرى ؟ أليس الواقع أن الرجال يتزوجون من لم يروا من النساء ثم يحبونهن بعد ذلك ؟ وتغالط نفسها وتنسى ان ابراهيم يعرف سميحة وأنه يمقتها ، فلا أمل هناك اذا كان ثم أمل بين غريبين ، وتسعر بوجوب التعجيل ، ويقوى شعورها بذلك ما فطنت اليه بغريزتها وأدركته مما رأت من شوشو وابراهيم وكأن شوشو ليست أختها ، وكأن تحطيم قلبها وتخييب أملها اذا كانت تحب ابراهيم ؛ شىء لا تحسبه ، ولكن صورة ابراهيم وشوشو تأبى

أحيانا الا أن تبرز ، وتعكر عليها صفو أحلامها ، فتثير غضبها وتروح تنكر على شوشو أن تحب أحدا بله ابراهيم . وتقول لنفسها ان هذا من شوشو قلة أدب وتسخط على المدارس التى تعلم البنات هذا الكلام الفارغ قبل الاوان ، وتنحى على نفسها باللوم لانها هى التى أصرت على تعليم أحيبها — وفى مدرسة فرنسية أيضا — ولكن سميحة كانت معها فلماذا لم تتعلم مثلها هذه الوقاحة ؟ ولماذا تنفرد شوشو بسوء الادب وفساد التربية ؟ أتريد أن تجر على الاسرة عارا ؟ ؟ أتريد أن يذاع فى البيوت أن شوشو أحبت ابرهيم ؟ ؟ يا للفضيحة ! يجب أن تضرب على فمها . ثم لا بد من زجرها عن هذا . والا فالفضيحة لا محالة واقعة

ويزيدها هذا تصميما على اهداء سميحة لابرهيم ويبدو لها ذلك كأنه خير حل للاشكال ، والسرعة هى كل شىء ، وليس أجدى فى مثل هذه المسألة من قطع الامل .

وأفرغت فى الفنجان الذى كانت ترشف منه القهوة ، نقطا من الماء وهزته ثم صبته على حافة الموقد ، ووضعه بين اخواته ثم صفقت فجاءت سميحة تسبق فاطمة فقالت نجية

« قولى للبنت ترفع هذه الاشياء . ألا تزال شوشو نائمة ؟ يا لها من مكسال ! »

فقالت سميحة « أنا عارفة يا أختى ! انها لا تريد أن تقوم . وماذا كانت تصنع لو كانت متزوجة ؟ أكانت تدع الرجل يفطر

ويشرب القهوة ويلبس ثيابه وهى مطرحة فى السرير ؟ ولكن الكلام معها لا يجدى وقد تعبت معها ، وهى لا تسمع لى كلاما . فلا شأن لى بهـا فانها لا تقبل منى كلاما . فأنت وشأنك معها »

فهزت نحية رأسها ومصمصت بشفتيها ولم تقل شيئا ونهضت — على يديها أولا

ولما صارت مع زوجها وجلست على الكرسى الى جانب سريره قالت زوزو « ردى الباب يا بنتى »

فالتفت اليها الشيخ على ورفع رأسه عن الوسادة واتكأ على كوعه وقال ·

« هل من جديد يا فيلى الصغير ؟ »

فلم تحفل بالها الى مراحه ووضعت دراعها على الوسادة وقالت بصوت خافت وهى تتلفت الى الباب بعد كل كلمة ·

(نريد ابرهيم لسميحه)

فاستوى الرجل قاعدا وصاح بها .

« مادا ؟ »

فارتدت مذعورة حتى لكاد الكرسى يقع بها فما كانت تتوقع دلك وقالت وهى تشير بكفها مستهجنة

« ياحى لماذا تصيح هكذا ؟ لقد أفزعتنى ؟ »

قال اليها الشيخ على وقال باخفض أصواته

« ما الذى جعلك تفكرين فى هذا ؟ »

فقالت مستغربة « ولماذا لا أفكر فيه ؟ ألست موافقاً ؟

فقال « موافق ؟ انك عمياء ! »

فقالت « عمياء كيف ؟ والله لا أعمى سواك . ألا أستطيع أن أكلمك من غير أن تثور بي كالزوبعة ؟ »

فلم يعبأ بهذا وابتسم وهو يقول

« لقد كذبت عليك سميحة مرة أخرى ! اعترف بالحق »

فقالت بلهجة السخط : « كذبت ؟ تقول كذبت؟ سل إذن فاطمه ؟ »

فضحك الرجل وقال

« الغرض مرض ! تريد الحمقاء أن أسأل الخادمة . »

فقالت ملحة

« نعم سلها . فقد بعث الى سميحة أمس بأن توافيه فى غرفته بعد ان يقوم من عندك فاستأذنتني فأذنت فاستصحبت فاطمه فسلها ان كنت فى شك . انك لا تصدقنى ابدا فلعلك تصدق الخادمة . »

فلم يكترث للمرارة التى فى لهجتها وقال

« اذن أنا لا أعرف ابراهيم ! »

فقالت وقد أزعجها ان أحست ان روحها يعرف ما تعرف هى « ماذا تعنى ؟ »

قال « أعنى ايتها الفيلة العمياء أن ابرهيم يمقت سميحة بكل

جارحة فيه » فكأنما طمأنها هذا وسرها انه كل ما يعرفه فقالت

« يمقتها ؟ انك تبالغ دائما. ومع ذلك فانه سيحبها شيئا فشيئا وهى ذكية وماهرة ويجب أن تعرف كيف تستميله . دع هـذا لها ولى أيضا » فارسلها زفرة طويلة ثم قال

« ما أشد غفلة النساء وأعظم لجاجتهن فى الخطأ يا عمياء انه لا يمقت سميحة فقط بل هو يحب شوشو أسمعت ؟ أكان لا بد أن أشق لك جفونك بالسكين لتفتحى عينيك فتبصرى ؟ »

وبهت كانما كان هذا نبأ جديداً وأسرعت تقول

« شوشو . كلام فارغ ، لا والنبى أبداً . والله لو ملأ لى حجرى ذهباً مستحيل »

فاضطجع الشيخ على ولم يزد على أن قال بلهجة قاسية

« قومى من هنا . واسمعى احذرى أن تقولى أو تفعلى شيئا ! فاهمة ? »

فنهضت طائعة وهى تقول

« أمجنونة أنا »

فقال « بل أنت مستشفى مجاذيب بأسره اذا ابراهيم حساس حداً ولا أريد أن أخسر صداقته مهما كلفنى الاحتفاظ بها . أتفهمين كلامى هذا ، مهما كلفنى الاحتفاظ بصداقته ! هيه ! »

فشورت بيدها وخرجت وكرشها أمامها .

الفصل الرابع

« فى النهار أدعو فلا تستجيب ، فى الليل أدعو فلا هدوء لى »

الوقت الصباح ، وابراهيم يتمشى فى الحديقة ، ولا يرى شيئا ، فما يكظ دهنه الا موقفه الذى لم يعد يحتمل . فكل ما يخطر له أن يفعله ، يبدو له خطأ . فهو اذا بقى مخطىء ، واذا سافر يخطىء ، وإذا خطب شوشو يخطىء ، وإذا سكت وتغافل يخطىء . وكان وهو يتمشى لاتبرح ذهنه صورة شوشو وعيناها العميقتان الساكنتان وشعرها الذهبى المتموج على جبينها . فهل ينقاد لنفسه أو يكبحها ؟ ولم يعجبه هذا التعبير المفكك فتساءل « كيف يكون الكبح وكيف يكون الانقياد ؟ أن المسألة ليست ألفاظا نلعب بها ولكنها عمل فما العمل ؟ »

وثنى رجليه الى السلم ، ولكنه لم يكد يبلغه حتى ارتد فقد ذكر شوشو وهى تعدو اليه منه وتكاد تقع فتلقى نفسها بين ذراعيه وتستريح ! فعصر قلبه الالم ولجت به الصبوة الى شوشو وهاله « القحط » الذى ينتظره فى أيامه المقبلة فرمى بنفسه على الحشائش ، ولم يكن وهو راقد يفكر فى شوشو وسوء حالها ، بل فى الدم الذى يغلى فى عروقه هو ، وفى النار المندلعة فى جسمه وفى رغبته الثائرة ، وفى حنينه الى قبلتها الى جسمها الرخص ... الى حبها الحار فى ظمئه اليها كما كانت وهى تطعمه من النافذة

... كما بدت وهي واقفة تنزع اوراق «الأراولة» وتعدها وتستنبئها حظها .. في صدرها على صدره ... وشفتيها على شفتيه والليل باسط رواقيه ، والنسيم يهمس مع القمر في اذان الشجر ، والضفادع تنقق ، والبوم يصعب من بعيد ، ووجهها هي تغمره ابتسامة الحب وضوء القمر . .

تعاقبت على ذهنه هذه الصور وتزاحمت ، وهو مستلق على الارض يكابد حمى الحنين ، ثم خطر له ان شوشو قد تخرج الى الحديقة فتراه واخلق بذلك أن يضاعف ألمها ! فنهض ومضى الى غرفته وتذكر ما كان من سلوك سميحة ، وزورتها له تحت جنح الظلام ، وما يشى به ذلك من القصد الى توريطه ، فتسور الدم الى رأسه وأيقن ان الرحيل لا مناص منه .

وصعد الى الشيخ على وكاشفه بعزمه ، وكان هذا أعرف بابرهيم وادرى بصلابته وعناده من أن يحاول أن يثنيه عن مراده وكفته نظرة واحدة الى وجه ابرهيم المربد أن يوقن أن سميحة واختها كاذبتان وان ائتمارهما به هو الذى يرجع اليه اعتزامه السفر

وقال الشيخ على يمازحه

« «انا أم نبا بنا أم جفانا ؟ »

مسيرا الى بيت للبحترى . فقال ابرهيم

« كلا . لم أكن اريد ان اعتاض منكم سواكم ولكنى مللت . لا احتمل هذا . كأنى فى سجن . لا أرى أحدا غير السجانين..

أعنى بنات خالتى وخدمهن حتى أنت شاء الحظ أن يقعدك عن مرافقتى الى حيث اشتاق ان أكون . أعنى فى الحقول . . مللت والسلام »

فنظر الشيخ على بخبث وقال .

« أهذا كل شيء ؟ »

فرفع ابرهيم رأسه وقال « وماسؤالك هذا ؟ »

قال « صدقت لا محل للسؤال فانى أعرف كل شيء . ولكنى أرجو أن لا تكون مغفلا . كلا لا : تشكرنى ... »

فقال ابرهيم بلهجة الجد الصارم « ان من واجبى أن أخبرك . ... »

فقاطعه الشيخ على بدوره « لا تفعل . فلن تزيدنى علما . أو تحسب أن ليس لى عين ترى ؟ »

« ولكن علمك قد يكون مشوها او غير مطابق للحقيقه »

فضحك الشيخ على ضحكة حافلة بالقرقعة ثم قال

« ارجو أن لاتصدع لى رأسى بالشروح والتفاسير . أبقها لى ان أمام . أو اكتبها باسلوبك الجزل وضعها فى ظرف واختمه بالشمع الاحمر وأعطنى اياه ولك على أن أمزقه قبل أن أقرأه . أو اذا كنت تحرص على آثارك الادبية ، أحفظه لك الى أن تكبر وتزيد اسباح لك فى كهولتك فرصة تضحك فيهامن حماقات شبابك »

فابتسم ابرهيم ولكنه قال بلهجة اليأس « لاأرى فى صلاحك أملا »

فقال الشيخ على « سألحق بك بعد غـد . فانا أيضا قد مللت البلدة »

ولم يكن هذا مايريد ابرهيم ولـكنه كتم مافى نفسه وقال للشيخ على « أولا تزال مصرا على خطف تلك المرأة ؟ »

فلم يكترث الشيخ على وقال

« قل لمحمود إنى سأدق له رأسه ، ولفرج البوابانى سأشنقه بيدى هذه ، ولام الخير .. ولـكنك تستطيع أن تنوب عنى فى انذار الخدم جميعاً ، اذا عدت فوجدت أن الاحراس لم تصلح أو أن واحدا منها لايدق بأعلى من جرس الـكنيسة . أما أنت فلا تخشى أن أجىء لك بسميحة وان كنت لاأستطيع أن أعدك بان أحضر معى شوشو »

فنهض ابراهيم كانما كان قد كواه بمسمار محمى وصاح به « قبحك الله »

— ٢ —

حلم ابرهيم وهو نائم فى بيت الشيخ على فى رمل الاسكندرية أنه قد انقلب بقوة الله القادر على كل شىء ، « حمة » مثلجة فى رجاجتها ، وأن محافظ الثغر شربه على كمية غير معقولة من كبار « الجنبرى » وانه — أى ابراهيم — احتج فى حلقـه ، أو وقف فيه ، ولـكنه أكرهه على الانحدار فى جوفه فلم يزل يجاهد أن يفلت — أعنى أن يرتد — حتى أصيب المحافظ بانتفاخ

دائم جعل له كرشا كروية أكسبته سمتا وأبهة ورشحته لعليا المناصب التى لايصلح لها النحاف العجاف ، وأنه — أى المحافظ — سر بذلك كثيراً فأقام — على سبيل التذكار لهذه الحادثة السعيدة — « سبيلا » يستطيع من شاء أن يرشف منه أعذب السم الزعاف بلا ثمن وفى كل ساعة من ساعات الليل أو النهار اذا شاء ذلك وطلبه بلسان « سريانى » فصيح

فقام من النوم مفزعا ويده على رأسه كأنما يبحث عن « سدادة » الزجاجة ، وكانت الدنيا ملفوفة فى شملة سميكة من الظلام تفيض على الليل سحراً ورهبة ، واندمج كل موجود فى ظله ، ولم يعد شىء بعيداً وآخر قريباً ، والبحر يهدر وكأنه يزحف وراء صوته ، والنسيم الوانى يهمس فى آذان الشجر

وحانت منه التفاتة الى حيث كتلة البناء — وكان هو فى جناح متصل بها ومرتفع عنها — فلمح شعاعا من النور باديا من خلال « الشمسية » فى غرفة المائدة ! فاستغرب ثم قال « لعل الخادمة جهزت لى طعاماً ثم قامت تنتظر هل أصبت منه » ولكن النور لم يطفىء فاشفق ابرهيم على الخادمة أن تحيى الليل كله فى انتظار من لايجىء ، وخطر له أن الواجب أن يصرفها لتنام ، فانحدر حافيا وقال لما بلغ الباب

« لماذا تنتظرين يا .. »

ولم يزد ، وان كان فمه قد ظل مفتوحاً ذلك أنه لم يبلغ

« يا » حتى كان مسدس مصوبا الى رأسه ، وكان الذى رفعه الى وجهه أشبه بالعمالقة منه بمن رأى ابرهيم من الناس ، وهوى ذراعاه الى جانبيه وتلخلخت ركبتاه وجحظت عيناه من المفاجأة ، وابتسم العملاق ، فابتسم ابرهيم ، لا سروراً ، بل لانه صار فيما يعلم آلة حاكية ، وقال

« سوف . كلمة واخد . تروخ بلاس »

فلم يفهم مراده ، وحار فى هذه « الكلمة الواخد » ماممساها هل هى مقصورة على الصراخ والصياح والاستنجاد ، أم تشمل الكلام العادى أيضا ، ولكنه آثر الحذر والاحتياط ، لان التفسير — ولا سيما اذا كان من جانب واحد هو الجانب الاعزل — غير مأمون المغبة ، فأطبق فمه ، وكان لا يزال مفتوحا ، وهز رأسه مرات اعلاناً للامتثال

فقال له « حس »

فود ابرهيم لو نحى عنه هذا الحديد البارد قليلا ، ولكنه أطاع وحمله رجلاه خطوات فى خط مستقيم حتى صدته المائدة ؛ وهو وراءه ، وأدار له وجهه وحده مستفهما ، وأشار بمسدسه الى كرسى ، فابتسم العملاق وسأله ، وأصبعه على فمه

« لسان مفيش ؟ »

فتنهد ابرهيم ، وعلم أنه يبيح الكلام أيضا ، وعادت الطمأنينة مع الحياة واللسان ، أما السرقة فلم ير له حيلة فى منعها

الان واذا لم يحدث ماليس فى الحسبان فما من شك فى أنه سيمضى بما يجمع

وقعد على الكرسى الذى أومأ اليه فى زاوية بعيدة عن الباب ، وانصرف هو الى عمله فى هدوء رائع ، وكان يجمع الاوانى الفضيه ويمحصها ويرتبها ويضعها فى حقيبة معه ، وتبين ابرهيم وهو ينظر اليه أن على كفيه قفازين .

ومضى عام فيما أحس ابرهيم وهو قاعد . واشتاق أن يدخن فقال « معك سيجارة ؟ »

فرفع العملاق حاجبيه كالمستغرب ثم ابتسم وقال

« آه بردون ياخبيبى »

ومضى الى « البوفيه » وعاد بسيجارة وأشعلها له فشكره ابرهيم وهو ذاهل فما رأى لجرأته مشبهـا ولا سمع بمثـل سكينته وتنظيم جهوده وقصرها على مايمشد دون أن يفسدها بتجاوزها الى ماسواها . وبدا له وهو جالس يتأمل وينفخ الدخان كأن السطو والسرقة ليس أسهل منهما شيء على الانسان الا أن يعد نفسه صاحب البيت الذى يدخله ، وأعرب للعملاق عن هذا الرأى ، وفى مأموله أن يجره الى الـكلام فيطول الوقت لعل شيئا يحدث أثناء ذلك يلجئه الى الهرب وترك ماجمع أو يؤدى الى القبض عليه ، وكان ذلك أملا بعيدا ورجاء محقق الخيبة ومادام قد استطاع أن يدخل على الرغم من الـكلاب الحارسة ـ

ترى كيف تحل ؟ ـ فأخلق به أن يخرج بلا صعوبة . ولكن المشفى على الغرق يتعلق بقشة

وادرك اللعين المدرب غرضه فقال وهو ماض فى عمله

« أنت مكار »

فأكد له ابرهيم انه ، كفنان ، معجب بفنه ودقته وحذقه فيه ، وأن السرقة حقيقة تبدو له سهلة قياساً على ما يرى ، فقال العملاق .

« سوف . انت على البر »

فقال ابرهيم « بل فى قاع الجب أو على كل حال حيث لا أحب ان أكون » فلم يلتفت العملاق إلى هذا ولم يجد باكثر من ابتسامة ثم قال

« أوحس هاجه ال . ال ... اسمو ايه ؟ مس يسمع ؟ »

فقال ابرهيم « الطمع »

قال مثنيا « برافو »

فقال ابرهيم « احسبك تفعل ما تفعل الآن على سبيل الاحسان وبدافع من الزهد وحب التقشف ؟ »

فقال العملاق شارحا « سوف فيه كتير راح فى داهية سان لازم كان .. مس يسمع »

فاعرب له ابرهيم عن اعجابه بهذه البلاغة وقال

« كنت اظن لبلاهتى أن اللص يلقى كل ما يجمع فى غرارة

ثم يذهب من حيث جاء ويفعل الباقى فى مخبئه . ولكنك علمتنى شيئا . وانى لاعجب الآن كيف فاتك أن تجىء بالادوات اللازمة لصهر المعادن أيضا ! »

فمط العملاق فمه مستخفا وقال « مس سغلى دى »

فهز ابرهيم رأسه وقال « آه ! أنت اخصائى فى السرقة فقط ؟ »

فقال العملاق « أنت فاهم دى كله يروح كاسورة ؟ »

فقال ابرهيم « لم أكن أعرف أنها لازمة لآنية بيتك فمعذرة »

فلم يرد العملاق وكان قد فرغ مما جاء له ، فأطبق غطاء الحقيبة وادار المفتاح فى قفلها ثم أومأ الى ابرهيم وقال « من فضلك »

فنهض وهو يقول

« هل اطلب لك عربة ؟ »

فابتسم العملاق وقال « مرسى ! انت كويس »

فقال ابرهيم « شهادة قيمة . الا تكتبها لى لأحتفظ بها ؟ »

فلم يلتفت الى هذا وقال « مس مس يلزم تخاف كده دوغرى »

فقال « معذرة يا خواجه . سأتدرب على لقائك »

فربط له يديه وراء ظهره ووضع له بين أسنانه بكرة خيط صغيرة وتناول قبعته وقال

« ليلتك سعيده يابيه »

ولم يستطع « البيه » أن يرد التحية بأحسن منها أو حتى بمثلها ، ولكنه استطاع ان يشيعه الى باب المسكن أو الدور

وعاد " البيه " يعدو كأحسن ما يستطيع موثق مكم ، الى غرفة الخادمة فوق السطح ، وانه ليركل بابها برجله واذا بنباح يوقظ الموتى .

وكان الذى حدث أن اللص لم يكد يدنو من باب السور الحديدى حتى كان الكلب الحارس على ظهره واسنانه مغرورة فى عنقه ، وكان كلبا ارمنتيا ضخما كالسبع ، لا يدرى أحد اين كان رابضا ، ولا ماذا ألهمه أن يظل ساكنا حتى يصير اللص أمامه وعلى مسافة كافية للوثب ، ولكنه على كل حال من فصيلة لا يحمد الغريب لقاءها فى الليل ، وقد ردت وثبته صاحبها آخر الامر بشر من حى حين — اى بقطعة ممزقة من لحمه وبالقيد فى يديه

وكان من الطبيعى أن تحضر الاسرة كلها الى الاسكندرية لا الشيخ على وحده

الفصل الخامس

(أين الطريق الى حيث يسكن النور)

فى الصباح أيضا . وابرهيم يمشى وحده فى حديقة الدار ويمد يده من حين الى حين — وهو يروح ويجيء — الى وردة يمسها ، أو فلة يثنيها اليه ليشمها دون أن يقطفها . ثم يعود الى المشى

وحده ؟ كلا بل معه . كيف تقول ؟ نفسه تحاوره وتداوره وتناوشه وتنوشه أيضا . وتقول له فيما تقول

« انك تحبها . ألست تحبها ؟ »

فيقول « أحبها ؟ ويحى ! لقد كان لى ثوب رجولية زين فأين الآن وأنى للحلاق الزين ؟ تجملى أين ؟ وا كرومتى ماذا صنع الله بها ؟ وردى النفس ، اذا جمحت ، على مكروهها ؟ أحبها ؟ وا أسفاه ! لقد صرت عارى الهوى ليس لى ما يستر القلب عن الناظرين وكأنما هذه الدنيا قواء فما أحس الناس فيها . لا حياء ولا عزة وما دامت الارض فى عينى خرابا مأموما فمن أستحيى ؟ وماذا يبعث فى النفس الشعور بالعزة ؟ »

ويطلق ضحكة مثقلة بالدموع المحبوسة فتقول النفس ملحة

« تحبها إذن ؟ »

« نعم »

« جسمها ؟ »

« يفتني روحها فيه»

« طبيعتها ؟ »

« نادرة . نادرة »

ويرسل آهة .

فتزداد نفسه عليه شدا ولا تترفق به وتقول

« إذن لا شك فى النتيجة ؟ »

فيقول « لا أدرى ! »

فتعيد عليه الكرة

« ألا تظن انه من المحتمل أن تظفر بزواجها ؟ »

فيهز كتفيه ويقول

« ربما ! ولكن كيف واللعينة أختها تكيد لنا وتعترض سبيلنا ؟ »

وتكف النفس هنيهة ثم تعود فتسأل :

« أليس كل حب الى ملال ؟ وكل حسن الى عفاء ؟ »

« نعم »

« وللقلب جمحة ، أليس كذلك ؟ »

« نعم »

« أليس أولى بك أن تجعل العقل لجاما ؟ »

فيسألها بدوره « كيف ؟ »

فلا تجيب ولا تسمح له أن يقاب هو السائل وتقول

« هل لك عمران ؟ »

« ماذا تعين ؟ »

« هل ضمنت عمرا جديدا غير هذا ؟ »

« كلا ! »

« أو هل تعرف ان لعمرك هذا من يرفوه اذا بلى وتمزق ؟ »

« أى فكرة ! »

« كم ساعة عشتها بعقلك ؟ »

فيعجب لسؤالها ويلتفت كأنما يخاطب شخصا محسوسا الى جانبه ويقول

« ياله من سؤال ! »

« ان حولك الارض والسموات تغرى العقل بالتفكير »

فيقول مستخفاً « نعم ؟ »

« كان حقك أن تصقل عقلك لا أن تصدئه ! »

« يعنى ما دا ؟ »

« يعنى انى أراك تطاب الحس لنفسه أليس كذلك ؟ طبيعة الفنان ؟ هيه ؟ »

« لا تسخرى بى من فضلك ! »

« لست أسخر . ولكنى أحسب الحسن يوجد فى غير الانسان أيضا . »

« نعم ولكنه فى الانسان أتم وأبهر وأوفى تعبيراً »

فتقول النفس « آه أحسبنى فهمت. لا بد لك أن تسند صدرك القريح الى شوكة الوردة أو تغنيها ؟ »

فثور بنفسه يامنها فلا تعبأ وتقول

« كنت أخلك أحق بأن تحاكى النسور لا القهارى ! »

« النسور ؟ »

« نعم ترفع الطرف مثلهـا فى سماء الفكر . ولـكنك عبد الحياة . عبدها الباكى الشـادى بغنائه الذى لا يعجب الاحرار والطلقاء وأحسب أنك معذور اذا بكيت إسارك وحاولت أن تتلهى فى سجنك. لا بأس. ارسل صوتك ليؤديه الصدى مقطعا !! نعم غن وتسل كما يصيح الصبى فى الظلام ليطرد عن نفسه المخاوف واحلم — على الرغم من الرق والأسر — بالخلود . وغالط نفسك وقل إن الجمال وحى، وان الحب لا أدرى ماذا أيضاً ؟ ولـكن الا تسمح لى أن أسألك ما وحى الأزاهير الذى يذكى أنفاسها؟ أو كيف تغدو الاشجار رفافة الغصن فيحاء الثمار ؟ أو أين وحى الينبوع فاضت به الأصلاد ؟ لا بأس . غن يا عبد الايام وألعوبة الليالى ! »

فلوح بذراعيه وقد ضجر وقال « أوه ! العقل العقل ! ليت إذن المقادر حرمتنا هـذه النعمة التى لم نغن بها ! ماذا عليها لو أنها كانت تركتنا نرعى الكلأ ؟ ماذا كانت تخسر الدنيا لو كانت الحياة حسا « فـكرة » السماء وسمرت لحظنا الى الأرض ؟ كنا

نرعى ملء البطون نباتا ونتنشق ملء الصدور هواء ولا نعد السنين، فلا سنة جاءت ولا أخرى مضت ونحيا، ونحن نجهل أننا أموات . ثم نموت وما كنا أحياء ، ونلبس الحياة فى كل حال راضين ناعمين جاهلين ابتداءها وانتهاءها ، ولكن المقادير افاضت علينا نعمة الحس فهيهات ينفع العقل . نحن أحيى الاحياء فلو أحسسنا الحياة بالاعصاب العارية لما كان ذلك يكفى . والمرء ظلم الله ويجحد فضله اذا خزن مامنحه الله وخبأ ماوهبه . لا لا . انك تريدين نيمة ليس فيها حلم وتلى انه يا نفس. ما الفرق، آخر الأمر، بين من يقول ليس ثم سوى الأرض ، ومن يقول لن تنالوا السماء ؟ ؟ أو بعبارة أخرى مافرق مابين زينون وأبيقور ؟ لست أعنى انى احدهما ولكن ... »

فقاطعته النفس وقالت « على ذكر هذين وما داما سيين فاسمع مشورتى . »

وكانت لفتة النفس مفاجئة ولكنه تعود منها هذه المباغتات أو الوثبات فسألها بابتسام

« ماذا ؟ »

قالت « شوشو لا حاجة بها الى صدحاتك »

فقال « ماذا تقولين ؟ »

قالت « اقول انه ليس ثم ما يضطرها أن تعانى الاصغاء الى « سحر » غنائك . لاتعجل أن دهرها لم يرعها ولم يشبع أنفاسها

الا استواء . ولم تعرف جفونها ألم الدمع الذى يأبى أن ينحدر فليس جميلا منك ان تثقل صدحاتك بالدمع لعين لم تذق البكاء . وأن تحملها عبء عمرك وهى الغريرة الرقيقة التى تشكو الانداء ، وان تزعج الحان حسنها بكلام تغصه بالضوضاء . بل ليس من العدل أن تحيط جمالها بانقاض حياتك . انك زلزال يا صاحبى . فاحذر ... »

فطأطأ رأسه وقد راعته هــذه الصورة ومضت النفس فى كلامها فقالت :

« فانفض يدك من هــذا الحب . اسرع عد الى مارى . التقطها . ان قلبها « كالاستراحة فى اقليم الحب »

فابتسم وقال « بالضبط . اسـتراحة خالية مجمولة للنزهة . ولـكنى تعبت ومللت أن أظل احمل حقيبتى الملأى بمؤونتى . سئمت أكل الاطعمة المحفوظة واللحوم الباردة. ولذلك سأمضى فى رحلتى مع شوشو »

فسألته نفسه : « هل قدرت المخاطر ؟ »

فقال بحــدة « هل كان أنطونيو يجمع ويطرح ويعنى بهذه العمليات الحسابية وهو يتلـكأ بجانب كليوباطره ؟ »

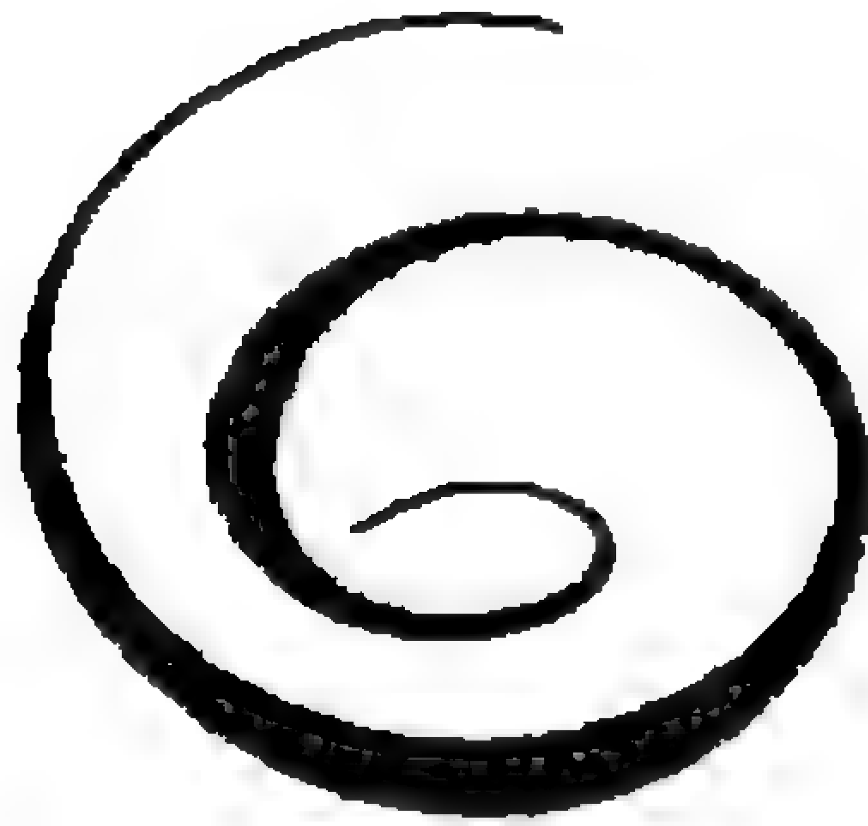
فعادت تسأله · « ولـكن المسئولية »

فقال « انى أعلم أن المسألة خطيرة .ولـكن الرجوع لاسبيل اليه الآن . ثم انى لا أريد أن أتراجع »

فسألته « ومتى تخطبها ؟ »

فقال « قريباً . فى أول فرصة . »

« وإذا رفضوا ؟ » « آه . إذن ادفن سرى فى قلبى ولا أرثيه حتى بقصيدة » .



الفصل السادس

« مشرفة مثل الصباح ، جميلة كالقمر ، طاهرة »
« كالشمس ، مرهبة كجيش بألوية »

غرفة شوشو — وابرهيم واقف على عتبتها متردداً ، ومن حقه أن يتردد ، فان غرفة الفتاة حرم مقدس ، فيها ترسل نفسها على سجيتها ، وتدع أحلامها الجديدة تنسج لها آمالها وتطرز حواشيها وتوشيها بمختلف الصور التى تتعاقب على ذهنها فى ربيع العمر ، ولكنه لم يلبث ان ملك نفسه وضبط أعصابها ودخل ، وكان للغرفة نافذتان عليهما ستاران أو شباكان من أرق نسج ، وعلى الحائط مما يقابل السرير صورة أبيها مكبرة ، وعلى السرير المسوى حبس سماوى اللون مطروح على ظهره ، أما الكلة فمجموعة ومربوطة بشريط بنفسجى ، والى جانب السرير سهوة أعوادها متعارض بعضها على بعض ، وفوقها طائفة من الكتب الفرنسية تناولها ابرهيم واحداً وا ... ابها ، وهو يعجب فقد ألفى دى موباسان الى جانب برنارد شو ، والفونس دوديه محاورا لاسبينوزا ، وفرويد وراء تولستوى ، و « له فيه » و « لابفان دى مولتيه » تحت آخر كتاب له هو . ولم تقع عينه على كتاب مما يوضع للأطفال ، أو مما يزيد هيستريا البنات ، ولفت عينه الى السرير وجعل يفكر فى شوشو وهى راقدة عليه ومعانقة مخلوقات خيالها ، أو مرسلة لحظها الى المستقبل تستشفه

وتستنبئه عن حبها وتتمثل سكرة القلب بخمر التسليم ، وتصور لنفسها اغماءها من فرط السكر وحلاوة التخدير والتفتر فى جسمها الطاهر ، ثم تمرد ضميرها على هذه الصور وعراكه معها ونهوضه لخنق خيالاتها — ثم استدار ووقف ينظر الى أدوات الزينة فرأى مكحلة فارغة سدادتها مرودها ، وحلية دقيقة براقة على صفة الوردة مما يغرز بين الشعر على جانب الرأس ، ومساحيق بيضاء فى أوعيتها ، وميلا أحمر لصبغ الشفاه لم يستعمل ، ومشطين وكوما من الأشرطة على كل لون وبقايا شعر وزجاجة كولونيا

ودخلت عليه شوشو وهو ذاهل أمام هذا الخليط فقالت

« ياقريبى المسكين أهذا أنت ؟ »

فالتفت اليها فراعه شحوبها وتقدم اليها باسطا يديه فتناولتهما وقالت وهى تجره الى السرير وتقف مستندة بظهرها اليه :

« أتعرف أنى كنت أقرأ كتابا فى تربية الارادة ؟ »

فابتسم ، ولم يسعه على الرغم من كل حبه لشوشو الا أن يستخف بها وقال بلهجة مبطنة بالسخر : « هل قررت أن تشتغلى بالتنويم المغناطيسى ؟ »

فقالت « لا تسخر . فان تربية الارادة والتغلب على العواطف ، شىء يستحق الاحترام »

فقال « نعم ... خنق القلب واعماء العقل . أليس كذلك »

قالت « نعم ماراأيك ؟ أعنى رأيك الجدى . بصراحة »

فقال « بديع جدا وضرورى أيضا . لرجال السياسة »

فسألته « وللمرأة ؟ »

فقال « جحود . كفر صريح . تمرد على الطبيعة لاطائل تحته أيضا ... امرأة بدون قلب ؟؟ ماذا تكون ؟ مخلوقا وحشياً . هل قرأت ماقال « أوفيد » فى « فن الحب » ؟ أعنى قوله « أن الفضيلة أنثى . هى كذلك بثيابها وبلفظها » وأنا أضيف اليه وأزيد عليه أن الحب لقلب المرأة كالأرج للزهرة »

فقعدت على السرير ودلت ساقيها وقالت وهى تهزهما

« انك تعرف جيدا أن قلب المرأة كصندوق « بندورا » اذا فتحته انطلقت منه كل الآلام والأوجاع والمصائب »

فعجب لشوشو ماذا تراها تعنى بهذا التشبيه ، ولكنه كتم خواطره وقال

« يجب أن تتعلم الواحدة منكن كيف تفتحه بحذر »

ففتحت عينيها العميقتين ، فتحتهما جدا وقالت

« ماذا تعنى بالحذر ، أتريد أن تقول أن على الفتاة منا أن يكون فى مقدورها أن تقرأ الغيب وأن تنظر فى صدور الرجال ماذا قلوبهم لوح مكتوب تطالعه . هل تدعى أنت أن لك هذه القدرة على النظر فى هذا الكهف العميق المظلم ؟ »

فزادت دهشته ولم يستطع أن يهتدى الى الباعث لها على هذا الكلام ولكنه سايرها وقال

« اسمعى ياشوشو. لقد أهاب بنا نيتشه أن نحيا حياة خطرة ولكنى أقول أنه ينبغى أن نحيا حياة أيضاً مؤلمة. ان الألم لاسخيف ولا بشع أنظرى هذه الشمس التى تنحدر للمغيب . ان الشمس بقعها . والشمس على الرغم من بقعها هى حياة الارض . هى وحدها حياتها . والسعادة أيضا لها بقعها ... ولك أن تسميها آلامها ولكن هذه الآلام هى التى تجعلنا نقدر السعادة التى نفوز بها . والحياة بالقلب هي الحياة التامة . أما من يبلد قلبه ، من يخنقه، فهذا انما يحيا حياة هندسية فى ناحية واحدة. وأحسبه مهما حاول لن يستطيع أن يقنع نفسه بعقله وحده، وماذا يصير الناس فى عالم تسيطر فيه العقول، أتم سيطرة على القلوب ؟ ينقلب الرجال « نظريات » ذات لحى أو شوارب والنساء ملاحق لها والحب لو غارتما للرغبات ! »

فقالت له « ابراهيم ان فصاحتك لاتقنعنى اليوم . انى أنا فتاة دون العشرين ولكنى بكيت انهارا وتألمت .. بكيت ليالى بأسرها على أمالى الميتة ... »

فأخذ كفها بين يديه وقال بأرق لهجة

« شوشو . ان دموعك التى سكبتها فى ظلام الليل هى التى تجعل المستقبل خصبا .

آه . ياشوشو . لاتذبلى زهرة نفسك ... ان الحياة تدخر لك ساعات من أسعد الاوقات وأحلاها وأنداها »

فطأطأت رأسها وقالت « وتدخر لى أيضا دموعا مرة ... »

فصاح بها « شوشو ! »

فقالت « اقتناعك يعجبنى . فهل لم تتألم قط ؟! »

فقال « ياله من سؤال ! كانى لاأتألم الآن ! أولى أن تسألى سمك البحر هل ذاق طعم الماء الملح ؟ نعم . تألمت ياشوشو . بسبب قلبي أيضا ... القلب الذى تريدين تربيته ! وسأتألم مرة أخرى . ولا يزعجنى على بهذا بل أنا راض به ومستعدله »

وذهب الى النافذة ونحى عنها الستار ونظر من زجاجها ثم ناداها لجأة

« شوشو ! »

فأسرعت الى جانبه ووضعت يدها على كتفه فقال دون أن ينظر اليها

« لقد عزمت أن أخطبك اليوم . وهذا سرحضورى اليك »

فتراجعت خطوة وقالت ويدها على صدرها المضطرب

« تخطبنى ؟ اليوم ؟ »

قال « نعم . أيسوءك هذا ؟ »

فرمته بنظرة عتب وقالت

« أرجو ألا تفعل . ليس الآن تمهل انك لاتعرف اطمعى فى هذا . لاتقض على بهذه السرعة . انتظر حتى تكون

أختى سوسو . فى ... فى ... الريف — بعيدة عن أختى نجيه .
أرجو ... الخ ...»

وكان ينبغى أن تحلل عزمه لهجتها والحاحها وتوسلها والفزع الذى فى عينيها، ولكنه غاظه وأسخطه وأثار تمرده واستفز عناده أن يكون لسميحة مثل هذا السلطان، وجرح كبرياءه أن تكون لمثل هذه الفتاة التى يمقتها قدرة على اعتراضه وأخذ الطريق عليه، والحيلولة بينه وبين أختها. ولم يبد له — فضلا عن ذلك — أن للانتظار والتمهل أى مسوغ أو فائدة. فسميحة ستقاوم على كل حال. فخير أن تنشب المعركة الآن فليس من وراء أرجائها أى أمل فى اتقائها. ومادام أن الحرب لامحالة دائرة على كل حال، فلتدر والمعسكران متقابلان ... وهو بين أنصاره. . أنصاره؟ أين هم؟ ليس له من نصير غير الشيخ على! ولكن أليس فيه الكفاية؟ انه جيش وحده؟ وماذا تستطيع أمامه مائة الف سميحة ونجية؟؟

والتفت إلى شوشو وقال بلهجه المصمم

« لقد سمعت منك أنك تقرأين كتابا فى تربية الارادة! بل اليوم أخطبك ياشوشو!.

الفصل السابع

(لذلك اسمعي هذا أيتها البائسة والسكرى وليس بالخمر)

قالت شوشو لابراهيم

« هذا أنا ... قد جئت ... »

فمد اليها يده ، ولكنها لم تصافحه ، فقال

« أهو كبر ما بنا أم جفوة ؟ »

« لا كبر ولا جفوة ... وإنما أنا مغيظة »

« منى ؟ .. »

« كلا ! »

« ممن إذن ؟ »

« لماذا تسأل ؟ ... من نفسى ! »

«مسكينة يافتاتى!وماذا صنعت مما يورث كل هذا الاسف؟»

« لست آسفة على شيء ... هذا ما يغضبنى . ولو وحدت للاسف مساً لكبرت فى عين نفسى »

وكانت الليلة مظلمة والرياح كالمجنونة ، ولا يكاد أحدهما يحس من صاحبه — وهما مستندان الى سور السطح — غير صوته ، فقال

« أنت فى عينى كبيرة وجليلة — دائماً »

فلان ما كان متجمدا من نظراتها ، وسلس الصعب من جانبها ، ورقت حاشيتها ، وانسجم صوتها ، وخدعها تكلفه البشر

ودنت منه ووضعت يمناها على كتفه وأقبلت عليه تسائله أصحيح ما يزعم ؟ أحق انه يكبرها وسيظل يكبرها على الرغم مما فعلت ومما تفعل ؟ انها لا تسأله عن حبه لها فقد استوى على الرغم من حلاوة الثقة به، أن يحبها ولا يحبها، ولكنها تسأله هل يحترمها ؟ فهبط قلبه وقال وهو يتناول يدها فى يده

« وماذا فعلت يافتاتى أو ماذا تفعلين الآن أكثر من أنك قد جئت تؤنسين وحشتى تحت عيون هذه النجوم ؟ »

فرفعت وجهها اليه ورمته بعين مفتوحة كمغمضة وقالت

« أو هذا كل شيء ؟ »

« كل شيء الآن ... الآن والى الآن »

ولبثا هنيهة صامتين تحت هذه السماء المهولة المتلاحمة النجوم ثم قالت :

« وماذا كنت تريد أن تقول لى مما أجهل ؟ »

فاربد وجهه ولكنها لم تره فى ظلمة الليل ولم تدر ماذا عانى حتى عاد محياه يرف لها بينما كانت هى تجذبه من كتفه وتلح عليه بالسؤال .

« كنت أريد أن أقول أن هذا لذيذ » — بابتسامة متكلفة

« ما هو ؟ »

« كون يدك فى يدى »

فانتزعتها بحركة لدنية وبلا تعمد لذلك وقالت

« لقد أنسيت أنها فى يدك »

« إنسيها مرة أخرى »

« لا أستطيع أن ... »

« ماذا ؟ »

« أن أنسى ... »

« تناسيها إذن »

« كلا . »

« هل من سبب ؟ »

« لا . » ممطوطة طويلة « سوى أن التناسى ليس كالنسيان » وتناول يدها وسكتا مرة أخرى وتكلم بينهما الهوى .

* * *

وطال سكوتهما لان الليل عظم وقعه فى صدر ابرهيم ، وكان مما يرفه عن أعصابه أن يرسل اللحظ يريد ليخرق به أحشاء الظلماء فتنشف له عن نجوم السماء ويرتد اللحظ عما دونها كليلا حسيراً ، وأروع ما تكون السماء عنده حين تنتقل العين فى أجوازها المرعبة فلا تقطع منها سوى بيد هائلة عن بيد أشد هولا . وكذلك كانا واقفين فى ليلتهما تلك : هى مفتونة بجمالها ، وهو يكاد يسحقه الرعب ويفنيه الشعور بضآلته إذ يجيل عينه فى فيافى السماء اللا نهائية ثم قال لها كأنما أراد أن ينقل اليها إحساسه بهول السماء وضآلة الانسان وكل ما يتعلق به ، أو كأنما كان يعنيه

أن ينغص عليها متعتها بهذا المنظر .

« ثقى أن هذه السماء ليست مجهولة للانسان مهما تكن علة وجودها . انه لا شيء فى الارض أو فى السماء مجهول لهذا المخلوق الذى يحسبه الفارغون مركز الدائرة ومحور الوجود ! بل ليس أقدر من هذه السماء على أشعار الانسان ضآلته أولا شيئيته إذا شئت »

فادارت اليه وجهها وقد سحرتها نبرة صوته وراعها ما فى لهجته من المرارة وقالت كانما تريد أن تصرفه عن هذا الاسلوب من التفكير :

« ماذا يوجد بين هذه النجوم ؟ »

فضحك — ضحكة عصبية — وقال « يوجد ؟ يوجد — إن صح التعبير بلفظ الوجود — صحراوات فضاء مظلمة تركها من يعلم السر ، بلا شموس ، وتوجد أقيانوسات من الفراغ لا آخر لها يجمد الفكر كلما حاول أن يتصورها — هذا ما يوجد ! »

وضحك مرة أخرى ولصقت هى به كالخائفة ، وهو عنها فى شغل ، يحدق فى السماء وقد شعر فجأة — على كل حبه لهـا — كانما بينه وبينها بعد ما بين الارض والمشترى . ومضى يقول

« وهذه السماء التى يسحق النفس جلالها المرعب ، ويهول الخاطر أن يقذف به فى أجوازها اللانهائية ... ليس جمالها الذى يسحرك بالخالد ولا الباقى ! ها ... حتى هذه مرجوع وهاجها

رماد ! « وجذبها من كتفها » أنظرى هذا النجم الذى يكاد يخبو وميضه بين اخوته نجوم الدب الاكبر ! لقدكان منذ بضعة قرون يخفق مثلها لمانانا ! فليس يخلو كل هذا الجلال من دواعى الرثاء! وتصورى هذه النجوم كلها ـ كلها ـ قد خمدت ؟ تصورى عقلك يتلمس طريقه فى سماء مظلمة خبا فيها كل ما كان يضيء ! تصورى عقلك يصطدم فى ظلمة السكون بقطعة كابية من هذه الكواكب ! نحى عينك ! غضى بصرك عن السماء إذا أردت أن تستبقى بشاشة نفسك »

ففزعت وأقبلت عليه وأسندت رأسها الصغير الى كتفه وأراحت خدها على جانب صدره وتعلقت يسراها بكتفه الاخرى فافاق ، ومسح لها شعرها حتى زايلها الخوف وان كان لم يزايله هو الاكتئاب . ولم يفارقه الشعور بما بينهما الآن من البعد ، على قربهما بل تلاصقهما ، وآه لو أن كل ما بينهما فرسخ أو فراسخ ! إذن لامكن أن يبتسم وخطر له فى هذه اللحظة أن مما يعزيه لو أن هذا مما يعزى . اننا ، سعدنا أو شقينا ، سنذهب كما ذهب من كانوا قبلنا ، وان الدنيا ستومض فيها عيون غير عيوننا ، وتخفق فيها قلوب أخرى ، وترهق عقول جديدة ، وانها ستشهد أشجاء طريفة تندب ، ومسرات ومباهج حديثة تطلب ويستعز بها على حين نعود نحن ، كما سيعود كل شيء ، قبضة من تراب

وقالت شوشو « لن أفعل هذا مرة أخرى ؟ »

« لن تفعلى ماذا يافتاتى ؟ »

« القاك هكذا ! انك مخيف . هى الاولى والآخرة »

فابتسم ابراهيم ابتسامة فيها من الحنان والعطف عليها وعلى نفسه أكثر مما فيها من صبابة الحب وقال وهو يتنهد

« لاأدرى أى سحر ضربته على حتى صرت ، كلما عزمت أن أروض نفسى على مراجعة الصبر فيك ، لاتكاد عينى تأخذك حتى يتحلل العزم ! فى كل يوم أعالج أن أرد نفسى على مكروهها ثم ماهو الا أن أراك ، أو تخطر فى القلب ذكراك ، حتى أنسى كل شىء سواك ، ولا يبقى لى منى الاك . »

فابتسمت وسألته وقد سرها أن ينصرف عن العتاب اليها

« وماذا تريد أن تصنع بى ! »

«ماذا أريد ؟؟ أن أحملك معى وأخفيك حتى عن عيون أهلك. هذا ماأريد . ان رأسى ليدور حين أرى واحدا من الخلق ينظر اليك . ولكن لك قدرة على المباعدة والمجافاة حين تشائين . وفى هذا عزاء لى ، وانى ليخيل الى أحيانا أن تناسخ الارواح حق وانك أنت برونهيلده بعينها يحيطبها سور النار الذى حولها »

« ليتنى كنتها . ليت حول كل فتاة مثل هذا السور من النار ، تحمى به قلبها وتمتحن من ينشده . »

« بحسبك غرائزك النسوية سورا من النار »

« ولكن ألم تعرف — ألم أقل لك — ان ماتبغى عسير

لايقع فى الامكان ، فما جدوى هذا الذى نحن فيه ؟ »

« اعرف ؟ من أين لى علم هذا ؟ كل ماأعلمه أن أهلك حمقى وأنهم يضحون بك فى سبيل أختك ... لاتضعى يدك على فمى ! دعينى أتكلم ! انهم يحولون دوننا تقديما لها عليك ، وقد علموا أنك لن لاتحيد عن ذلك اعن رضى منهم أو مجمولين على مكروههم »

وفى هـذه اللحظة دفعتها الريح الى صدرة فأسكره قربها ، وأخذ منه شذا شعرها ، فضحك ضحكة عصبية ، ورفع وجهها اليه ، وأهوى على فمها يقبله فى بساطة كانما كان هـذا حقاً له ، وهى تجاهد وتعالج أن تفلت من عناقه ويأبى هو أن يدعها

« إنك ... »

وعضت شفتها وردت اللفظ الذى همت به

« أنا أى شىء ؟ قوليها . إقذف بها فى وجهى كما قذفوا »

« وحش . فظيع . هذا أنت . دعنى . »

غير أنه لم يدعها ، بل ضمها وهو يضحك فى رقة وجذل وسكر حتى همست فى اذنه

« لم أكن أعنى ما قلت كما تعلم »

فقال « لم تعنه أبداً بالطبع »

وقبلها ثانية .

وقالت وقد تخلصت من عناقه

« كيف تعيدها وقد وعدت ألا تفعل ؟ »

« انا ؟ متى وعدت ؟ »

« كيف تسأل يا ... »

« ياوحش . قوليها . »

« ولـكن أليس لك ضمير ؟ »

« ضمير ؟ يا له من سؤال . بالطبع لى ضمير . »

« لا أراك تحفل به الليلة »

« أنا فى شغل عنه . قبلينى . »

« أى فكرة . ماذا أصابك الليلة ؟ »

« إفعلى »

« مستحيل »

« من فضلك »

« مستحيل . قلت مستحيل »

« إذن تعالى أقبلك »

« ولا هذا . »

« ولم لا ؟ ألا يسرك أن تكونى محبوبة ؟ »

والتف حول خصرها ذراعه ، ووجدت شفتاه السبيل الى شفتيها ، فهل هذا معنى أن تكون محبوبة ؟ وهل هى له كما جمجمته يقول بلهجة اليقين على الرغم من رفض أختها ؟ أنها على كل حال لم تعد تحس أن لها فى نفسها كثيراً أو قليلا ، فياليت من يدريها ماذا أصابها ففترها وأفقدها الارادة والقدرة على ضبط

نفسها ؟ وعلى أنها لم تعد تكترث لذلك أو تفكر فيه فقد كان الدم يتدفق كالمجنون فى عروقها .

« امصغ أنت ؟ »

« نعم » بصوت تخفته عربدة الشفتين فى نحرها

« إنى أعلم عظم حبك لى وإلا ما فعلت الليلة ما فعلت على الرغم من الحيلولة بيننا . ولكن أى فتاة تستطيع أن تفتنك عن نفسك ساعة . وما أحب أن يكون هذا أثرى عندك ولا أن يسهل تلهيك عنى وتملك بالدنيا ، ولقد أردت أن أهبك ما تذكرنى به — مايطيل إدكارك لى — ألا تفهم الآن لماذا تركتك تقبلنى هكذا ؟ إنه الزهو والغرور والانانية ... »

« بل قولى إنه الحب »

« هو هذا وذاك بلا شك ، ولكنى أردت أن تذكرنى ... »

« أو تحسبين أن نفسى ستطيب عنك ؟ »

« أخشى »

« لماذا ؟ »

« كل امرئ ينسى القبلة بعد أن تبترد شفتاه »

« من علمك هذا يا ... »

والتقت شفاههما فى قبلة طويلة ، ثم تناولت خديه بين راحتيها وقالت

« دعنى أذهب الآن »

ولكنه ضمها وهو يقول « ادعك ؟ كلا ! انى أخشى أن تتسرب فى الهواء إذا تركتك »

« كلا لا تخف »

وعاطفته التقبيل وخنقت صوتها العبرات وهى تلح عليه أن أن يدعها فسألها :

« أواثقة انت انك تريدين أن تمضى ؟ »

« كلا ! ولكنى واثقة انه « يجب » أن أذهب »

تخلاها فتراجعت قليلا ثم أصلحت ثيابها وشعرها والتفتت اليه وهى تقول

« لا يشق عليك ما تقول أختى ... وأيقن انى ... ولكن ليتنى أكون أنا على يقين من وفائك ! »

ومضت أخف من الفراشة .

وسافر هو فى الصباح الى الاقصر .



الفصل الثامن

(من هو جاهل فليمل الى هنا)

أدار الدكتور محمود ظهره الى المركز حيث عيادته وقصد الى الاسكندرية

وكان عمله يضطره أن يجعل زيارته غبا لبيت الشيخ على فى القرية ، ولم يكن يعنيه من بيت قريبه إلا شوشو على الحقيقة ، وأمره معها عجيب ، فهو حين كان يراها لم يكن يحس أن لوجودها أثراً عميقاً فى نفسه أو أن طلوع وجهها فى مدار حياته قد أضاف الى هذه الحياة شيئاً ، ولكنه بعد أن رحلت مع بقية الاسرة الى الاسكندرية وجد نفسه كثير الشرود وأدرك أن ما كان سلوة فيما يعتقد لا أكثر ولا أقل قد صار حاجة ملحة وبعبارة أخرى مألوفة ، أنه يحبها .

وهكذا أحب شوشو اثنان : واحد بمعاشرتها وتوالى النظر اليها والآخر بالبعد عنها والانقطاع عن رؤيتها

أما كيف أحبها الدكتور ومتى كان ذلك فهذا ما لم يستطع أن يهتدى اليه ويحل لغزه ، والمحقق عنده على كل حال ، انه لما تركها آخر مرة — قبل أن تغادر القرية — لم يشعر بذلك الاسف والاكتئاب المعهودين ساعة الفراق . فهل بدأ يحبها يوم سمعها تغنى ورآها معتمدة على حاجز السلم؟ لقد أعجب بها

حينئذ وتعلقت صورتها بذهنه وألحت على خاطره ولكنه يذكر مع ذلك انه حدها « جافة » . أم ترى أحبها لما اكرهته بعد ذلك بقليل عنى مبارحة المنزل والعودة ، على الرغم من المطر والأوحال ، الى المركز ؟؟ لقد راقه حديثها قبل ذلك ولكن خشها أفزعه ومكيدتها أسخطته . أم هو اكتئابها وتفترها وما عراها من الذبول بعد رجوع الشيخ على الى القرية ؟ لقد وقع في نفسه ذلك وأدركه عليها عطف عظيم حين رآها لا تكاد تتكلم أو تضحك ، ولا تميل الى ترك غرفتها ايثاراً للوحدة.. ترى لماذا ؟ وقد كانت تصده عنها في ملل وضعف فاذا كان يكربها ؟ وكيف حالها يا ترى في الاسكندرية ؟

والواقع أن حب الدكتور محمود لشوشو كان شاهداً على أن هذه العاطفة ليس من الضرورى أن تكون نتيجة لتلاق العيون وتلامس الأكف ، ذلك أن قلبه لم يصب اليها إلا بعد أن نأى عنها واستحالت فى ذهنه خيالا وممنى ، فأدرك أنه يحب روحها التى لازمته فى رقاده ويقظته واستبدت به حتى صار يرتجف إشفاقاً من العواقب التى قد تترتب على ادخال هذا العنصر الجديد فى حياته الهادئة المنظمة ، فاشتد قلقه واضطرابه ثم صار يشر فكره ويتملق بصورتها وراح يجد لذة فى التفكير فيها

وكان يوماً فى القرية يعود مريضاً فلم يطق أن شوشو ليست فيها فصمم على الذهاب فى هذا اليوم الى الاسكندرية واعتدل فى

مقعده فى المركبة أو « الفيتون » على الأصح ورفع السوط ولوح به فوق رأس الجواد الأصيل فانطلق يخطف ، وسره عزمه الجديد ، وأنعشته المناظر على الجانبين وراح يتصور نفسه بطلا غازياً سيدخل الاسكندرية فاتحاً — يومىء بأصبع فيهرع اليه الخلق ويحرك شفتيه فينطلق مائة رجل فى خدمته ، ويبتسم فتشرق الوجوه وينعم الناس ببشره و . . .

وهنا صادف الجواد مصعداً وصار السير بطيئاً فتساءل من أين له هذه الثقة بالنجاح أولا وبالسعادة بعد ذلك ؟؟ وفكر فى النجاح أولا فما هى فرصته ؟ ؟ وقال لنفسه « لا أدرى . . من أين لى العلم بما يبطنه هؤلاء النسوة ؟ أنهن جميعاً يلاطفننى الى آخر ذلك ، ولكن هل هذا من المرأة له قيمة أو دلاله خاصة ؟ » وجره ذلك الى التفكير فى السعادة فمضى يقول « لست أذكر شيئاً معيناً قالتـه شوشو يبعث على الأمل . نعم تجرى أحياناً لاستقباله وتظهر السرور بوجوده ، وهذا كل شىء وأحسبها تجاملنى لأنى قريب الشيخ على . ثم أنى طبيب والمستقبل أمامى حسن ، ومكاسبى الحالية ليست بالقليلة . فهل يتقدم لها من هو خير منى ؟؟ »

وانتهى الصعود وبدأ الهبوط وعاد الجواد يخب ومضى هو فى مناجاته لنفسه « صحيح أنها لم تخصنى بشىء يروق ويعجب ولم تبد لى إيثاراً ولـكن ما دلاله هذا ؟؟ وماذا أنتظر غير هذا

الاحتشام من فتاة حسنة التربية ؟ واذا كانت قد صدتني عن مغازلتها أفليس هذا أولى بأن يرفعها في عيني ؟ أ كنت أحترمها أو أفكر في الزواج بها لو أنها أسلمت لي قيادها ومنحتني زمامها ؟ كلا ! وما على الآن إلا أن أتقدم لأفوز . أمد يدي لأقطف الزهرة .. ومما يزيد سروري انها فيما أعلم لم تحبب أحداً قط. صحيح ان علاقتها بابراهيم وثيقة ولكن هذا ابن خالتها والأسرة كلها تكبره وتحبه ، ثم انه ضيف ولن يطول مقامه على كل حال . وهو بعد رجل جاد حكيم فوى فمخالطته لشوشو تنفعها ولا تضرها ، تؤتيها الاتزان الذي ينقصها وفيما عدا ذلك لم تقع عين شوشو على أجنبي ولم تخالط غريباً فهذه مزية ، فليس أبغض الى من أن أتصور نفسي أحب امرأة جربت هذه العاطفة من قبل . نعم فان من المستحيل أن يطمئن المرء الى زوجة كانت لها برجل آخر علاقة حب . »

وابتسم وهو يتصور شوشو خالية القلب مستعدة أن تثني عنان قلبها اليه

وكان الجواد قد انتظمت خطواته وخفت سرعته ، فهبط أمل الدكتور تبعاً لذلك فقد خطر له أن صبيحة قد تكون عقبة في طريقه وطريق شوشو . نعم ان الشيخ على رجل واسع الذهن ضب القلب ولكن الأمر فيما يتعلق بشوشو ليس اليه بل الى زوجته ، وهي سيدة مؤدبة ولكنها لا تفهم شيئاً ، ثم انها

عنيدة جداً ، فهل تقبل أن يتخطى الدكتور سميحة ؟؟ هذه هى المسألة . لماذا لم يخطب أحد سميحة هذه ؟؟ انها ليست أقل جمالا من أختها ، وان كانت ... أوه ! ما لى انا ومالها ؟ لتكن ما شاءت فليس لى بها شأن . ولـكن هذا لايحل العقدة . ولست أرى أن أكلم الشيخ على فى ذلك فقد يسخر منى .. فمن أستشير ؟؟ ليس أمامى سوى ابراهيم . هو الرجل الذى له من الاحترام والتوقير ما يجعله خير معين لى فى هذه الورطة . ولن أعدم لحظة أخلو فيها به فى الاسكندرية

ولما صار فى الاسكندرية قادته رجلاه الى دكان صائغ فانتقى منه قرطين من الذهب تتدلى منهما حبات من اللؤلؤ قال لنفسه أهديهما اليها ، واتخذ مجلسه فى قهوة وأخرج العلبة وجعل يقلب القرطين معجبا بهما مستغربا من نفسه هذه الجرأة ،... ا رأة؟؟ نعم . وهل يجوز له أن يتقدم بمثل هذه الهدية اليها وليس بينهما مايسمح بالتهادى ؟ واضطرب وأضاع نصف ساعة فى التفـكير فى هذا ، واستسخف نفسه جدا لان هذا الاعتراض لم يرد على خاطره قبل أن يشترى الهدية . فقد أيقن أن ماهم به ليس الا عملا ينكره العرف والتقاليد بل العقل وكيف يفاجىء بهدية كهذه فتاة لايزال ينقصه أن يعرف ماتنطوى عليه له ؟ وكيف يتخطى أهلها ويقصد اليها مباشرة ؟ أمن أجل أنه أتم دراسته فى (ليون) ينسى بلاده وعاداتها والاصول المرعية فيها ؟ وتناول

العلبة وفتحها آسفا وجعل يقلب القرطين ويتأملهما فجرى بباله خاطر آخر كان تنغيصه أشد . هب شوشو لم يعجبها اختياره ، ولكن هل انتهينا من القبول حتى تفكر فى الذوق الذى حدا الى الاختيار . وكاد الشك يطير بلبه ويعصف بعقله فجعل طول النهار يتأمل القرطين من قريب ومن بعيد ، وفى الظل وفى ضوء الشمس حتى اقتنع بأنهما شر ما كان يستطيع أن يشترى — فضلا عن حماقة العمل فى ذاته .

والآن مادا يصنع بهذين القرطين ؟ وتمنى أن يفقدهما وود لو يسرقهما منه لص ، وأخيراً استوقف مركبة وثب اليها وقد خطر له حل جميل : واشترى قرطين آخرين ، وخرج بالزوجين وقال أهدى كل فتاة واحدا فلا يبقى هناك اعتراض ، ويكون عملى هذا اشارة صريحة ألى أنى أفكر فى مصاهرة الاسرة ... ولكن رأسه تدلى وقلبه هبط لما تنبه الى أن أول ماسيخطر لأى امرىء هو أن سميحة هى طلبته .

مسكينة سميحة ... لو عرف ابراهيم هذا لأدركه العطف عليها ...

الفصل التاسع

« ابعدوا عنى يا جميع فاعلى الاثم »

كانت شوشو راقدة فى غرفتها وعيناها مفتوحتان. تديرهما فلا ترى أثرا لابراهيم ، لاصورة ولا هدية ولا رسالة ولا بطاقة زيارة . جاء وذهب كالعاصفة ولم يخلف الا مثل ماتخلف من التحطيم — وأين هو الآن . فى الاقصر ! يدفن الحب الذى خيبته نجية — « نجية أختى ويحبها — فكيف لو كانت امرأة أبى وضرة أمى ! » — يدفنه بين اطلال طيبة ! وهو منكبر وعر الطبع فأما أن يخنق هذا الحب ويدفنه واما أن يقضى نحبه معه • لاشك فى ذلك . ولن يرجع من طيبة ، اذا رجع ، الا بقلب سليم . مافى هذا أيضا شك . كرامته عنده فوق كل شىء . وهى أحق بالمراعاة من كل عاطفة ألم يقل للشيخ على حين أراد أن يقنعه بوجوب التسليم على نجية قبل سفره « قد خلعت ثوبى فكيف ألبسه ؟ قد غسلت رجلى فكيف أوسخهما ؟ » متمثلا بالتوراة

وطفر الدمع من عينى شوشو وهى تتصور عناد ابراهيم وصلابته ومرارة نفسه وانتساخ كل أمل فى لينه أو تساهله ، وكاد يسخطها هذا على ابراهيم . اذ كيف يقسو عليها هذه القسوة ؟ ماذا صنعت هى حتى يحطم قلبها ويدوسه بحذائه ؟

وهمس فى أذنها الانصاف « وقلبه هو ؟ ألم يتحطم ؟ أليس

المحقق أنه اذ يحاول أن ينتزع حبها من قلبه سينتزع معها أحشاءه من جذورها ؟ أهو أقل استحقاقا لعطفها من أجل أن عينه لا تعرف البكاء ؟ واذا كانت عينه لاتبكي أليس حسبها أن قلبه ينزف ؟»

فقالت « نعم . نعم » ودفنت وجهها في الوسادة وتركت دموعها تنهمر

وأفاقت .. مريضة . كل أعضائها يخذل بعضها بعضا . وماذا يكون المرض ان لم يكن منه ذلك ؟ قلبها تحسه هابطا وروحها مسحوقة وأملها ضائع والعزاء لاسبيل اليه . نعم هو يحبها . وهل يمكن أن تنساه وهو واقف أمامها . النور الذى فى عينه ، والنبرة التى فى صوته ، ووفاؤه لها ان فى وسعها أن تراهن بحياتها على حفاظه ، ولكن ماجدوى وفائه وقد محقت أختها حياتها ؟ ماخير أن يظل يحبها وقد ائتمرت بها أختاها ـ كلتاهما ـ ليقضيا عليها ! والشيخ على يقول : ان بها حاجة الى قليل من الراحة ! آه لو علم ! ان حاجتها الى ماهو أكثر من الراحة ! ولو رآها وهى تبكى وشعرها منفوش ووجهها على الوسادة وقلبها يتمزق لأدرك أن الراحة لاتغنى !

ولم يكن يمسكها فى هـذا اليأس الأسود الذى يحيط بها والنقمة الماحقة التى تشعر بها لاختيها ، الا يقينها بأنها محبوبة ، والا ذلك المقدار من السعادة الذى ينتجه هذا اليقين. بهذا الخاطر تشبثت بينما كانت عواطفها تزخر وصدرها تعيث فيه عواصف

الألم . ومن الذى يستطيع أن يسلبها هذا الحب مهما حدث ؟ قد تكون الاقدار قد خبأت لها تجارب أخرى وآلاما جديدة فى حياتها ولكن الاقدار نفسها لاقدرة لها على حرمانها الشعور بان ابراهيم يحبها — كلا ولا اليقين بانه لن يحول أو يتغير ، فقد فطنت شوشو بسرعة الى عنصر الشبات الهادىء الرزين فى أخلاق ابراهيم ، وحتى لو تغير ابراهيم أو حال عن عهدها فان ذلك لا يغير الحقيقة الراهنة ولا يمحو السعادة الحاضرة ولا يحرمها كنزها الذى تضن به وتعيش عليه . وسألت نفسها وهى فى هذه الحالة النفسية التى تختلط فيها الجذل والألم « أ كنت أستطيع أن أحس هذا السرور الخفى الدقيق بمثل هذه القوة لو لم أتعلم من سلوك سميحة أن أميز بين الصحيح والزائف ؟ لو لم تكن هناك عقبة ، لو أن سميحة لا توهم أختها نجية أن بينها وبين ابراهيم حبا ؟ أ كنت أعتز بحب ابراهيم كما أفعل الآن ؟ أ كنت اعتد حبه لى — لى أنا وحدى دونها — عزاء وذخرا لى ، وكنزا أطويه فى أعمق أعماق قلبى ؟ وطالما أدفع به الشقاء ، ورفية يبلغ من قوتها وفعلها أن تسلى القلب لحظة وتنسيه أن كل رفية عبث وكل سلوى محال ؟ »

ودخلت عليها أختها سميحة وهى على هذه الحال فلم تأخذها بها رحمة وصاحت !

« ما شاء الله . ماشاء الله . طبعاً ياستى . معذورة . ربنا يكون فى عونك . »

فاحست شوشو بالرغبة فى خنق اختها ، أو على الاقل فى جلدها بالسياط . أليست مجرمة ؟ ألم تقض على تفسين ؟ ألم توكل بهما الشقاء طول العمر ؟ ألم تقمع حياتهما فى شبابهما ؟ ولكنها ملكت نفسها ومسحت دموعها واعتدلت وقد زهاها أنها هى المحبوبة دون سميحة ، وأن سميحة خسرت مثلها ولم تكسب ، ورمتها بنظرة احتقار مرة ونهضت متثاقلة الى المرآة فاصلحت شعرها فى صقالتها ثم التفتت اليها وقالت

« أنا المغدورة ؟ ربما . على أنى أرجو من فضلك أن لاتلعبى دور الأم . لست أكبر منى الا بعام . فلست أقبل منك أن تعدى نفسك مربية لى . أ كبر منى ؟ ليتك كنت الصغرى ! أعنى ليتك أنت مكانى .. أنت المطلوبة بدلا منى ، ولكن بختك هكذا وأحب أن تكونى واثقة أنى لا أعبأ بك ولا أحترمك اعلمى هذا لتريحى نفسك والا فسأكون مضطرة أن أسىء أدبى عليك أمام الناس . ان مايعنينى يعنينى وحدى . »

ورضيت شوشو عن نفسها لأنها استطاعت أن تكبح عواطفها وأن تنغص على اختها انتصارها ، وأن تصمد لها على هذا النحو ، وطاف برأسها أن هذا تأثير ابراهيم ، تأثير روحه القوية التى تأبى أن تنهزم ، هى بلاشك روحه التى أوحت اليها هذا الموقف الحازم . ولم تكن سميحة تتوقع من أختها هذا التمرد لأنها الفت منها الطاعة والانصياع والأدب ، فأذهلها ما سمعت

وصدمها ، وآلمتها الوخزة ، وكان فيها جبن — والجبن والمكر صاحبان — فاشفقت أن تسوء العاقبة وأن تفقد كل سلطان على أختها اذا لم تتراجع ، وايقنت أن العصفور لم يعد فى القفص ، فاقبلت على شوشو تمسح لها شعرها وتلاطفها وتؤكد لها أنها آسفة وأن العطف عليها هو الذى أطلق لسانها بما قالت وانها لاتحب لها أن تذبل زهرة حسنها بالبكاء

ولكن شوشو لم تلن ولم تخدع بل رادها تحول سميحة الى الملاطفة شعوراً بانها وقفت الى مايجب عليها فنحت يدها عنها وقالت

« كفى نفاقا . لا تحاولى أن تخدعينى . ألست أقول لك بصراحة أنى لا أحترمك ؟ فماذا تبغين منى ؟ ان ملاطفتك ابغض الى واثقل على من سلاطة لسانك . فاذهبى عنى من فضلك والا فانا غير مسئولة »

ولكن سميحة كانت أقوى من أن تظهر الهزيمة ، فقالت

« كل ما أردت أن أخبرك به هو أن الدكتور محمود جاء وسيبقى الليلة هنا. وقد يسأل عنك فماذا تقول ؟ أن الاوفق أن تنزلى فما يليق أن يطلع على شىء »

فضحكت شوشو وقالت

« الدكتور محمود جاء . يالهامن فرصة . — أعنى لك طبعا . »

فغضبت سميحة لهذا التعريض وكان غضبها حقيقيا لا تكلف فيه ، وثارت بشوشو تعنفها على هذا الكلام الجارح وتحتج على هذه اللهجة

ولـكن شوشو كانت تجد لذة فى ايلام سميحة فسرها غضبها وعلمت أن الوخزة شكت قلبها وقالت

« مهلا . مهلا . أليس الدكتور كابراهيم . . أعنى رجلا ؟؟ كل ما أخشاه هو أن أخرج للدكتور فيقع فى حبائلى وأقنصه كما قنصت ابراهيم فتضيع عليك فرصة ثانية . لذلك أكرر لك تهنئتى بالفرصة الجديدة وأعدك أن لا ارى الدكتور وجهى »

فلم تطق سميحة هذه المـكايدة وخرجت

وعجبت شوشو لنفسها من أين لها كل هذا الهدوء .



الفصل العاشر

(ثم سمعت صوت السيد قائلا : إذهب)

« آسفة ! »

لم يستطع الدكتور محمود أن يصدق هذا .

« آسفة لانها ... ماذا قالت ؟؟ أوه لا أدرى ! لم يعد لى عقل أدرى به شيئا ... آه لا تريد أن ترى أحدا ... هذا « الاحد » هو أنا ، هيه ، أنا ، لا سبب غير ذلك ، لا تريد والسلام . ما معنى هذا ؟ معناه ؟ وهل له غير معنى واحد ؟ أختها تخبرنى انها متعبة فأظهر قلقى واعرب عن استعدادى لعيادتها فتبعث اليها بسميحة تبلغها انى سأعودها . سأعودها ... هيه ، ليست زيارة ولكنها عيادة .. عيادة طبيب لمريض ، شىء عادى جدا ، ولكنها ترفض رؤيتى ، تأبى ان ترانى، لاتريد أن ترى أحدا... وأنا هنا واقف كالبغل ، ما معنى هذا ؟ ها ها ! »

كلا . لم يستطع الدكتور أن يفهم ما حدث ، وله العذر ، وكلما أطال التفكير فى الامر زاد استغرابه واضطرابه ، وكان هذا أول ما حدث له من هذا القبيل باعتباره طبيبا ، وأول ما جرب من الصدمات لرغباته فى الحياة ، فراح يقطع « الصالون » جيئة وذهابا ويحاول أن يضبط عواطفه ويقبض على الزمام الذى تفلت

من يديه ويحدث نفسه بأن هذا السلوك سرا لعله غير راجع اليه، وعسى أن يكون هناك شيء يجهله هو ، وربما كانت الصدمة التى تلقاها ليس معنيا بها على وجه التخصيص وانما هى صدمة كان أى انسان عرضة لها بدلا منه لو اتفق ان أى إنسان آخر كان بدلا منه . ولكن الذى لا يفهمه هو أن كل من فى البيت لا يستغرب أن ترفض شوشو ان يراها طبيب على الرغم من أنها متعبة ، وبعبارة أخرى مريضة. فهل هذا معقول؟ كيف يتلقون رفضها بالتسليم المطلق ومن غير أن يرتفع صوت واحد بالاعتراض أو يبدو أى أثر للدهشة على أى وجه ؟ ؟ وليست هذه عادة الاسرة ، فان الطبيب أول ما يفكر فيه الكبار والصغار والنساء والرجال والخدم والسادة لأتفه انحراف ، حتى الزكام يستقدمون من أجله الطبيب الى القرية ، ولو كانت المصابة به فاطمه الزنجية ، ولهم هنا فى الاسكندرية طبيب لا يعودهم سواه ، وينقدونه أجره فى المواسم الزراعية ، لا بعد كل زيارة ، فما معنى هذا ؟ ؟ ما الباعث لشوشو على الاباء ولاختيها على السكوت ؟ ؟

ووقف أمام البيانو ينظر الى الصور واللعب المرصوصة فوقه واخرج سيجارة وقدح عودا من الكبريت ورفعه ليشعل به السيجارة ولكن خاطرا جال فى ذهنه فنحى السيجارة عن فه قبل أن تشعل وسأل نفسه : ولكن هل هى مريضة ؟ ؟ إن شكى عظيم ! كلا ! لا يمكن ان تكون متوعكة وتأبى ان يراها

طبيب . كل ما أعرفه عنها وعن الاسرة كلها يحملني على الاعتقاد بأن المرض دعوى » وهز رأسه كأنما اوشك أن يهتدى الى السر ويقع على حل للغز ، واشعل السيجارة وزم شفتيه وارسل الدخان خيطا طويلا الى فوق كما يفعل المرء وهو يفكر ، وكاد يبتسم ابتسامة الرضى عن النفس والارتياح الى ما أبدى من الذكاء والفطنة ، ولكنه عبس ولم يبتسم ، عبس لانه تذكر هيئة نجية وهى تشكره على اقتراحه ان يعودها وتقول له «ايوه يابنى والنبى كتر خيرك احسن البنت مش عارفه جرالها ايه . لو تشوفها متعرفهاش . ما نقالهاش شكل . روحى يا سميحة يا اختى قولى لها الدكتور جاى يشوفها . اياك على الله يابنى امال ، لحسن موريانا الصديد » فكيف لا تكون مريضة وهذا كلام اختها وتلك لهجتها ؟ .

ووقفت فى هذه اللحظة سميحة فى مدخل الباب وقطعت عليه التفكير بسؤال

« يا دكتور ابن عمى هنا ؟ »

فالتفت اليها وقال «لا . اسمعى . »

فدخلت وحار كيف يسألها عن شوشو وكيف يتقى أن يثير شكوكها بسؤاله ، ولكن مهنته أسعفته فقال

« كيف اختك الآن ؟ ارجو أن تكون حقيقة فى غنى عن الطبيب »

فقالت وهزت كـ ' '

« اختى وو ! »

فلم يفهم هـذه اللغة ، لغة الاكتاف المهزوزة والشفاة الممطوطة ، ولم يدر أيطمئن لما يتبينه فى لهجتها من الاستخفاف أم يقلق لما تنم عليه حركتها من الامتعاض والضيق

وقال « اذا كان الامر يستدعى طبيبا وكان الاعتراض مقصورا على ، فنصيحتى ان يدعى طبيبكم هنا »

فقالت سميحة « لا » مطوطة جدا ـ « انك لا تعرف شوشو يا دكتور . هى هكذا دائما . دعك منها فلا أمل فى اصلاحها »

فقال « انى آسف لسماع هذا ، فقد كنت أظن انها أعقل ... »

فقاطعته « أعقل ؟ هاها ! ليس فى رأسها رائحة العقل . هل يغرك منها ظاهرها ؟ آه لو عاشرتها ! ولـكن الـكلام عيب ، أرجو أن ندع سيرتها ، فانها تؤلمنى ، انى اتحسر كلما رأيتها تزداد كل يوم . . ولـكن ماذا نقول ؟ ربما هو المادى ! »

فلم يدر الدكتور ماذا يقول رداعلى كلامها ونقصها لشوشو وآلمه أن يسمع هذه الزراية ولـكن كيف يدخل بين الاختين ؟ وسميحة هى الـكبرى فأسفها معقول اذا صح ان شوشو كما تصف ، كما تصف ؟ ؟ كيف يمكن ؟ ؟ انها تبالغ ولا شك ...

وكأنما ادركت سميحة ان الشك يخالج الدكتور فقالت

« انت معـذور اذا لم تصدق ، لأنك لا ترى شيئا . ولو

كنت غريبا عنا لما كاشفتك بما تفيي من الاسف والألم ، وقد ضاق صدرى ولم أعد أعرف ماذا أصنع ، حتى أختى نجية وهى كأمى أعيتها الحيل، بالطبع ليس هناك شيء معيب، هذا بديهى ولكن تصور انها مثلا لا تعرف شيئا عن شئون البيت وتدبيره ولوازمه ، يكون معها الشيء فتلقيه حيثما اتفق ،وتكون غرفتها « كسوق الكانتو » والخادمة مشغولة فلا تكلف نفسها كنسها أو ترتيبها، ولو ظلت شهرا على هذا الحال ، وتعطيها مبلغا فاذا سألتها عنه كيف انفق ا كتفت بان تقول لك « فى البيت » ، حتى كتبها التى تحبس نفسها فى غرفتها أياما لتقرأها أنا التى أرتبها وانظفها وانفض التراب عنها ، ولا تستطيع ان تشترى لنفسها منديلا أو تفصل ثوبا • وهـذا كل ما استفادته من المدرسة ا الكتب ليس الا ، وماذا أقول ؟؟ أقول تتفكر تتحسر ؟ »

وتنهدت

ووقف هو كالأبله

وظهر الشيخ على فى الباب فسد فضاءه

وتسللت سميحة فخرجت من باب آخر

وقال الشيخ على وهو يدنو من الدكتور،أو على الأصح صاح به « فى الحديقه يكون منظرك أحسن. ليس هنا مكان التماثيل، الغرفة أضيق من أن تتسع لتمثال كبير ا فى الحديقة . تعال نختبر المواقع وننتق أوفقها ، أوه ما هذا ؟ »

ومد يده فجس جيب الدكتور فصار وجهه كالجمرة

وقال الشيخ على « أتفاح هـذا ؟ لماذا تحمله فى جيوبك ؟ لا . ليس هذا تفاحا . أهو فحم كوك ؟ »

وضحك وقد أعجبه منظر الدكتور يحمل فى جيبه فحم « كوك »

فابتسم الدكتور وقال « فحم ؟ لا لا » ولـكنه لم يمدد يده الي جيبه ولم يخرج ما فيه . وكيف يخرج علبتى الخلقان ويريهما للشيخ على ؟ ؟ ومع هذا لماذا لايفعل ؟ ؟ هل كان ينوى أن يقدمها سراً ؟ ؟ كلا ! ولـكنه لم يكن يفترض أن يكون الشيخ على حاضراً ساعة الاهداء . ولا بأس بأن يعرف الحكاية بعد أن يتم الأمر أو يكون هو قد رجع الى المركز

واستحيا أن يخفى الأمر عن الشيخ على . وخطر له أن هذه قد تكون فرصة أتيحت للتخلص من الخلقان التي أسيء [illegible] [illegible] [illegible] ، فخرج العلبتين ومد بهما يده للشيخ على [illegible]

« [illegible] ! ها ها ! تكاثر [illegible] على حراس ! ! [illegible] العكس تكاثر على الطبية الحراشون »

ثم يفهم الدكتور وخيل له أن قرينه يهذى ، خراش وظباء : ماذا يعنى ؟ ورنا الى الشيخ على وجها كله علامة استفهام

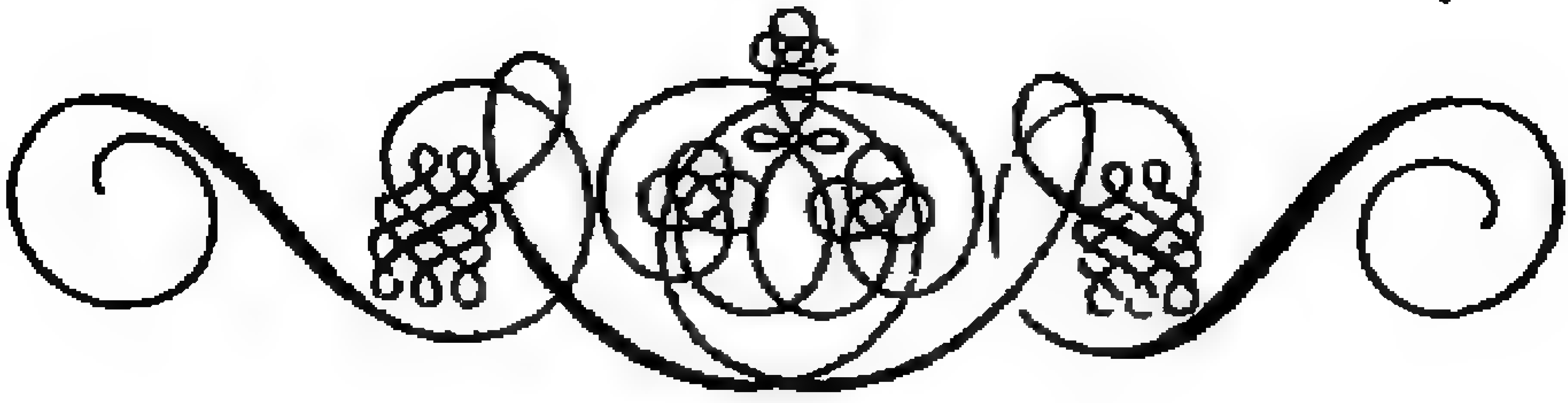
فقال الشيخ على ، وهو يدق كتفه بيده الـكبيرة « لم يخطىء على يا صاحبي ! وسأصف لك دواء هو خير من كل طبك الذي

لا ينفع أحداً . طبك الذى يخونك الآن ، طبك الذى ترفضه شوشو . . . آه . . لقد فضحك وجهك . . فاسمع : دواؤك أن تخرج فى البحر وهو من هنا قريب ، مائة خطوة ، ومعك هذان الحلقان ، فتلقيهما فيه وتلقى نفسك وراءهما . هـذا هو دواؤك . فلا أمل لك فى شوشو . ومتى قال الشيخ على هذا فيجب على قريبه أن يصدقه . فاذهب الى البحر ! تعال معى فقد تحتاج الى معونتى »



القسم الثالث

« لأنى دعوت فأبيتم ، ومددت يدى وليس من يبالى ، فأنا أيضاً أضحك عند بليتكم »



الفصل الاول

« كيف أصفح لك عن هذه ؟ »

لو رأي القارىء ابراهيم فى الاقصر بعد الذى سردناه لك فى الفصول السابقة لحسبه من طلاب الآثار أو على الأقل من المولعين بدرس العاديات المصرية . فقد كان يقضى نهاره كله فى الهياكل والمقابر ، والهزيع الثانى من الليل مكبا على الكتب ، أو مدونا ملاحظاته وآراءه فيما شهد فى يومه ، وقد استغنى عن الأدلاء بطائفة متخيره من الكتب التى وضعها العلماء والكاشفون عن الآثار أو المفتشون الاجانب التابعون للحكومه المصرية ، وكان يحلو له أن يجلس على صخرة بين الاطلال و يذهب يفكر — لافيما يحيط به من المعاهد الدارسة ؛ بل فى هذه الصحراء العارية التى تكتنف كل شيء ، والتى عظم وقعها فى نفسه حتى لراح يتمنى أن يرزقه الله القدرة على نقل هذه الصحراء وحملها معه فى حله وترحاله : ونشرها و بسطها حوله فى حيثما يكون من الأرض — نعم ليت هذا فى وسعه ! إذن لاستطاع أن يطويها كلما غادر بقعتهما أو أن يلفها مع ثيابه وأشيائه فى حقائبه ، حتى اذا نزل مكانا

واستوحشت نفسه أمس بأن يخرجه وينشرها أمامه ويتأملها ويذكر بها لياليه فيها بما اشتملت عليه — فقد صارت نفسه فيما يرى كهذه الصحراء : تربة بكراً تغذوها الشمس ولكن خيرها دفين فيها ، فظاهرها مجدب ووجهها أجرد ، ولا علم لأحد بما في جوفها وبما كان يمكن أن يخرج منها لو أن الحياة لم توسعها حرماناً مما أغدقته على غيرها من رقع الأرض ، وكذلك هو : أخطأه الحظ في ناحية فجدب ظاهره وبقي باطنه زاخراً بقوة الحياة المكنونة فيه .

ولم يستغرب ابراهيم نشوء هذه « العاطفة » في نفسه للصحراء ، فقد قرأ — أين يا ترى ؟ ما أخون ذاكرته في هذه الأيام ؟ — أن بعضهم كان يقرأ وصفا للصحراء الكبرى فعادته أن يحس أن أنفه قد غطته النقع فأمسك عن القراءة مخافة أن تخرج على يديه خصف من لفح ما يصف الكاتب

وهز رأسه وسمعان وهو يدير عينه في الفضاء والخراب حوله

« ما هي هذه المدنية ؟ أهي شيء مرتبط « بالانسانية والمروءة » ؟ بانقطاع العذاب أو التعذيب ؟ كلا فقد كانت آشور على حظ عظيم من المدنية وكان أهلها مع ذلك يسلخون جلود الأسرى من أعدائهم وهم أحياء ، وكانوا يقعدونهم على « الخوازيق » وكانوا يتركون الآلاف من الجرحى يتعذبون ويموتون في حومة القتال ! ! وروميه أيضا كانت مركزاً للحضارة في أيامها ومع ذلك

كان أبناؤها يتلذون مناظر الفتك — فتك الحيوان بالانسان والانسان بالحيوان ومشاهد الدماء سائلة منهما كليهما . ومصر التي تبهرني آثار مدنيتها، ماذا تقول فوشها على جدران هياكلها ؟ ماذا يقول الهرم وحده ؟ ؟ في كم سنة بني وكم روحاً زهقت في سبيل حجارته ؟

« أم ترى للمدنية علاقة بحقوق الفرد في ظل الديمقراطية ؟ ولا هذا أيضاً . فان أوربة وأمريكا متحضرتان ولكنهما يستخدمان الجموع المدربة والجماهير المنظمة في جيوشها وفي اتحادات الحرف فيهما وبذلك يتيسر تحقيق مآرب القليلين باستغلال طاعة الكثيرين ويبلغون غايتهم كما يفعل زعماء قبائل « الزولو » المستوحشة بقوة « العدد » وبفضل الكثرة المدربة على الطاعة . والرأي العام ماذا يبقى للفرد من الحقوق في ظل الديمقراطية ؟

« أم المدنية مرتبطة بالشرف والنزاهة ؟ حتى ولا هذا . فان الفساد والرشوة فاشيان في أرقى الجماعات مدنية حتى لكأن المدنية تعين على استفاضتها

« ماذا إذن ؟ أترى علاقتها بالفضائل الجنسية ؟ »

وهنا ابتسم وقال لنفسه « ان جو المدنية أصلح ما يكون للرذائل الجنسية » وتلفتت عينه الى ناحية الفندق الذي يزل فيه

ومل هذا السرد والنق ، ونهض وهو يقول « الى أن يجيء ذلك اليوم الذي يدرك فيه الناس — كل أحد — أن الرقي

العقلي وحده — أن الكولتور الذى صدع رؤوسنا به الالمان — أن المدينـة التى نلهج بها ليست هي الآخر بل الأول . ولا النهاية بل الابتداء ، ولا الغاية بل الوسيـلة ، ولا الحصاد بل التربة — إلى أن يجيء هذا اليوم فلن يكون رقى الانسان مستحقا للذكر ... أن روح الانسان هو المهم »

وانحـدر إلى مقبرة امنحوتب الثانى وهبط الدرج المنحوت فى الصخر وعبر الجسر الذى أقيم فى هذا العصر فوق البئر . ودخل القاعة ذات العمودين ، ونزل سلالم أخرى إلى قاعة ذات سته عمدان وجدرانها مغطاه بالنقوش والمناظر المنقولة عن « كتاب ما فى الآخرة » ومضى إلى آخرها وأطـل على تابوت الملك ، وأشار إلى الحارس فاطفأ الانوار الكهربائيـة ولم يبق إلا المصباح الذى يلقى ضوءه على مومياء الملك الراقد وكأنه نائم . وقال لنفسه وهو يتأمله .

« أن هـذه الاعضاء النحيفة المعروفة كانت فى حياة صاحبها مكسوه باللحم قوية العضل . وكان هـذا ملكا قوى الجسم وكان ينزع قوسا لايقدر أحـد من حاشيته أو جنوده أن ينزعها . وكان حاكما قويا شديد البطش عظيم البأس ، ولقد وسعه أن يضم شتات الدول العـديدة والشعوب المختلفة التى أدخلها هو وأبوه من قبـله فى دائرة ملكه . وكان قاسيا على خلاف أبيه حتى لقيل عنـه إنه ذبح بيده عدداً من الامراء الذين ثاروا عليه وربط واحدا من

رجليه وعلقه مقلوبا يتدلي من السفينة — رأسه إلي الماء ورجلاه إلى السماء — هذا كله كان منذ ثلاثة وثلاثين قرناً ومع ذلك يحس المرء وهو ينظر الى نضارة ألوان التابوت ودهان الجدران كأن مصر القديمة ليست بعيدة منا كما كان يتصور — ثلاثة آلاف سنة وثلاثمائة فوقها ليست شيئاً — يعبرها الخاطر بسرعة وسهولة ولا يحس مسافتها ولا يشعر بمشقة هذه الرجعة ! فهل كل هذا الزمن لا شيء على الحقيقة ؟ هل مسافة هذه الحقب الطويلة المديدة التي تشبه الأبد ، وهم ليس إلا ؟ . عجيب . عجيب ! »

وانثنى إلى غرفة صغيرة فيها ثلاث موميات مجهولة الاصحاب : مومياء عجوز لا يزال شعرها الذى أشابته الأيام يلمع كالفضة ؛ ومومياء فتى لا يتجاوز الرابعة عشرة على صدغه خصلة من الشعر إيماء إلى شبابه ، ومومياء إمرأة تناهز الثلاثين . . .

وحني ابرهيم عينه وهو يقول « آخر كل شيء هذا . . . آخر الحزن والسرور . . . آخر السعادة والشقاء . . . آخر المجد والعزه والذلة والخمول . . . آخر الشهرة وآخر الخفاء . . . باطل الاباطيل الكل باطل . . . صدق ابن داود . . صدق سليمان . . »

وخرج من القبر وعاد إلى الفندق .

— ٢ —

ولم تبارحه صورة شوشو لحظة ، ولم تخمد وقدة حبه لها ولا انقطع حنينه اليها . ولكن بضعة أيام بين هذه الاطلال

والمقابر والنومياءات والصحراء فلت من حدة غضبه على أختها نجية وان لم تنقض عرى عهده المبرم، وملته من أن يتدبر ما حدث وهو ساكن. فاستطاع أن يقنع نفسه بان ردها عليه ليس فيه ما يسوء ولا هو يجهز على الأمل ويمنع الرجاء اذا طاوعته نفسه. وماذا قالت له؟ أنها لم ترد على أن قالت أن ابرهيم كشقيقها وليس أحث على سرورها من أن يكون زوج أختها. ولكن شوشو هي الصغرى؛ وهناك سميحة وهي أكبر منها؛ فاذا تزوج شوشو فقد قطع الطريق على سميحة، وخليق بألسنة السوء أن تذهب تختلق أسباباً شائنة لتخطي سميحة. فهل يرضى هو هذا؟ وهما أختان ولا فضل فيما ترى لشوشو على سميحة، فاذا شاء أن يتزوج سميحة فهي له بلا مهر ولا قيد ولا شرط.

هـذا كل ما حدث. وهو عين ما كان يتوقع؛ صحيح أنه سمعه أن حيه حلفت أن لا تعطيه شوشو ولو ملأ لها حجرها ذهبا. ولكن لماذا قالت ذلك؟ ما الذي أنطقها بهـذه الكلمة الجارحة؟ إنه الشيخ علي! نعم هو. فقد أراد أن يحملها على القبول والتسهيل، وكان عنيفاً كعادته وهاجها بسخره؛ فغضبت وقالت ما قالت. فلا يزال صحيحاً أن عدواً عاقلا خير من صديق جاهل

وابتسم. الشيخ علي صديق جاهل؟ كلا! انه الاخلاص مجسداً، والذكاء مصوراً؛ ولـكن ذكاءه خانه هذه المرة. فندت الـكلمة

الجارحة عن صدر نجية بـكل ما تنطوى عليه من مرارة وخيبة أمل كانت سميحة مناطه . ومن يرد الـكلمة بعد أن تخرج ؟ من يعيد العصفور بعد أن ينطلق من قفصه ؟

هذه هى المسألة . فلا سبيل الى إعادة الـكرة ، نعم لم يذهب الأمل ، ولـكـنه هو لا يستطيع أن يتقدم مرة أخرى طالباً أو خاطباً . كلا . هذا محال . ومحاله مثله أن يرى شوشو . . . وكيف يراها وأين ؟ حتى ولا اذا فاءت نجية إلى الرضى وتقدمت من تلقاء نفسها الى ابرهيم . فـكل كلام عبث . ويجب أن تراض النفس على مرارة الحرمان . واحتمال البعد .

وشعر بالدم يغلى فى عروقه وهو يفكر فى كلمة نجية . كيف يستطيع أن يرى وجهها بعد الآن ؟ ؟ كيف يمكن أن يصفو لها قلبه مرة أخرى ؟ ؟ لو ملأ لها حجرها دهباً ؟ ؟ نجية تقول هذا . . . وهي مع دلك مستعده أن تزوجه سميحة بلا مهر ! !ها ! وأدار وجهه كأنما أراد ليتقى أن يراها . وتصلب وجهه وثبت حملاق عينه وصرت أسنانه وهو يعرضها من الغيظ وصار منظره مفزعا . وكانت فتاه مصرية تمر به وهو لا يراها . فوقفت وارتفعت يدها البضه إلي قلبها . ثم رجعت من حيث جاءت . وولت هاربة

وزال عنه التوهم وعاوده السكون ورجع يسأل نفسه « كيف ؟

كيف ؟ كيف تكون رياضة النفس ؟ هذه هي المسألة ، لا تلك . كل شيء يهون إذا استراح القلب إلى الفراق ووطن المرء نفسه على احتمال عذابه ».

غير أن هذا الاضطراب لم يطل . لأنه كان أصح تفكيراً وأسلم نظراً من أن يدع نفسه يتخبط . فلم يلبث أن سخر من نفسه وقال يعنفها « ما سؤالي هذا عن الكيف ؟ إنه لا محل له . وسواء استراح القلب إلى الفراق أم لم يسترح . فالفراق موجود . أما العذاب فهل لم احتمله الى الآن ؟ لا أدرى كيف . ولكن الذى أدريه أنى احتملته والسلام . ولست أرى أنى خرت أو وهنت . فيجب أن أضع حداً لتخليط النفس . نعم لا يجوز أن أسمح لها أن تحيلني امرأة لا تعرف الا البكاء . »

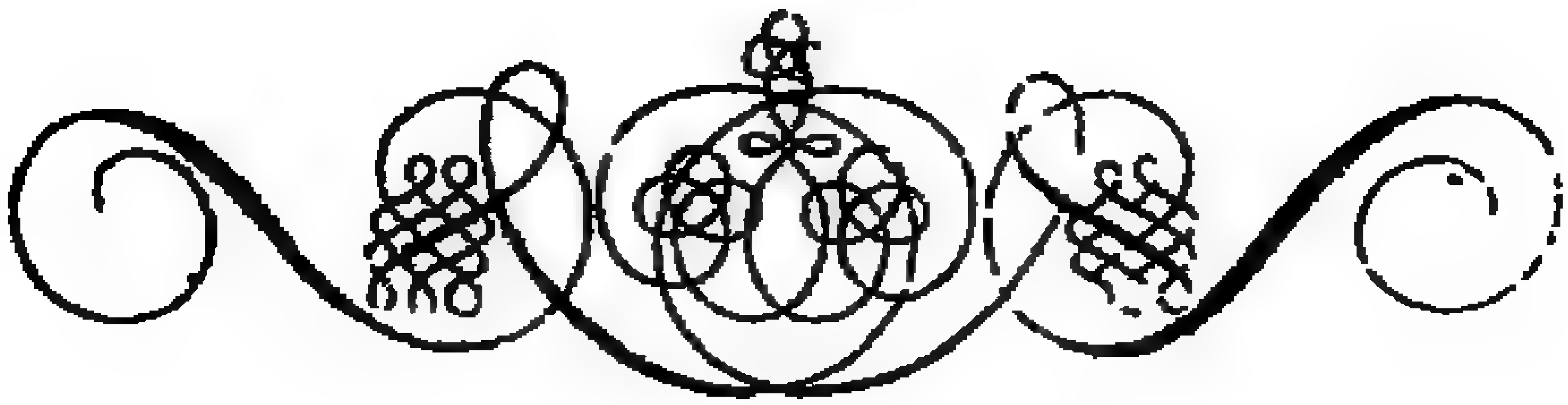
وتسوسو : مسكينه مسكنة ! حزنها دفين فى صدرها . وليس لها معين على التسلى . ان كل شيء يؤجج النار التي فى قلبها . ولا صديق يعاتب أو صديقة . كل ما حولها عدو لها . ما خلا الشيخ على وهو لا يسعه كثير . ولو كان فى مقدوره شيء لما حدث ما حدث . فخطبها أدهى ومصيبتها أعظم « الا ابرق للشيخ على اوصيه بها خيراً ؟ ؟ يحسن ولا يحسن . ولو امكن ان ترسل البرقية الى غير بيته . . ولكن هذا غير ميسور . وإذا وصل التلغراف فسيعلمون جميعاً بأمره ويسألوا عنه . وربما كان الآن فى القرية فيفتحونه ويطلعون عليه فيقع المحذور . كلا .

ومع ذلك ما الحاجة إلى ايصاء الشيخ على ؟ ثم إنى ... نعم يجب أن أقطع الصلة الآن . . . كل القطع .. وفى خلال ذلك ، ماذا ؟؟ لا أعلم ، سوى أن قول القائل

أذ من ساءه الزمان بشيء لحقيق إذن بأن يتسلى

يدور بنفسي . صدق . ولكن ذهنى لا يسعفني باقتراح وذع الأمر للمصادفة ويحسبي الآن كأس من الويسكى ، صفق .





الفصل الثانى

« كل طرق الانسان تقية فى عينى نفسه »

— ١ —

كان الشيخ على لا يزال راقداً فى سريره وان كانت الساعة قد جوزت الحادية عشرة ، ولم يكن نائماً ولكنه يتسمع ، وكان سريره سد باباً مؤدياً إلى غرفة مجاورة ، وكانت سميحة واختها سكرى حيه فيها . وكانت سميحة تقول وهى تخلع برقعاً أسود يسدل على رحيب حين تريد أن تخرج متنكرة لأنه كشف يغطى وجهه كله ما عدا العينين :

« أعوذ بالله من البيت يا أختى ! لم أرى حياتى أقذر منه ولا أضيق : غرفة واحدة فى الدور الأول لها نافذة مفردة مسدودة بالحصير والهواء ينفذ منها ، والبرد فيها شديد ، وهى جالسة على وسادة فوق الحصير وفى أصابعها خواتم من الفضة وفى أذنيها قرطان كبيران من الفضة أيضاً . وعلى ساقيها خلخالان من الفضة كذلك . لا شىء من الذهب أبداً . كل ما تتحلى به

من قصة . ووجهها سمح ونظراتها حلوة . وقد كنت أول من دخل ، ولكنها لم تترك إلا بعد أن ازدحم البيت — الغرفة والسلم — بالنساء ؛ وكان النساء يتناولن طعامهن — بعضهن جئن به معهن — طعمية ودقة وكسرات من الخبز المقدد — وبعضهن اشترين سميطاً وجبناً أو بيضاً من رجل يبيع ذلك فى سلة كبيرة جلس بها الى جانب الباب . وماذا أقول لك ؟ لقد كان المكان كالزريبة ! أما الضوضاء فأعوذ بالله منها ! لقد صدعت لي رأسي . ومع أنى كنت لابسة هذا الازار الخلق الذى استعرته من فاطمة ، فقد أحسست أنى غريبة بين هؤلاء النسوة . . . »

فقاطعتها نحية قائلة

« وماذا قالت لك ؟ »

وكانت سميحة قد كورت البرقع وهى تتكلم فالقته على الكنبة وهبت قليلا لتسحب الازار من تحتها ثم جمعته وكومته وقذفت به وراء البرقع وتنهدت ثم قالت

« قالت ؟ لقد قالت لى كل شىء ! روت لى الماضي كله وكشفت لي عن المستقبل أيضاً . كيف عرفت يا أختى ؟ . إن هذا لغريب ؟ والله لكأنى كنت فى حلم ! حتى ما كنت نسيته أذكرتنى به . لقد ذهبت طاعة لك فقط . ولم أكن أعتقد أنها ستعرفنى . أو أنها ستنبؤنى بماض أو حاضر . وكنت أقول لنفسي فى الطريق : ومن أين لها أن تعلم شيئاً ؟ إن هذا كله دجل . ولكنى

لم أكد أجلس اليها وأعطيها المنديل حتى قلبته فى كفيها وقالت « هيء : لا تصدق ! ايش عرفها دى رخره ؟ معلهش ؟ يمكن يعطى سره لأضعف خلقه . مين عارف ؟ أهو حانشوف بعينا وسمع بودنتا . » وأقول لك الحق يا أختى لقد دهشت وخجلت من انكارى قدرتها على الانباء بالغيب ، وضحكت مستغربة لانها كانت تتكلم وهى مطرقة وكأنها تقرأ فى كتاب . »

فقالت نجيه

« ألم أقل لك ؟ ليس مثلها أحد ! كل من رآها يروى عنها الغرائب . ولكن ماذا قالت لك ؟ »

« قالت لي ؟ وهل تركت شيئاً لم تقله : حدثتنى عن شوشو وعن ابرهيم ابن خالتي وعن الدكتور محمود . ليس بالاسم طبعاً ولكن بالوصف . أقول . قالت لى « آه عاصبينى آه ، طيب ما علهش ، بكره عقله يرجع تقول يا رب اللى جرى ما كان ! لكن تقول إيه وتعيد إيه ، هو الصغير يطلع من اللحم ! هيء : لكن ده مش ممكن . ولا لما تشوف ابن العصفور . وازاي ده يجى ؟ ده كلام عقلا ولا مجانين ؟ لأ برده عقلا بس المكتوب على الجبين : وأهو عمل عملوه ولاد الحرام والسلام . »

نجيه مقاطعة « شوقى. شوقى يا أختى صحة صحيح ! وهل لم تصف لك شيئاً يفك العمل ؟ »

فقالت سميحة « آه ! قالت لى فى الآخر هاتى حجة أقرا لك

عليه ثم خذيها وأعطيها له ليأ كلها فيفك العمل باذن الله . فقلت لها انه مسافر و بعيد جداً فقالت انها تعرف ذلك ، فهاتى الحاجة أولا و بعد ذلك تكون ارادة الله »

فوضعت نحية كفها على خدها واتكأت بكوعها على ركبتها وقالت .

« ولكن أى حاجة ؟ ألم تفكرى في شيء يصلح ؟ »

فوقفت سميحة وهى تقول بصوت أعلى قليلا

« لقد فكرت في كل شيء ، وهل يربكنى شيء ؟ »

ثم مالت فوق أختها وقالت .

« فكرت أن أشترى شوكولاته — صندوق كبير يصلح أن يكون هدية . أقدمه لها تقرأ عليه ثم أرسله له فى البوستة اذا كان لا زال باقيا فى الاقصر . فما قولك ؟ »

فمدت نحية يدها حتى لمس رأس أختها ومسحتها وقالت لهجة الاعجاب

« يحرسك ربى من العين . يحرسك ربى من العين »

و تمشت يميناً وشمالا

— ٢ —

قال الشيخ على لما سمع هذا

« همم ! شكولاته مسحوره ! تحسب فيها ابراهيم ! »

واستوى قاعداً فى السرير . وكان الشيخ على — على الرغم من نشأته الازهرية واختلاطه الدائم بالفلاحين والعوام وخرافاتهم وأوهامهم — لا يؤمن بشيء من ذلك ولا يطيق الصبر عليه ، وقد هاجه أن عرف أن زوجته أغرت اختها بالخروج خلسة فى البكور والالتجاء إلى امرأة سوقية دجالة ، وأنها هدمت بذلك كل ما بناه التعليم الحديث ، وزاد غضبه أن زوجته تتغفله وتدور من وراء خديعته وتلجأ إلى مثل هذه السخافات معتقدة أنها ستجديها وأنها ستحمل ابرهيم على الاقتناع بالتزوج من سميحة ، فهى إذن لم تعبأ برأيه ولم تكترث لنصيحته ولم تحفل بما أمرها به من الكف عن محاولة التقريب بين ابرهيم وسميحة ، ولم تصدقه حين قال لها أن ابرهيم لا يطيق سميحة وأنه انما يحب شوشو ، ثم هى لا يكفيها أنها حالت بين شوشو وابرهيم ، وأنها رفضت وساطته وكان واجبها أن تطيعه ، وأن اطلقت لسانها بما اثار ابرهيم إلى الاقصر وهو موغر الصدر مهيض الكرامة ، وأن جعلت ابرهيم حقيقا أن يعتقد أن الشيخ على لا رأى له ولا ارادة ولا سلطان له فى بيته ، لا يكفيها كل هذا ، بل يجب أيضا أن تتعلق بالسحر « والكتابة » وتجر اختها معها ، وتعلمها هذا الكلام الفارغ وتغريها بهذه المساخر التى لا تليق .

وهز الشيخ على رأسه ، وهو يفكر فى هذا ، ويتأمل ما صار اليه أمره مع زوجته من الفتور ، ومع سميحة من الكراهة

والنفور ، وانثنى خاطره إلى شوشو المسكينة التى لا صديق لها ولا معين سواه فى هذا البيت ، والتى لا تبارح غرفتها مادام هو بعيدا عن البيت ، حتى حال لونها وغارت عيناها ونهضم وجهها وفقد جسمها نشاطه ولينه ومرونته .

وصفق .

فلم تدخل زوجته ، فقد صار لا يحب أن يراها وإذا جاءت اليه صرفها من غير أن يرفع وجهه اليها وأمرها أن تدعو الخادمة.

ودخلت الخادمة فقال وهو مطرق

« شوشو »

نخرجت فى طلبها

ودخلت « زوزو » ابنه وقالت

— بابا

— نعم

ورفعها اليه وأجلسها على رجليه ـ فوق اللحاف . وقبلها

— متى نذهب إلى أبو قير ؟ .

— اليوم

— صحيح ؟

وصفقت بيديها الصغيرتين ثم نهضت على ركبتيها وطوقته وأوسعته تقبيلا فى عينيه وأنفه وخديه وأذنيه

ونقرت شوشو على البـاب ثم دخلت متثاقلة متحاملة تجر

رجليها ، وعلى شفتيها ابتسامة ليست فى عينيها فمد لها الشيخ على ذراعيه وقد فاض لها قلبه الكبير بالعطف والحب فأسرعت إلى يمناه وأهوت عليها تلثمها فانتزعها وقال وهو يتكلف الابتسام

« بل هنا . أسرعى فإن جلدة وجهى تأكلنى »

فابتسمت له وقد شعرت بشىء من التسرية فى حضرته ، وطبعت على خده قبلة نبوية صامتة ثم مالت إلى زوزو وعانقتها ولثمتها كأنها تفيض عليها من ذلك الحب الدفين فى صدرها المحبوس بين ضلوعها، واغرورقت عينا الشيخ على وهو يراهما وقد تعلقت كل منهما بالأخرى ثم رفع وجهه إلى السقف وقال متمتما « الله يجازيك يا نجية . الله يجازيك يا نجية ! »

ثم ضبط نفسه وكبح عاطفته وقال

« شوشو »

فلفتت اليه وجهها الساكن الحزين وقالت

« نعم » ولم تزد

فقال وهو يرد عنها زوزو

« زوزو تقترح أن نذهب إلى أبى قير ونقضى بقية النهار هناك وقد وعدتها فما قولك ؟ »

فقالت « أمرك »

فقال وهو يميل نحوها ويكاد السرير يميل معه

« وأنت معنا ؟ قولى نعم »

ولـكنها لم تقل نعم ، وانما قالت كالمستغربة .

« أنا ؟ حاضر »

فاحس الشيخ على كأن بعض ضلوعه يتقصف من فرط التوجع لما غير أنه ملك نفسه وقال

« لا أراك يسرك هذا »

فقالت بلهجة من ينكر أن شيئاً يسره أو الساخر من أن فى الدنيا ما يسر .

« يسرنى ؟ أوه . لماذا لا يسرنى ؟ »

فلجأ الشيخ على إلى المزاح ليرفه عن نفســه وعن شوشو أيضا وقال وهو يقلد فتورها ويبالغ فى التقليد

« لانك تقولين « أنا ! حاضر ! » هكذا »

فابتسمت شوشو — بشفتيها فقط ، فقد خبا الضياء الذى كان فى عينيها ولم يبق لهما إلا ظلام العمق ، وقالت

« ماذا كان ينبغى أن أقول إذن ؟ »

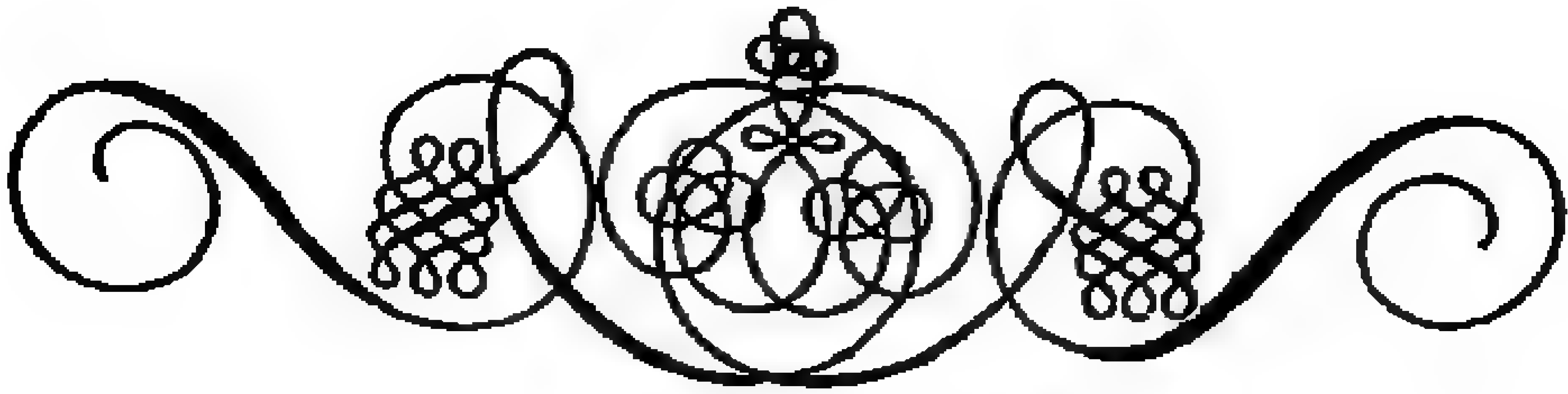
فمضى الشيخ على فى مزاحه وإن كان قلبه يتمزق وقال

« لا تقولى شيئا . كان ينبغى أن تقبلى على وتطوقينى بذراعيك وتقبلينى . هنا وهنا . هيه ؟ »

فضحكت ، ورنت ضحكتها فضية النبرات ، ولـكنها كانت ضحكة قصيرة وكأنما اختصرتها شوشو ، واستغربتها ، ولـكن

الباعث على الضحك لم يكن قد انقطع مع الضحكة ، فنظرت إلى ذراعيهـا ممدودتين أمامها كأنما كانت تقيسهما لترى أيكفيان لتطويق هـذه « الدبة » ، وجال برأس الشيخ على خاطر كهذا فقهقه فارتج السرير وفزعت زوزو فى أول الامر ثم أدركت أنه إنما يضحك فتهافتت على اللحاف ودفنت وجهها بين طياته وهى تضحك مسرورة جذلة .





الفصل الثالث

« من هذه الطالعة من البرية ؟ »

— ١ —

مضى أسبوع على ابراهيم وهو فى الاقصر — وحده — لا يعرف أحدا ولا يعرفه أحد سوى موظفى الفندق الذين افضى اليهم — كما هى العادة — باسمه ومهنته وما إلى ذلك، حتى طعامه كان يتناوله وحده فى أوقاته على مائدة صغيرة أصر على أن ينفرد بها على الرغم من ازدحام الفندق بالاجانب من كل أمة وبالمصريين كذلك ، وقد لفت الانظار اليه ايثاره العزلة وحرصه عليها وذهوله عن كل ما يجرى حوله كأنه لا يرى ولا يسمع ، واكبابه على القراءة والكتابة ، وعنايته بالآثار ، وقد التقى به كثيرمن النزلاء ـ رجالاونساء ـ فى معبدى الاقصروالكرنك وفى وادى الملوك ولاحظوا نفوره من الناس وشرود نظرته ، واستغراق خواطره له ، فلهجوا بأمره فيما بينهم وتلاغطوا بحديثه وهو غافل معرض عنهم كأنه ليس من بنى الانسان ، وتساءلوا عنه ودفع الفضول بعضهم فسأل عنه كاتب الفندق

فعلموا منه كل ما هو مدون في سجله — وما أقل ذلك — وما كادوا يعرفون أنه اديب وكاتب حتى استفاض الخبر وتجسم الأمر وصارت لابرهيم شهرة واحترام لم يكن يدرى بهما فى هذا الفندق ، ولو عرف الحقيقة لرحل للتو والساعة

واتفق انه كان عائداً مرة من وادى الملكات، وكانت الشمس قد مالت إلى المغيب فلما وصل إلى حيث التمثالان الكبيران قائمان بين الزروع حانت منه التفاتة اليهما فاذا على الحشائش فتاة مصرية الوجه ولكنها فى ثياب افرنجية وقد مدت رجليها واسندت ظهرها إلى قاعدة تمثال وحدجت الافق بنظرها فكبح البغل الذى يجر عربته — وكانت من النوع الذى يسمونه «السكاره» وهى مركبة مكشوفة تسع اثنين على عجلتين عريضتين — ووثب الى الارض وقد طاف برأسه أن الفتاة متعبة وأنها تستريح ، وتقدم اليها وعرض عليها مركبته ، ولكنها شكرته ورفضت، مؤكدة له أنها لامتعبة ولا تائهة وأن له أن يطمئن وأن يتق أنها ستعود سالمة . فعاد

وكانت الفتاة أقرب الى الطول منها إلى القصر ، وكان قدها نحيلا ولكن جسمها ناضج، ووجهها ظريف الحركة حلو التعبير ، وليس فى مظهرها ولا فى ثيابها ما يدل على العامية ، وكان لونها على سمرته رائقاصافيا ، ومع أنها كانت فى رأى العين صغيرة السن فقد كان فى سيماها ما ينبىء أنها فكرت كثيرا وعرفت فوق

ما يعرف أترابهـا ، وكانت معارف محياها دقيقة جميلة ولـكنه محيا أجمل ما فيه ما ينطق به ، ولعل السر فى ذلك أو الفضل فيه راجع إلى عينيها وفمها ، فقد كانت العينان عسليتين وأهدابهما طويلة ، ولم تكن العـين واسعة ولـكنه لم يكن فيها شيء من المـكر ، وكانت إذا رفعتها فجأة بباعث من الدهشة أو السرور أو الغضب أو غير ذلك لا يسع المرء إلا أن يقتنع بجمالها وفتنتها ، وكان حاجباها كثيفين ومقوسين ، وجبينها واسعا عريضا يخيل للمرء أن لصاحبته ملكة شعرية ، وعليه من شعرها الأسود خصل متلوية يعبث بها النسيم . ولـكن أغرب ما فيها فمها ، ذلك أنه لم يكن من الصغر بحيث يوقع فى روع المرء معنى السذاجة والخفة ، ولا من الـكبر بحيث يفسد تناسب الوجه وحسنه ، ولـكن الشفتين كانتا حادتين حاسمتين بلردتين ، وكان لونهما سريا ولـكنهما لا يفتران عفوا مع كل خاطر ، وإنما يتحركان بالارادة . وفى هاتين الشفتين ، وفى صـلابتهما على الرغم من لينهما ، شيء يجعل الفتاة تبدو اكبر مما هى فى الواقع ، فعيناها البراقتان العسليتان وخداها المستديران — هذه هى كل معـارف الفتاة الصغيرة ، أما جبينها وفمها فتلك معارف المرأة التى خلفت الشباب وراءها ودبت بها الرجل بين وعور الحياة .

وشاءت الاقدار أن تمطر السماء فى ذلك المساء رذاذاً ضعيفاً بعد أن ركب ابراهيم الزورق وهم صاحبه أن يدفعه إلى شاطىء

الاقصر قبالة الفندق ، وقلما ينزل من المطر كثير أو قليل هنالك ، فذكر ابراهيم الفتاة الجالسة فوق الحشائش المستندة إلى التمثال ، فأسرع إلى سائق المركبة وأمره أن يعود اليها ليقلها ، ومضى هو بزورقه دون أن ينتظرها أو يفكر فيها بعد ذلك .

— ٢ —

دخل ابراهيم حجرة الطعام الفسيحة متأخراً فى تلك الليلة ، وجلس إلى مائدته كعادته من غير أن يلتفت يميناً أو شمالا ، وكانت الفتاة على مائدة أخرى قريبة منه ولكنه لم يرها ولعله لو رآها لما حفلها ، وكان جائعاً والوان الطعام شهية والنبيذ حسناً ، فأقبل عليه يلتهمه بشره غير معهود فيه ، ولما قارب الانتهاء طلب أن ترسل اليه القهوة فى حجرة المطالعة ونهض .

وكان يريد أن يكتب رسالة إلى امه ، فتناول القلم حرى بضعة سطور بلا توقف ، ثم أمسك وأبى ـ أى القلم ـ أن يخط حرفاً ، فقرأ ما كتب وزاد نقطة هنا ووضح حرفاً هناك ، وانه لكذلك واذا بالخادم يضع أمامه صينية عليها أبريق فيه القهوة ، وإلى جانبها فنجانتان . وخرج الخادم وابراهيم يفكر فى رسالته التى استعصت كتابتها عليه فجأة ، ثم هم بأن يصب القهوة فرأى الفنجانتين فصده هذا ، وخطر له ان الخادم ربما كان قد أخطأ

وجاءه بقهوة سواه ، ثم قال لنفسه « سيرجع الآن بعد أن يفطن إلى خطأه» وراح ينتظر ، ولكن الخادم لم يرجع ومضت دقائق خيلت أطول مما هي ، وخاف أن تبرد القهوة وتفسد ، وهو يحبها حارة ، فقال لنفسه « انظر فى ابريقها فان كان ما فيه قليلا فهو لى وحدى ، وان كان كثيراً فلا شك ان هناك خطأ . »

وتناول الابريق ورفع الغطاء فاذا به ملآن

ولما رفع وجهه عن الوعاء التقت عينه بعين الفتاة التى صادفها فى الطريق وأرسل اليها المركبة فارتد إلى الوراء وكاد الابريق الصغير يسقط من يده ولكنه استطاع بجهد أن ينهض والابريق بين أصابعه وقال

« لقد كنت انظر فى الابريق هل ما فيه لواحد أو لاثنين »

فنظرت اليه مستغربة ثم رأت الفنجانتين ففهمت وابتسمت وقالت :

« ما أغباه ! لقد أمرته أن يرسل لى القهوة هنا فاختصر المسألة على مايظهر ! وقد انتظرت كل هذه المدة ؟ »

فقال ابراهيم « لقد كنت أفحص الابريق الآن وكان ذلك أشبه بالمقامرة . فاذا كانت القهوة لواحد أهملت الفنجانة الآخرى واذا كانت لاثنين انتظرت »

فابتسمت مرة أخرى وجلست قبالته فقال

« بسكر ؟ »

فقالت « كلا ! لقد كنت أريد أن أشكرك »

فقال مغالطا « على الانتظار ؟ »

قالت « كلا . بل على ... »

فقال مقاطعا وقد أدرك مرادها

« على أنى لم أشرب القهوه كلها ؟ »

فابتسمت مرة ثالثة وقد راقها أنه يحاورها فرارا من الشكر وقالت .

« الم تمر بى اليوم عائدا من وادى الملوك ؟ »

قال « نعم برغمى ! »

ففتحت عينيها جدا وقالت « برغمك ؟ »

قال « لقد أردت أن أعرف لماذا تجلسين عند التمثالين على الحشائش فى المطر ؟ اتسمحين لى أن ادخن ؟ »

فاذنت له بابتسامة وفتحت حقيبتها واخرجت منها علبة سجائر مذهبة وقالت بعد أن اشعل لها السيجارة

« ولماذا لا أجلس هناك ... فى المطر ؟ »

فقال « لا أدرى . سوى انى لا أعرف أن النـاس يحبون التعرض للمطر . على آنك لم تكونى تعرفين أنها ستمطر . »

فقالت « هذا صحيح . ولـكنى أحب المطر . وما أقل من يحبونه أو يذكرونه بالخير . والفلاحون ... »

فقال « انه فى مصر دائما أما اكثر من اللازم وإما أقل من اللازم . »

فقالت « ان المطر يعبد فى بعض البلاد »

فقال وهو يرسل الدخان ولا ينظر اليها

« أن ذلك يتوقف على المطر »

قالت « ماذا تعنى ؟ »

قال « هل يفيد الأرض خضرة أو يفيد الناس أرزوما تزم . أما أنا فاصارحك انى أحب أن أنظر اليه منهمرا — ولكن من وراء زجاج النافذة »

وكانا قد شربا القهوة — باردة — فنهضا وذهبا يتمشيان فى حديقة الفندق الواسعة والناس ينظرون اليهما فى دهشة كأنما استغربوا أن يروا ابرهيم ومعه انسان ، والتفتت اليه فجأة وقالت « لقد كنت أفكر ... »

فقال « وانا كذلك »

فمضت فى كلامها من غير أن تعبأ بمقاطعته

« كنت أفكر فى أنك أقل الناس فضولا أو أكثرهم عدم مبالاة . »

فقال « أنا ؟ ربما ! أعنى أنى حقيقة لا أبالى سوى ما أنا فيه ولا يجاوز فضولى ما تأخذه عينى »

فالتفتت اليه لتتبين فى وجهه هل يتكلم جادا أوهو يريد أن

يثنى عليها ضمنا ، ولكن وجهه كان خاليا من كل امارات المزاح ، فصمتت هنيهة ثم قالت

« لقد كان ينبغى أن تسألنى عن السبب . إن المرأة حين تتهم الرجل بقلة الفضول أو قلة المبالاة يكون معنى هـذا أنها تريد أن تخبره بشىء »

فقال « اهذا صحيح ؟ »

فهزت رأسها أن نعم ، وخيل اليه أن هذه الهزة قد رفعت ما بينهما من الكلفة

وقال « اذن ارجو أن تخبرينى »

فقالت « انك تتعب المحادث — لاتنتهز فرص الكلام التى يتيحها لك »

وابتسمت ، فقال

« ولماذا ترينني رجلا عاديا جدا ؟ »

قالت « لم أقل ذلك . انما قلت أنك قليل الاكتراث قليل الفضول »

فقال « ولماذا ؟ اعنى أرجو أن تذكرى لى السبب »

قالت « الم يخطر لك أن تعرف من أنا ؟ »

فقال بلهجة الجد « ولكنك عابدة المطر . فماذا أريد أن أعرف فوق ذلك ؟ »

فضحكت وهى تقول

« لـكن أبي لم يسمني هذا الاسم ! »

فقال « ان اباءنا لا يعرفوننا كما نحن »

فهزت رأسها موافقة فقال

« اذا كنت تحبين أن أعرف من أنت ، فما عليك الا أن تخبريني »

فقالت « اذن أنت لا تعرف اسمي ؟ »

فقال « لا أعرف الاسم الذي اختاره لك ابوك »

فقالت « اسمي ... اسمي .. ليلى ... »

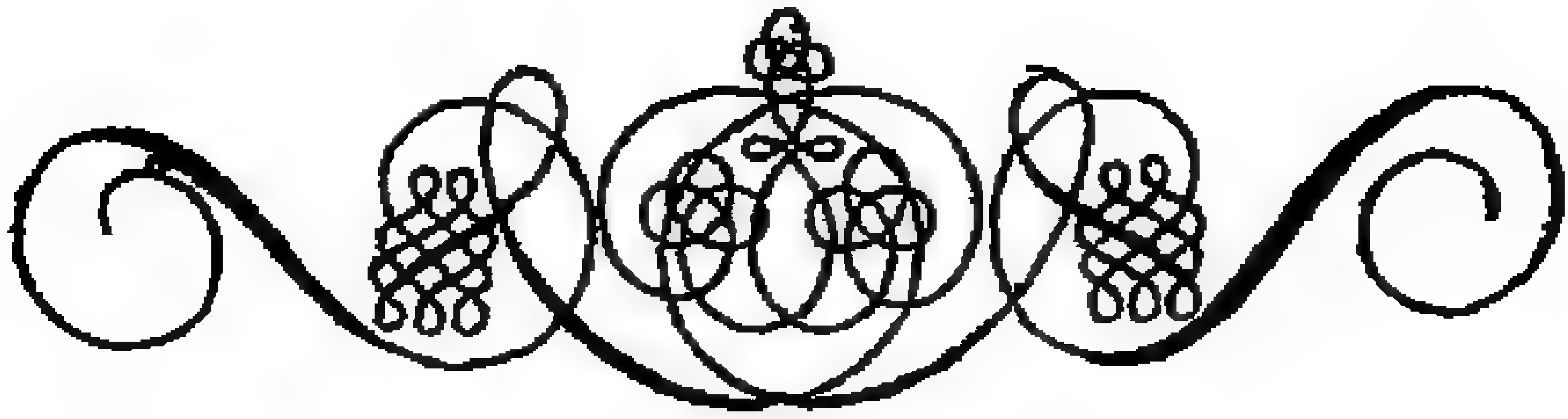
فقال « اسم جميل ولا شك ... ليلى... نعم، ولـكني أرجو أن تظلي عابدة المطر ؟ »

فقالت « لماذا ؟ »

قال « اخشى ... اخشى ... أن اصبح أنا المجنون .. »

فضحكا ، وعرفها بنفسه وهما راجعان الى الفندق .





الفصل الرابع

« إن تكن سوراً فنبني عليها برج فضة ،
وان تكن بابا فنحصرها بألواح أرز »

— ١ —

بدأ ابراهيم يلاحظ أن الناس — ونعني النازلين في الفندق — يتبعونه نظراتهم ، وان رؤوسهم تتدانى حين يظهر في مدخل الفندق أو على سلم الحديقة ، فظن أن معرفته بليلى هي التي يرجع اليها أكثراثهم له والتفاتهم اليه ، وصافح مسمعه كلمات من هنا وههنا تبين منها ان نزول هذه الفتاة في الفندق حادثة ، ولكنه لم يستطع أن يفهم لماذا ، لأنه لم يكن يعرف عنها أكثر من أن اسمها ليلى وأنها صارت على الأيام تصحبه في روحاته وغدواته ،

ومن العسير أن تقول ماذا كان احساس ابراهيم نحوها على الدقة ، فقد كان يجد في محضرها روحا وايناسا ويحس أن الوحشة قد زايلته ، ولكنه لم يكن يشتاقها حين تغيب وكان ربما قضى

النهار كله وحده فلا يفتقدها ، حتى إذا التقى بها شاع فى نفسه السرور، ولم يعن هو بأن يحلل عواطفه، لأنه ، على الأرجح ، لم يشعر بالحاجة الى ذلك ، ولم يحس بان لهذه العواطف الحاحا أو ضغطا ، وكل ما هنالك أن وقدة نفسه كانت تهدأ حين يراها ويحادثها ، وان الاضطراب الذى فى صدره كان يسكن ، وأن ألسنة الهواتف كانت تنقطع ، وان النجاوى كانت تخفت ، وانه كان كالذى صهدته الشمس ورأى شجرة فنواء فمال فيها يستروح فى ظلها

وراق ابراهيم بعد أن فطن الى اهتمام الناس بليلى أن يلاحظ مظاهر ذلك ، وان كان قد ظل عاجزا عن تعليل هذا كله ، لأن الفتاة مصرية واكثر النزلاء أجانب ، على أن الاجانب كانوا محتشمين فى التفاتهم اليها وكان الامر لا يعدو التهامس والنظر - خلسة - على الاكثر - أما المصريون فكانوا أجرأ ، وكان أمرهم معها يشبه المطاردة ، وقد رأى ابراهيم أحدهم مرة يعترض طريقها ويخرج من جيبه منديلا ، فسقطت ورقة نقدية من فئة الخمسة الجنيهات كأنها كانت فى هذا الجيب مصادفة او كأنما صاحبها قد نسيها فيه ، فسارت ليلى فى طريقها وداست الورقة بحذائها كأنما كانت بعض مافى البساط من النقوش ولم تعر لا الورقة ولا صاحبها أدنى نظرة .

وفى مرة أخرى كانت ليلى تتكلم على التليفون فاندفع شاب الى غرفته وفتح بابها ولما رأى ليلى شرع يعتذر اليهـا ، كأن إماوقع منه كان عفوا ، ولـكن ليـلى مضت فى حديثهـا على التليفون وكأن الباب لم يفتح وكأنما لاأحد فى مدخله يكلمها معتذرا متأسفا .

وكان هناك آخر لاتجلس ليلى فى مكان الا دار به ينظر حوله حبا عن شىء كأنما من خواص مايفقده ، أن يكون على مقربة من ليلى .

ورجل آخر فى سن الـكهولة كان يخيل لابراهيم أنه يتحين فرصة ليخلع طربوشه ويضعه على الـكرسى الذى تهم ليلى بالقعود عليه ، لتضطرها الى الاعتذار أو الى الاصغاء اليه وهو يعتذر لها وهكذا ...

وعنى ابراهيم بأن يحصى هؤلاء المصريين الذين يتحككون بليلى فعد منهم تسعة عشر فأطلق عليهم رقمهم ، وسماهم التسعة عشر ، وكانوا جميعاً تنقصهم شجاعة الاقدام على مخاطبتها أو لعل الاصح أن الشجاعة لم تكن تعوزهم ولـكن شيئا فى وجه ليلى وهيئتها كان يصدهم ويزجرهم ، فقد كان فى هيئتها احتجاز وعلى وجهها وقار مستغرب ممن هى فى مثل سنها ، وكان النـاظر اليها لايسعه الا أن يحس ذلك .

ومن غريب ماحدث أن فرص التعرف بالمصريين كثرت

فجأة بعد أن نزلت ليلى ، فى الفندق ، وصاحبت ابراهيم ، فلم يمض يومان حتى عرف ابراهيم مواطنيه جميعاً ، وصار له بينهم احترام لم يعهده من قبل ، فاذا دخل الصالون ، ألح عليه كل من يكون موجودا منهم أن يجلس مكانه ، وكثر عرض السجاير عليه وتقديمها اليه ، والتبرع باشعال الكبريت له ، وكان هو يعجب لهذا فى أول الامر ، ولكنه لم يلبث أن عرف السر لما تعددت الاسئلة عن ليلى فعلم أنه ليس محترماً لذاته ، وأن مجده مستعار والضوء الذى عليه منعكس عن تلك المرآة . .

وفى رابع يوم لاتصال ابراهيم بليلى ، كان عائداً قبيل الظهر من حديقة الفندق فقابلها على السلم فقال لها وهما يعودان الى الحديقة ، بعد كلام متقطع

« اسمحى لى أن أؤكد لك أنى لا أريد أن أثقل عليك بوجودى ولكنى أحب أن أسألك كم ساعة فى اليوم تستطيعين أن تحتملى ظلى ؟ »

وكان يبتسم ، وفى وجهه على مايدل أن للسؤال غرضا آخر وانه ليس سوى تمهيد لسواه ، فقالت وهى حائرة وعاجزة عن التكهن ، فقد ألفت منه اللف والمحاورة والمفاجأة

« انى هنا كما تعلم وحدى »

فقال وهو ينكت الارض بكعب حذائه أثناء السير

« ان هذا لايكفى ، ثم أنه خبر لاجديد فيه . فهل لك أن تجيبى ؟ »

فقالت بلهجة رقيقة

« ألا تختصر الطريق وتفضى الى بالغرض من السؤ ـ

قال « حسنا . سأفعل . انى أريد أن أختار أحد الشرين ؟ »

فرفعت حاجبيها مستغربة وفتحت عينيها جداً وقالت

« أحد الشرين »

فابتسم وهو يقول « معذرة . لقد كنت أريد أن أقول أن عليك أنت أن تختارى أحد الشرين »

قالت « هذا أبعث على الدهشة . أى شرين ؟ »

قال « أنا أو التسعة عشر »

فرددت قوله « انت أو التسعة عشر ؟ ماذا تعنى ؟ »

قال « نعم . فان فى وسعى أن أدخن كالمدخنة ، وأن أسبح فى البحور كالسمكة ، وأن آكل وأنام وأفعل مابدا لى — كل ذلك من غير أن أنفق مليما . »

وسكت فقالت « كيف ؟ وما علاقة هذا بسؤلك ؟ »

قال « انتظرى . ولكن هذا يكلفنى جهداً إذا كان لايكلفنى مالا ، وأخلق بالمدخنة أن ينقطع مددها و ببحر الخمر أن يجف ، وبالموائد أن يطير عنها كل ما عليها من الالوان اذا لم أفعل

ماهو متوقع منى فى نظير ذلك كله ... أعنى بعبارة صريحة إذا لم أعرفك بالتسعة عشر ! »

فصاحت « ما أفظع هذا ! »

قال « لا تفزعى . فلن أفعل شيئاً من هذا ولكن هنا تسعة عشر مصرياً يريدون أن يعرفوك ... لقد عددتهم ... واحداً واحداً ... وهناك غيرهم ولكنهم — معذرة — لا يعبأون بك ... فاذا عرفوك ... »

فقاطعته صائحة « لا تتم هذا الكلام ... أرجو ... من فضلك »

قال « إذن فلنتعاهد . »

فصمتت قليلا ثم قالت « نتعاهد ؟ »

قال « نعم . نتمشى معا نحو ساعة كل يوم هنا أو فى أى مكان آخر تختارينه ، وفى مقابلة ذلك أتعهد بأن لا أعرفك بأحد من التسعة عشر »

فأطرقت هنيهة كأنما تفكر وقال وهو يستحثها

« اختارى أخف الشرين : أنا واحد وهم تسعة عشر »

فقالت « لا بأس قد قبلت المعاهدة . ولكن يجب أن تقينى هؤلاء (وضحكت) التسعة عشر ! »

قال « لا تخاف . سأشترى مدفعاً رشاشاً اذا احتاج الامر إلى ذلك »

— ٢ —

وانتقلت بعد ذلك الى مائدته وصارا يتناولان الطعام معاً وتوثقت أواصر الصداقة بينهما وصارا لا يفترقان الا ليستريح كل منهما أو ينام فى غرفته . غير أنه بقى لا يعرفهـا الا باسم ليلى ، وهى لا تعرفه الا باسم ابراهيم ، والغريب أنه لم ينشأ مايشعرهما بالحاجة الى استيفاء الاسماء ولم يعرض بينهما ما يدعو الى التحدث عن الماضى . وكانا يتنزهان ليلة على النيل فى زورق فقالت وهى مدلية يدها للماء

« انى أكره الرجال »

فمضى ابراهيم يدخن ولم يجب كأن الامر لا يعنيه والخطاب ليس موجهاً اليه ، فالتفتت اليه وعلى شفتيها ابتسامة عذبة وقالت

« أحسبنى أسأت الادب ؟ »

فقال « كلا وانى لأعذرك كلما ذكرت التسعة عشر وأعطف عليك أيضاً »

فالتمعت فى عينيها نظرة خبيثة وهى تقول

« من حسن الحظ أن الرقم لم يبلغ العشرين . »

فقال ، وعينه الى السماء ، وعلى وجهه آيات الذهول

« من يدرى ؟ على أن الواحد المتمم للعشرين . »

وسكت .

فسألته ، وهى تدنو منه

« لماذا تقول من يدرى ؟ »

فأرسلها ضحكة مقرقعة وقال ، وهل فى الدنيا من يدرى شيئاً ؟ قد يكون مذهب المرء واضحاً والطريق أمامه ظاهراً . ولكن الغاية التى يصل اليها بعد الجهد والعناء من الذى يستطيع أن يقول أنها هى التى كان يقصد اليها حين أخذ الطريق ؟ ؟ »

وأحس أن كلامه فيه من الجد اكثر مما ينبغى فقال « ليس لنا إلا الحاضر يا ليلى ، والواحد الذى يمكن أن يصبح متمها للعشرين مصمم على اغتنام الحاضر الذى هو فيه » .

ولم يعودا يريان الفندق و (المعبد) ، والقمر يريق ضوءه على صفحة النهر ، والنسيم البليل يصافح خديهما ، وأخذت الاقصر تنأى عنهما وتغيب فى الظلام كانما اسلمتهما الى النهر الخالد . وتناول ابرهيم المجدافين بعد أن استراح قليلا فضرب بهما الماء فانطلق الزورق يشقه ويعوم على ضوء القمر مخلفاً وراءه خطا طويلا

فقالت ليلى ، وقد أحست فجأة أن قوة لاتغالب قد استولت عليها واستبدت بها

« دعنى أجدف فانى أحب ذلك »

فابتسم وقال « اذن فاجلسى أمامى . . هنا . » .

ونهض هو ووقف فى وسط الزورق ، ومد اليها يده

ليساعدها على الخطو ، وجلست تجدف ، ولكنها كانت تخالط ، وتضرب الماء حفقاً خفيفاً بمجداف بعد مجداف ، وكان ضربها ، لخفته على وجه الماء ، فكان رشاشه يطير الى ابراهيم ، فيضحك والزورق يضطرب ويميل كل مميل ، وهكذا سبحا على متن النهر ، والقمر يرسل أشعته على وجهها الاسمر الصافي وحاجبيها الكثيفين السوداوين ، وعينيها الضيقتين البراقتين ، فخيل لابرهيم وهو قاعد أمامها انهما مقبلان على أرض مسحورة منعزلة عن الناس خارجة عن دائرة القانون والعقل أيضاً

وقالت ليلى وقد أراحت طرفي المجدافين على ركبتيها

« ما أجمل هذه الليلة ! »

فقال ابراهيم بصوت خفيض ولكنه متهدج

« نعم أليست كذلك ؟ »

فانفجرت ضاحكة وقالت وهي ترد عصبتها عن وجهها الى رأسها

« هل تعلم ؟ إني .. »

قال « ماذا ؟ »

قالت « أحس برغبة ملحة في أن أخلع هذه القبعة وألقيها في الماء وأرسل جمم شعري — أرسلها للنسيم والقمر .. »

فقال ابراهيم بلهجة فيها من الحنو بركات

« اذن فافعلي »

ولـكنها صمتت قلقة ، ولم تستطع أن ترسل نفسها على سجيتها فقال ابراهيم

« انك تخجلين أن تطيعي رغباتك ، وليس خجلك لانى معك وانى أرى ماتفعلين ، فلو كنت وحدك لمـا اجترأت أن تطلقى لنفسك العنان ، وأن تفعلى مايهتف به جسمك ، لانك كغيرك — مثلي ومثل الناس جميعا — تؤثرين أن توهمى نفسك أنك فوق الحيـاة وفوق دواعيهـا وان كنت تعلمين فى أعمق أعماق سريرتك أنك لست الا مظهراً ضئيلا من مظاهرها ، وان كل مقاومة منك لطبيعتها وسننها الخالدة وأحكامها المبرمة التى لامفر منها ، مجلبة للشقاء والالم . لماذا تحسين الخجل والعار من رغباتك الطبيعية ؟ لماذا تخفينها وتخنقينها ؟ ان القوى المحبوسة فى النفس تتطلب منفذا ، والجسم ينشد السرور واللذة ويتعذب من جراء صده وحرمانه »

فقالت ليلى « نعم . نعم . »

وغزت رأسها كتائب من الخواطر الجديدة ، وتلفتت حولها ، وعينـا تضىء ، وتغلغل الى أعماق نفسها جمـال الليـل والقمر الساهم وحس النهر الجارى بين القفار الحالمة ، ولج بهـا الشوق الى تجربة القدرة على افادة السرور بلا خجل أو تردد .

ومضى ابراهيم فى كلامه فقال « انى أحلم ـ أحلم فقط مع الاسف ـ بعصر لايحول فيه شىء بين الانسان وسعادته ، عصر

يستطيع فيه أن يباشر حريته التى لاتعتدى على حرية سواه ، عصر يستقطر فيه ويعتصر من الحياة كل متعها فى جرأة وحرية»

فسألته « ولكن كيف يكون ذلك ، أنرجع الى الهمجية الاولى ؟ »

فقال « من قال ذلك ؟ كلا . ذلك كان عصرا سخيفاً ، ولم يكن الانسان فيه يقدر حريته أو يعرف قيمتها أو حدودها فكانت الحرية فوضى ، وكان هو لايستحق الحرية التى لايفهمها ولا يحترمها ولا يحسن الاستمتاع بها ؛ وعصرنا الحاضر أيضا سخيف ، لان التقاليد الخاطئة تتحكم فى العقل تحكمها فى الجسم ولانه تنقصه الهمة والذكاء والرشد . وانما أحلم بعصر لايستحيى الانسان فيه من نفسه ومن غرائزه المهذبة ومن مطالب هذه الغرائز ، لايخجل أن يرمى طربوشه اذا شاء ذلك وأن يمشى عارى الرأس اذا أحس أن هذا أكفل باشعاره الغبطة والروح ، ولا أن يثب فى الطرقات ويرقص فى الشارع أو يجلس بثيابه الانيقة على الحجارة أو التراب اذا اشتهى هذا ، لان الوثب والرقص والجلوس على التراب لايضير أحداً »

فسألته بلهفة كانما خافت أن يسترسل من غير أن يعرج على مافى رأسها

« ولكن ماذا عن الحب ؟ الا تعبود نه يفرضها علينا ؟ »

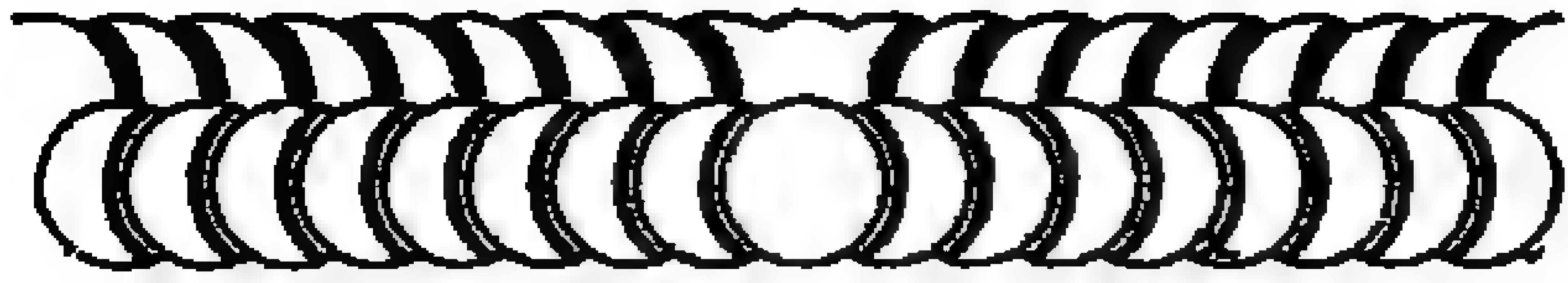
فاكفهر وجهه ولـكنه ضبط نفسه بسرعة وقال :

« الحب يفرض قيوداً ؟ لماذا ؟؟ ليس الحب هو الذى يفرض القيود علينا يافتاتى وانما هى الغيرة ، أتفهمين؟ انها الغيرة ؟ وليست الغيرة وحدها هى التى تفرض القيود ، بل فضول النـاس أيضاً وتدخلهم فيما لا يعنيهم ، وخوفنا نحن من فضول الغـير ، ذلك الفضول الذى نعبر عنه برأى الناس فينا . ما دخل الناس فى حبى وبغضى وهو شىء يعنينى وحدى دونهم ؟ لماذا نخاف رأى الناس أو فضولهم ؟ »

فقالت لنفسها « لست أشعر بأى خوف الآن وأنا معك »

ونظرت الى ابراهيم كأنما تراه لأول مرة ، واستغربت انها تحسه قويا طاغيـاً وان كان فى رأى العين ضعيفاً يابس اللحم على العظام دابل الشفتين ساهم الوجه . وانكشف لعينيها ، وهى تنظر الى ابراهيم ، عالم بأسره من القوى الزاخرة والعواطف الفائرة فهل تدخـله ؟؟ وابتسمت لهذا السؤال ، وارتجفت أيضاً وهى تتخيل هذا العالم الذى تفتحت أبوابه لها . وكأنما أعدته بخاطرها أو أوحتـه اليه ، فاسرعت أنفاسه هو أيضـاً فصار يلهث كأنما كان يجرى ولـكنه كبح نفسه وتناول المجدافين وأهوى بهما على المـاء يضربه بسرعة وقوة فانطلق الزورق يفرق الماء وصار خريره منغما فى مسامعهما ، واقتربا من الشاطىء الغربى ، فأراح ابراهيم المجدافين وضرب بالثانى فمال الزورق

وبلغا الشاطىء ، فوقفا ووثب ابراهيم أولا ثم مد يده لليلى فوثبت الى جانبه ولكن الوثبة الى أرض غير مستوية أفقدتها توازنها فمالت الى ابراهيم وأمسكت بكتفه ووقعت بين ذراعيه وطال التصاقها به على غير قصد منها أو منه فاندلعت النار في دمائهما وخرجت من بين شفتيها آهة دهشة وسرور ، حارة ، واحتضنها وشد عليها ومادت الارض بهما وغامت الدنيا فى أعينهما وهمست فى أذنه وهو ينحنى بها على دهس الشاطىء « ماذا تصنع ؟ دعني بالله ! » ولكن الصوت كان خافتاً والانفاس كانت سريعة ، وصدرها كان يعلو ويهبط ويبغي صدره ، ولم يكن حولهما الا الليل المقمر والا رائحة النهر والاعشاب البليلة على حفافيه ، والا الجو يسخن تارة ويبترد أخرى وسكون عميق ، وفقد كلاهما وعيه ، وتراخت أعضاؤهما بعد قبلة طويلة اعتصرا فيها كل ما في دمائهما من نار .



الفصل الخامس

كلت عيني من الحزن ، وأعضائي كلها كالظل

« يوجد باطل يجرى على الارض أن يوجد
صديقون يصيبهم مثل عمل الاشرار »

— ١ —

ورسالتان بعثت بهما شوشو الى ابراهيم ومضت الايام ولم تتلق عليهما رداً ، وثالثه أنبأها الشيخ على أنه كتبها اليه ، ولا جواب أيضاً ، فما معنى هذا ؟ ؟ أيمكن أن يتلقى ابراهيم رسائل منها وأن يهمل الاجابة عليها ويدعها تمزق قلبها ؟؟ لم تعهد شوشو فى ابراهيم هذه القسوة ، نعم فيه جفوة ولكن لمن يكره ، وانه لقاس ولكن على نفسه حين يريد أن يحكمها ويردها على مكروهها ، وما ألفت منه شوشو إلا الحنو والرقة والترفق بهما حتى فى ساعات ثورته وغضبه ، وهل تنسى ليلتهما على سطح البيت ، وكلاهما يعلم أن لا أمل هناك وأن الفراق لا محالة غداً ؟ ألم يعاطها الحب صرفا ؟ ألم يكن أحنى عليها من أمها ؟

ولما جاء الغد ودعها وحدها دون أختيها ، حتى الخدم لم ينس أن يصافحهم واحداً واحداً وهو يبتسم ويمزح ، ولم يجبهم وجهه الا حين دعاه الشيخ على أن يسلم على نجيبة حينئذ فتمعر

عبس وقال : « قد خلعت ثوبى فكيف ألبسه ؟ قد غسلت رجلى فكيف أوسخهما ؟ » ولم يعبأ حتى بشعور الشيخ على ولم يحفل أن نجية زوجته ؟؟ فالذنب ذنب نجية وسميحة ، وسخط ابراهيم عليهما وحدهما ومقته لها دونها ، فكيف يعقل أن ترد ابراهيم رسائلها فلا يرد عليها

لابد اذن أن يكون ابراهيم قد زايل الاقصر ورحل عنها الى أسوان أو اسنا أو غيرها ، بل هذا هو المحقق ، فما يستطيع إلا أن يمل كل مكان ليس هواه به ! ولو كان يسعها هى أن تنتقل مثله لما أطاقت الاقامة فى مكان واحد الا أياما قليلات ، ولكانت تذهب من بلدة الى بلدة ، لعل التنقل يفيد سلوى ! آه ليت هذا فى وسعها ! اذن لأمكن أن تتجمل بالصبر ! اذن لهان عليها أن تحس التمزيق الذى فى صدرها ، والاظافر التى تقطع قلبها ، والنار التى تسدلع فى عروقها وتصليها الجحيم فى الدنيا ! اذن لنجت من رؤية أختها كل يوم — كل ساعة — كلما شاءتا هما أن تراها لا كلما شاءت هى ! اذن لما اضطرت أن تحتمل ما تكايدها به أختها سميحة التى صارت كأنها فى عرس : تلبس كل يوم معرضاً من معارضها تتجلى فيه ، ولا تدع شيئاً من زينتها وحليها إلا لبسته وبدت فى حفله وفى عينيها سرور الشماتة ، وفى قلبها حبور ينضح به وجهها ، هو سرور الشماتة وحبور الانتصار والفرحة بالخيبة التى منيت

بها. وهي أختي ! بنت أمي وأبي ، وأنا وهي من دم واحد ، وقد انحدرنا من أبوين اثنين !! من يصدق ؟ بماذا أسأت اليها ؟ أي شيء جنيته عليها ؟ ماذنبي أنا اذا كان ابراهيم لم يحبها ؟ نعم ، أنا أيضا أحبه ، ولكن هذا ليس من ذنوبي لديها ، فما أرى حبي له قد نفعني ، وانما ذنبي لديها أنه يحبني ، وذاك مالا حيلة لي فيه لو أن لي حيلة في نفسي ، ولقد جاهدت ـ علم الله ـ أن أصرفه عن طلبي وعن التقدم الى أختي بخطوبتي ، ولكنه لم يسمع لي ولم يعبأ بي ، وليته كان قد أطاع ! اذن لأمكن أن أصبر ، واثقة أنه يحبني ، راجية أن يجيء يوم يقرب فيه العيد ويسهل فيه الصعب أما الآن فلا أمل ! لا أمل ! حتى ولا في سطر منه أتعزى به . ياالهول الظلمة الراكدة التي تحف بي وتجثم على صدري وتخنقني ! ظلمة لا يضطرب فيها خيط ضئيل من النور ، ظلمة متحجرة لا ينفذ منها شعاع واحد من الأمل !

ولا بد لي من احتمال اختي هاتين . اختي بنتي أبوي ، أختي اللتين قضتا علي ، وسحقتا نفسي وخنقتا قلبي — لماذا ؟ لماذا ؟؟ وارتمت على السرير وبكت ، وراح كيانها كله يهتز ويرتجف ، وامتدت كفاها الى شعرها المرسل فشدتاه كأنما أرادت أن تقطعه ، وصرفت أسنانها وهي تحاول أن تملك نفسها وتزجر عينيها عن البكاء ، ثم استوت قائمة وهي تقول « لماذا ؟ لماذا ؟ »

ونقر الباب ففزعت الى المرآة فطالعها في صقالها وجه محتقن

وعينان منتفختان من البكاء وشعر منفوش فذعرت وأدركها العطف على نفسها ، ولم تدر ماذا تفعل ، ولكنها أسرعت إلى القلة فأخذت منها ماء فى حفنتها مسحت به وجهها وعينيها وتناولت منشفة ومضت الى الباب تفتحه .

لم تخدع المنشفة والماء عين الشيخ على فتناول كتفيها بين يديه وهو يقول لها بأرق لهجة ، وقلبه يتقطر

« هنا الى جانبى ، على السرير . »

وتولى هو عنها مسح وجهها بيمناه بينما كانت يسراه تربت لها كتفها اليسرى . ثم أسند رأسها الى صدره وجعل يمسح لها شعرها بكفه الكبيرة ويسويه ويرقده ، واستراحت هى الى ذلك فتركت رأسها كالطفلة على صدر أبيها ، ولكن الشيخ على لم يستطع أن يحبس حنوه الفائض فاغرورقت عينه وسقطت دمعة على جبين شوشو — حارة حامية فانتبهت ورفعت رأسها فأخذت عينيها الدموع المترقرقة فى جفنيه .

هذه الدمعة — هذه القطرة التى نزلت على جبينها — كانت لشوشو عزاء جميلا ، أدهشتها وأفرحتها وأحزنتها أيضاً ، وكانت على النار التى فى قلبها برداً ، وأشعرتها شيئاً من السلام والسكينة فنسيت نفسها لحظة ، وذهلت عن آلامها هنيهة ، ولم يبق أمامها الا هذا الرجل الضخم يبكى لها ويستعبر من أجلها ، وقلبه الكبير يحنو عليها ويتوجع لها ، فدهشت كما يدهش المرء أن

يرى جبلا ينقلع ، وفرحت بعطفه وتحننه ، وان كان لاشك عندها فى رثائه لها ، وأحزنها أنه يتألم ، وليست بفته كزوزو ، وأكبرت منه رقة قلبه ومروءة نفسه ، فنهضت وتناولت وجهه الكبير بين يديها الدقيقتين وطبعت بين عينيه قبلة شكر صادقة

وقال الشيخ على وهو ينهض .

« زوزو تنتظرنى فالحق بنا »

وخرج وتركها تصلح من شأنها .

لم يكن أغرب من منظر الشيخ على وبنته زوزو ، وهما يتقاذفان كرة صغيرة من المطاط ، وزوزو تحاوره بها وتلقيها اليه فى حيث لايكون ، الى اليمين جداً اذا كان هو الى اليسار ، والى اليسار اذا كان هو الى اليمين ، او تقذفها عالية فيتطلع اليها مترقبا هبوطها ليلقفها فتتسلل هى وتكون الى جانبه فاذا دنت الكرة منه فى سقوطها ، صاحت به « إيه » ودفعته بيديها وفى ظنها أن تقلقله ، وهو يلهث من الجرى الى كل ناحية وينفض عرقه وان كان الجو باردا ، ويخجل ان يقول لابنته « تعبت » ويعز عليه أن يخيب أملها فيه ، فيغالطها ويقترح لعبة أخرى لاتكلفه جريا ولا تتقاضاه وثبا ، وهى تصر على الكرة وتروح تدب برجليها على الارض على سبيل التأكيد أو الخوف من أن لايوافقها وتقول بسرعة كأنما تريد أن لاتدع له فرصة للكلام والاعتراض ، ووجهها مرفوع اليه حتى لتكاد تقع على ظهرها

« لا ياپا ، لا ياپاپا ، الكورة أحسن ، ماليش دعوة ، أنا مالى. تقف هنا وأنا هناك ، لك على ما أحدفهالك بعيد ، بشويش ، هيه ؟ اعمل معروف »

ولكن الحظ كان مؤاتياً لأبيها ، فقد ظهرت شوشو على رأس السلم ، ورآها الشيخ فنجا وفرح بنجاته ، وبهذه الفرصة للخلاص من غير أن يحتاج أن يؤلم ابنته برفض رجائها وتوسلها فانحنى عليها وتناولها ورفعها اليه بلا جهد ، وقبلها وأدار وجهها الى السلم وهي معلقة بين يديه فى الفضاء وقال

« خالتك شوشو »

فصفقت روزو ، ونسيت كرتها وتوسلاتها وسرورها الذى كانت تجيده من رؤية أبيها الضخم يعدو ولا يدرك الكرة ، ويلهث من هذا الجهد وإحدى يديه على وجهه يمسح بها العرق المتصبب والاخرى ممدودة لتلقف الكرة ، وان كانت لا تزال بعيدة — نسيت ذلك كله لما رأت شوشو خالتها ، ونازعتها نفسها أن تجرى اليها وأن تستقبلها عند السلم ، فراحت تحرك رجليها فى الفضاء مسرعة وتحاول أن تتخلص وتنظر إلى الارض فتراها بعيدة فتنشد أباها أن ينزلها ، وهو يعانيها ، ويدعى انه يطيعها فيدنو بها من الارض حتى إذا كادت تلامسها قذفها فى الهواء وتلقفها بيديه ، وهى تصيح وتصرخ وتضحك أيضاً

وصارت شوشو قريبة منهما فالتفتت زوزو الى أبيه وقالت

« وحياة خالتي شوشو »

فوضعها على الارض فى رفق ، وابتسمت شوشو وقد سرها هذا الدليل الصغير على سمو منزلتها عند الشيخ على ، وأن زوزو الصغيرة تعرف هذا وتدركه ، وحنت عليها تقبلها ، ثم همت بأن تعتدل وتستوى واقفة ولكن زوزو دفعت ذراعيها بجأة وطوقت عنقها ، فلانت لها شوشو ، وتلقت قبلاتها الحلوة على شفتيها وخديها وعينيها ورأسها ـ من فوق السكبة(١) ـ وأذنيها ثم خرجوا

— ٣ —

وكانت سميحة تنظر من بين سجفى الستار ، ونجية وراءها وقد اتكأت بيدها على كتف سميحة ، وراحت تميل برأسها ذات اليمين وذات الشمال ، وتشب محاولة أن تنظر كما تنظر من الفرجة التى بين السجفين . ولكن سميحة كانت قد جمعت طرفى الستر بن ولم تدع الا شقا صغيراً لعينيها ، ولما لم يبق شيء تنظر اليه أرخت يدها ونهضت وهي تدور وتواجه نجية وقالت :

«خرجوا . استريحى بقى»

وكانت لهجتها تنم على الأسف ، ونبرة صوتها تشى بالكمد

---

(١) السكبة ما يتور للرأس كالشكة

المكتوم ، ولا أسف هناك ولا كمد ، وانما كانت تتكلف ذلك وتصنعه لتستثير نجية وتغذى عنادها ولم تكن تبالى فى سبيل ذلك أن تمشى بالوقيعة بين نجية وزوجها. فقد كانت الغاية عندها تبرر كل وسيلة ، فلم تحجم عن أن توقع فى روع نجية بالتلميح المتوالى أنه لايبعد ، إذا ظل الشيخ على وشوشو كما هما أن ينتهى الامر به الى تطليق نجية والتزوج بشوشو ، وكانت أذكى من أن تصرح بهذه الدسيسة ، والبق من أن تزيد على الاشارة فكانت ربما تنهدت فجأة وقالت :

« الامر لله »

فتقول نجية «ماذا يا اختى؟ »

فتقول سميحة «لاشىء ! ربنا يستر»

وتنصرف عن أختها وتدعها تفكر وتخمن وتقلب الامر على كل وجوهه المحتملة

ثم بعد ساعتين ، أو يوم ، تعيد الكرة فتقول :

« ان اقامتنا معك يا أختى لايعلم الا الله ما قد تؤدى اليه »

فتقول نجية « كيف يا أختى ؟ لماذا تقولين هذا الكلام ؟ لماذا تتكلمين كانى ... كأنى استثقل وجودك ؟ »

فتقول سميحة «وجودى أنا ؟ ياريت ؟ نهايته ! ربنا يسلم »

فتلح عليها نجيه وتقول «الا تقولين ماذا فى رأسك هذا ؟ انك تفهمين اكثر مما أفهم . فهل ... هل ... هل .

قوى ... تكلمى ؟

فتقاطعها سميحة حتى لايبلغ الامر درجة المصارحة وتقول « ربما وحده هو العالم بما فى رأسى... ده تبقى مصيبة... لكن هو خان ؟ »

وهكذا حتى اتجهت خواطر نجية شيئاً فشيئاً الى هذه الناحية ، وعميت عن السبب فيما يبدو من عطف زوجها على أختها شوشو ، وساورتها الوساوس ودبت فى صدرها الغيرة وان كانت قد ظلت قادرة على مغالبة الظنون ومدافعة ما تهمس به ، وبقيت تعتقد أن هذا بعيد الوقوع بل مستحيل ، غير ان مجرد التفكير فى هذا المستحيل غيض من وجهها كل بشاشة لشوشو أو الشيخ على ، وأغراها بالتجسس عليهما ، وكان من الطبيعى أن تشكو ذلك الى سميحة ، وأن تفتح أذنها لكل ما تشاء أن تصبه فيها ، وزاد المسألة لأن الشيخ على أصر على جفوته وإهماله لنجية ، ومنح شوشو عطفه وعنايته وصار لايفارقها ما دام فى البيت ، وكثر استصحابه لها حين يخرج للرياضة والتنزه ، وكان الشيخ على يتوقع ، بعد أن أفضى الى نجية بسخطه على مسلكها حيال ابراهيم ، واستيائه لرفضها العمل برأيه ، ونقمته منها أن حقرت شأنه فى نظر ابرهيم بأن أظهرته له رجلا لا سلطان له ولا ارادة فى بيته ، — نقول انه كان يتوقع من نجية بعد أن أعلن اليها هذا وجافاها من أجله أن تندم وتحاول استرضاءه وتسعى اتقاء أمره من نفرته ، ولكنها

لم تفعل لأن سميحة تكفلت بتوسيع الهوة بينهما ولم تقصر في الدس والوقيعة ، وكانت سميحة تدرك أن الشيخ علي لن يتوب الى الرشد أو يصفح عن نجية إلا اذا نزلت على حكمه وعادت الى رأيه ورضيت بتزويج شوشو لابرهيم ، ولا بد أن ينتهي الأمر الى ذلك اذا انتبهت نجية الى واجب العمل على ترضية زوجها ، فلا اطمئنان لسميحة إلا مع استمرار الجفاء — حتى لا تفيق الى أن ترى لها وسيلة أخرى وتهتدي الى حيلة جديدة

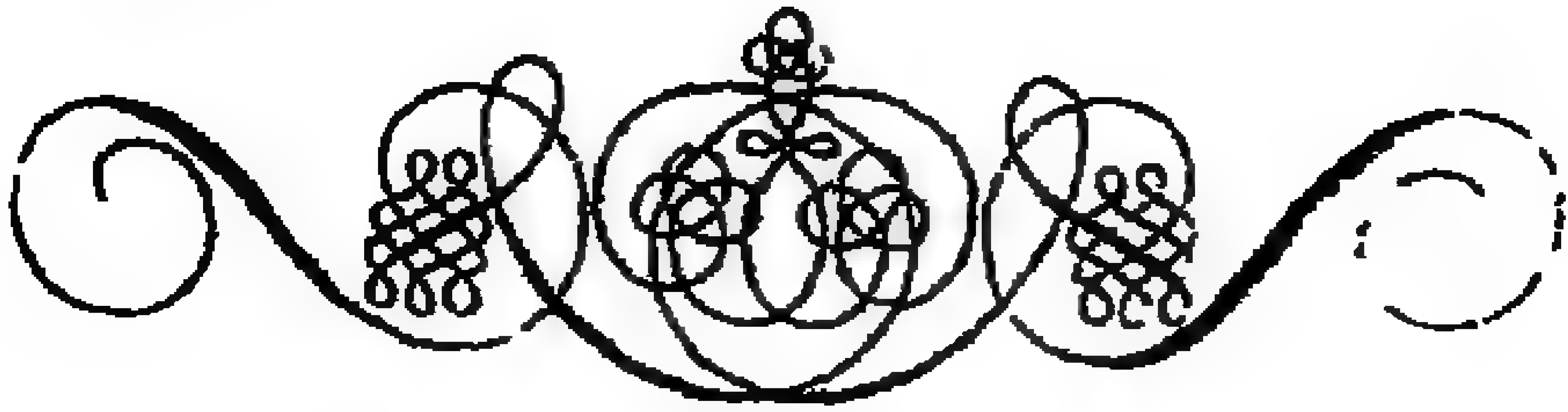
ومن الاوهام الشائعة أن الاطفال آخر من يفطن الى الحوادث التي تقع حولهم والبواعث التي تفضي الى وقوعها ، وكثيرا ما يطمئن الكبار الى جهل الصغار وعجزهم عن الادراك والنظر والتمييز ، ولكن الاطفال كثيراً ما يختزنون في رؤوسهم أسراراً يقفون عليها ، لو اطلع عليها الكبار لراعهم عمقها ولعجبوا لقدرة الاطفال على التقصي والاستنتاج ونفاذ البصيرة وليس بالنادر أن يكون سعادة الأسرة رهناً على يديه هؤلاء الصغار من الحكمة وصدق النظر والصمت . وهي صفات قد يكون مرجعها الى الالهام ، وما أحرى كثيرين من الكبار أن يتلقوا درساً في الكياسة من هؤلاء الصغار المستجلين

ومن أجل هذا لم يكن عجيباً أن تعمى الشيخ علي وشوشو عن حقيقة ما صار اليه الموقف في البيت ، وأن راحت زوزو الصغيرة تجمع نتفاً من هنا وطرفاً من هناك وتضم هذه الى تلك

وتستخلص وحدها سر الأزمة وطورها الجديد ، وان لم يخل الأمر من أغلاط غير قليلة متعلقة بالوقائع و لأسباب ، ولـكن النتيجة التى انتهت اليها كانت فى جملتها صحيحة، غير أنها المهمت أن تمسك على ما خزنته فى رأسها الصغير فلم تنرثر به

وهكذا صار البيت معسكرين . وتم انفراج الحال ووقوع النبوة لما عاد الشيخ على الى القرية بغتة واخذ معه شوشو وزوزو .





الفصل السادس

« هل انتهيت من ينابيع البحر أو فى مقصورة القمر تمسيت ؟ »

«نبي !»

«نعم .»

«لا أدرى ماذا أقول ! ولكنى أدرى أنى أريد أن أقول شيئاً . حتى أنك عطوف بالبلى . ولو أنى كنت شيخاً هرماً لردنى الشعر اليك شاباً يافعاً ، شاباً بأحلامى على الأقل ، ولو أن شكسبير عرفك لأكثر من نظم الاغانى وأقل من الروايات »

فسرت بى كلمها المعجبة ناهية عن الاسترسال وانحنت له مدرجة وقالت :

« شكراً ، وأسمح لنفسى أن أشك فيما تقول ، ولكن شيئاً واحداً أنا على يقين منه ، هو أن شكسبير عرفنى لما ولّى سيحاورة

فعتمت هنا ومد يده عليه السجاير ، وأشعل عود الثقاب .

وكانا جالسين فى معبد الاقصر ، فى الصحن المتسع الذى تحيط به الأعمدة ، واليه يؤدى الباب مباشرة ، ويعرفه رجال

الآثار بساحة أمحوتب الثالث ، وكان ابراهيم قد رشا الحارس فأذن لهما أن يدخلا في الليل ، فاتخذا مكانهما الى جوب الصحن ، وكانت الليلة مقمرة ، والأعمدة أكثرها سليم ، فجلسا يتصوران ما كانت عليه هذه الساحة من الأبهة والرونق في أيامها وأيام هذا الملك — امنحوتب الثالث — الذي بلغت البلاد في عهده ذروة الغنى والرخاء ، وانطلق ابرهيم يحدثها عن هذا الملك وكيف انه وهو يبنى هذا الهيكل اغتنم الفرصة فرسم لشعب طيبة على الجدران سلسلة من المناظر تتعلق بارتقائه العرش وتبرره أيضاً ، وذلك لأن الشريعة المصرية كانت تقضى بأن يكون الذى يتولى الملك زوجا لبنت الملك الكبرى أو ابنا لها ، ولكن أمه — تحوتمس الرابع — لم تكن له ، على ما يظهر ، بنت فيتزوجها امحوتب ، ليصير ملكا شرعيا ، ولم تكن أمه — موتموا — على الأرجح إلا بنت ملك لاقليم صغير فى سوريا اسمه ميتانى ؛ وقد تزوج امنحوتب وهو صغير — تى — وهى ليست من أسرة ملكية ، واكبر الظن أنها لم تكن مصرية ، ولهذا شاد أمنحوتب هذا المعبد ليتألف قلوب الرعية ويرضى كهنة طيبة ، وقد أريد بالرسوم والنقوش التى تصور ميلاد الملك وتتويجه محو كل شك فى حقه فى ارتقاء العرش

وقال ابراهيم بعد أن أفضى الى ليلى بهذا التاريخ القديم

« أحسب هذا مثالى . »

فعطفت اليه وجهها وابتسمت وهى تتوقع أن يفجأها بملاحظة مضحكة ، أو مفارقة غير منتظرة ، على عادته ، ومضى هو فى كلامه فقال بلهجة جادة ·

« ... أنا أيضاً أرتقى عرشاً أكبر ظنى أن ليس لى فيه حق شرعى ، فليتنى أستطيع أن أشيده معبداً ضخما لالهى المعبود ، أسوغ به ما استوليت عليه » ولم تكن ترتقب منه هذه النغمة الجادة ، فغاضت ابتسامتها ، وعجبت لتعاقب الوجوم والبشر على وجهه ، والصحو والغيم فى سماء نفسه ، وأحست أن هذا لا بد له من علة ترجع الى مالقى فى حياته ، وأنه لا شك قد قاسى وعذب ، فرق له قلبها ، وأرادت أن تجلو صدره فقالت ·

« مالوجهك فيه كل آيات التعاسة ؟ »

وزمت شفتيها وكانتا ترتجفان ، فالقى اليهـا ابرهيم نظرة عتب ، ولم يقل شيئاً ثم التفت اليها فجأة وأمسك كتفيها المستديرتين ، ثم نفضت نفسه ، وقال ·

« ليلى ، ستسعين سعيى غداً ، اليوم من أجمل كل شئ ولكن غداً ، غدا ؟ » وهز كتفيها بعنف ، فقالت .

« كلا ! لن أشقى ، أو فلأشق ! سيان ، انما تنشأ الاحزان لأن الانسان يفرض لسعادته ثمناً ، وأنت أتقاضاك ثمناً ، وهذا هذا ، على أنك أديت ولا تزال تؤدى لى ثمن سعادتى . »

فقال : « كيف ؟ » مستغربا

قالت : « ألست تحميني من التسعة عشر ؟ »

فابتسم ، ولـكنه قال :

« ليلى . واجهي الامر جادة . أرجو »

فقالت من غير أن تعبس :

« ماذا كنا نستطيع أن نفعل غير ذلك ؟؟ كيف كان يسعنا أن نقاوم ؟ لقد كانت لحظة شعرنا فيها أن كل حاجز بيننا تداعى ، وانها لحظة اذا أفلتت فهيهات أن تعود ! ويجب أن تبقى ليلتنا تلك فى ذاكرتينا أنفس ماندخر وأجمل مااستمتعنا به . فبالله عليك لاتعط وجهك ولا تفسد على تلك الذكرى ! »

فوجم ابراهيم وحار ماذا يقول ، وجلست هى على رجله وقالت خده ، وذراعها حول عنقه

« لعلك فكرت فى الزواج ؟ هيه ؟ لاأستغرب أن تكون قد فعلت فان رأسك هذا دائب العمل كالزمن ، لايني ولايتوقف ، كلا . ياصاحبي ، ان الزواج نقلة الى حالة أخرى ... لانعود بعده ليلى وابراهيم ، كما نحن الآن ، ولا تبقى هناك متعة نستفيدها من تلاقينا ومن خلواتنا . لازواج بيننا .. فلنبق هكذا . دائماً انت ابراهيم لاأكثر .. وأنا ... ليلى .. لاقيد . ولا رباط سوى هذا الحب !. الحر .. الطليق كالعصافير . . فى عينيك دهشة . أليس هذا بعض ماعلمتني ؟؟ أيحذق التلميذ

درسه وينساه أستاذه ؟ أوه لا ! لا ! لست وحدك معلمى .. لاتعجب ... الدنيا كلها علمتنى ... الحياة هى التى أجرت ارادتى وحواسى فى هذا المجرى ، وما كنت أسألك كالتلميذة إلا لأنى كنت أحب أن أسمع منك خواطر نفسى وهواجس ضميرى بلسانك وقوة بيانك وكنت أخشى أن تخيب أملى فيك ، فلما صدقت فراستى كنت أصغى اليك وأنا انتفض من السرور والدهشة أيضا ... تقدحلقا — أنا وأنت — لحياة هكذا ... لسنا نصلح لذلك الحب التقليدى ... ولكنك لم تقل لى قط أنك تحبنى أو لا .. لاتقلها .. لاتبتذل المعنى . بلفظه ... لاتقيده . دعه يطل من العين فقط ويختلج على الشفة ... ويضطرب به الجسم كله . هذا أحلى .. أو تتكلم العصافير ؟؟ والحمائم ؟؟ لاتقل شيئا ... نفسى مرة أخرى ؟ »

ولم يكن ابراهيم قد سلا شوشو ، ولكنه تسلى . ولم ينقص حبه لها ولكنه جرى بجانبه حب آخر وقد ينكر القارىء أن يتسع القلب لوجد لحبين ، غير أن الواقع كان كذلك ، وعلى أنهما كانا حبين من طرازين متباينين ، لايمنع أحدهما الآخر ولا يزاحمه ولا يمنع لذلك أن يعيشا فى القلب متجاورين متآلفين كما يتجاور فى القلب حب الوالدين ، وحب البنين ، وحب الاخوة ، وحب الزوجة ، وحب الصديق ، وحب الادب أو الفنون أو غير ذلك ، وكلها حب ولكنها تختلف فى مصادرها ومظاهرها وآثارها

واختلافها هو الذى يوسع لها ضمير الفؤاد. والنفس الانسانية أعمق وأرحب وأغزر موارد من أن تشقى أو تضيق بمعاشق شتى متنوعة ، وأين ذاك الذى سبر غور النفس وغاص الى أعمق أعماقها ونفذ الى كل شعابها وتغلغل الى أخفى كهوفها وزواياها حتى يجوز له أن ينكر أن يتجاور فيها حبان لانسانين كما يتجاور حب لواحد وبغض لآخر ؟ من الذى مسح هذا « التيه » المضلل ودرس طرقه وأحاط بمعرجاته ، وألم بمباديه ونهاياته؟

وهكذا كان قلب ابراهيم يعمره حبان. حب شوشو الراثعة التى تستولى على النفس محاسنها « جملة » — وكانت شوشو كما أسلفنا القول فى ذلك « فتاة » لايحس الرجل مادتها ، ولا يلتفت حين يحادثها الى « الشكل » وكانت قدرتها هذه على صرف الجالس عن التأمل المادى لمعارف وجهها وخصائص محياها ، ليس مرجعها الى لباقة أو كياسة مكتسبة وانما كان مردها الى تلك الشدة من المحبة التى تذيب القلب وتشيع السرور فى الصدر وتثير كرم النفس ومروءتها . وكان لها كل جرأة النفس الغريرة وجرأتها وحفتها ، وكان احساس المرء حيالها أشبه باحساسه حيال الطفولة الجميلة البريئة .

أما ليلى فخلق آخر وجمالها مختلف جداً وفتنتها مستمدة من عناصر غير هذه . فقد كانت أولى مزاياها اللين والمرونة حتى لكانت تبدو ساكنة وهى تنساب ، وكان جليسها لا يسعه الا

أن يشعر أن لها عينين اثنتين والمرء فى العادة لا يجعل باله الى هذا الازدواج ولا يلتفت الى تلك التثنية، حتى ليغلب أن يستعمل لفظ مفرد، و لمعنى مثنى ، فيقول العين ويريد العينين، ويذكر الجفن وهو يعنى الاثنين ، لان النظرة من كلتيهما واحدة . وهما توأمان ، ومعناهما فى الذهن مندمج . ولكن ليلى كان لكل من عينيها ايماضها ولا اختلاف بين العينين، وانهما لمتجاوبتان ولكنهما فى ذلك فيما يخص الوحى ، مستقلتان . وكانت امارات التعكير الكثير المرتسمة على محياها ربما أطفأت هذا الائتلاع ، ولكنه تعف مع ذلك — الا قليلا والى بضع دقائق — عن شيء من الدلال فيها لم يكن على هذا بادى التكلف بحيث ينفى صدق السريرة . وكانت شفتاها ـ كحاجبيها ـ حطين حاسمين حادين ، وان كانت تقويستهما لينة رقيقة . والمرء يتوقع ـ ولا يستغرب منه ـ حين ينظر الى جبينها الوضاء الذى يرد عنه الشعر ولا يطغى عليه — الصراحة والجرأة صراحة النفس التى تأنف أن تعالج فى الحقائق . وجرأة القلب لدى ذى وجرب والعقل الذى يفكر وتعب

فبينما كان ابراهيم ينعم بحب ليلى وقربها ، وكانت هى تساقيه هوى صرفا غير منغص ولا مكدر . و بلا قيد أو تحرج . كان قلبه منصتا الى شوشو ويتشى بالصبوة اليها والتحرق عليها والتوجع لفراقها والبعد عنها وكان فى كلا حبيه مخلصا يجرى فى هواه

الحديد بغير لجام . ويرتد الى شوشو بالقلب الكسير المستهام فكأن حب ليلى الحر يسب فيها العاشق الولهان يحسب أنه سيغرق فيها وجده . فتستعر جوانحه وتضطرم النار بين جنبيه وتتقصف أضالعه، وكان تحرر ليلى يفتنه . وسذاجة شوشو تسبيه . وكان حب شوشو يتمثل له حاسماً كالزهادة لمن لم يجد لعلة نفسه شفاء فى الزياد والضرب فى زحمة الحياة . وكان يبدو له ـ بعد أن انتهى الى ما انتهى اليه ـ بمثابة الرفض للحياة — ورفض الحياة — على كل سحره — لايزيد النفس الا احماء ، والزهادة قد تكون منحى ولكنها يأس ، وهى ، على كل ماتدل عليه من القدرة على التسامى فوق مغريات الحياة . قلما تفضى الا الى أن تخسر النفس طيبها ورضاها ، والسعادة لا تجنى فى الحياة بأن يرد المرء يده . بل بأن يمدها الى الثمار ليجنيها

وكان حين يفكر فى حبه لليلى يتصور الهروب من النفس ، ويخيل اليه أنه يسوم ذكاءها اطفاء وأنه يبلدها وينشر الضباب على صفائها . ولم لا ؟ أليس اللبيب هو الذى يمحض نفسه مراحه ؟ أليس السعيد هو الذى يقهر نفسه باللذة ويضنيها ؟

فهما حبان مختلفان يمثلان فى مظاهرهما وفى جوهرهما مذهبين مختلفين : رفض الحياة والاستغراق فيها ، ولكنهما من حيث النتيجة سيان .

وسواء من قال ليس سوى الارض

ومن قال لن تنالوا السماء

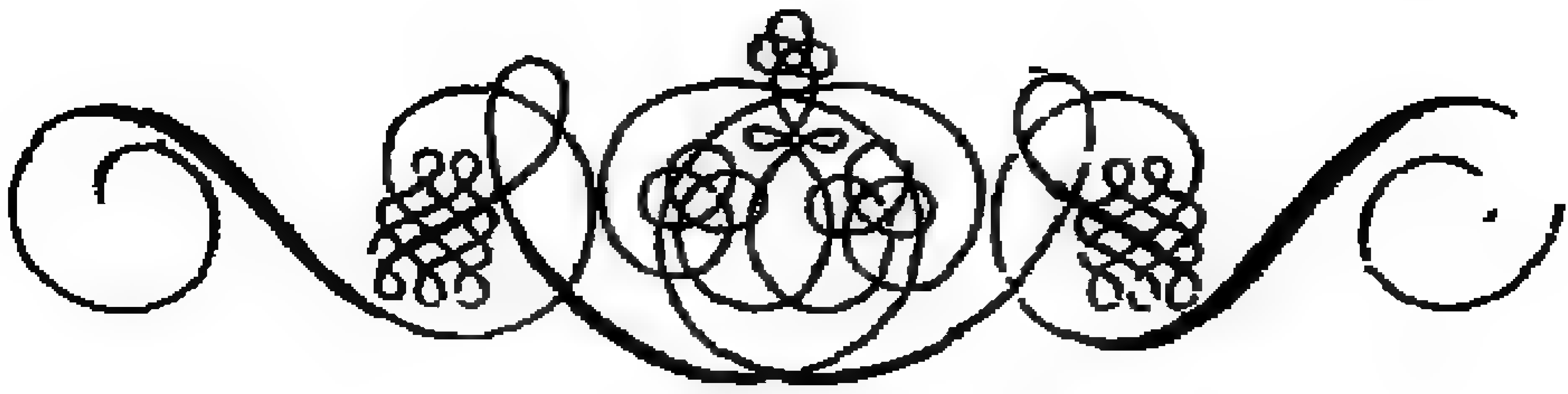
وابيقور — بعد — كزينون، كلاهما مخطيء وكلاهما مصيب، وقد التقيا بأعجوبة من أعاجيب الحظ الساخر فى نفس ابراهيم .

بل هناك حب ثالث كان ملقى فى زاوية من نفس ابراهيم ، ولكن كونه غير طاف على اللحة ليس معناه أنه غير موجود . وما أكثر ما كان ابراهيم — حين يجيش صدره ونفور نفسه وتختلط الاعالى بالأسافل ويندفع الراسب الى مستوى الطافى — يذكر «مارى» ويشتاقها ، مارى الضعيفة التى تشعره بقوته ، المدعة التى تؤكد له قدرته على القهر وتبرر له لذة الغلبة ومتعة السيطرة ، فيبتسم ويود لو أنها الى جانبه ليوحى اليها او دنه وليشعر بلذة الاسراع الى الاجابة والامتثال

وقال ابراهيم وهو يفكر فى الثالوث قلبه :

«عجيب عجيب . حين أذكر «مارى» أحس سطوة الموة، وصيانة العزم ، وعنو الجبروت ، وأتصور شوشو فأحس ود التجربة وسمت العلم وأبهه الشيخوخة وحنو الأبوة ، وأكون مع ليلى فأرانى كأنى أتعلم رقصه الحياة على إيقاع الشباب .

عجيب ، عجيب »



الفصل السابع

« حوط طريقي فلا أعبر ، وعلى سبلي جعل ظلاما »

لم يسع الدكتور محمود إلا أن يبتسم، وهو يقرأ الرسالة التي بعث بها اليه قريبه الشيخ علي مع أحمد الميت ، يأمره فيها أن يحضر ولابد كرسببا موجبا لذلك، ويؤكد له فيها ـ بلامناسبة ـ أن كونه طبيباً ، مثل كون أحمد الميت ميتاً — كلاهما كذب على الله والناس !

وكان الدكتور محمود يجاهد منذ عاد من الاسكندرية ، أن يروض نفسه على السكون الى اليأس من شوشو، ولم يكن يدري لماذا ينبغي أن يقنط ، ويثني عنان الأمل ، ولكن الشيخ علي صده عن الرجاء ، والشيخ على بطبيعة الحال أدرى ، وهو ناصح غير متهم ، غير أن المسألة مع ذلك غير مفهومة ، فهل كل ما فيها أن شوشو أصغر من سميحة ، وأن الكبرى تتقدم الصغرى وتسبقها الى الزواج ؟ قد يكون هذا هو السبب ، ولكن لمحة الشيخ علي تشيء بأن هناك شيئاً خلافه لم ير أن يفضي به اليه ويطلعه عليه ، فماذا عسى أن يكون هذا الشيء الآخر ؟؟

وكان الدكتور محمود أشرف من أن يخطر له أن يتسقط الاخبار أو يستدرج الخدم ومن اليهم ، لعله يظفر منهم بما يحل هذا اللغز أو يهدى على الاقل الى طريق الحل ، فوطن نفسه على الصبر وترك ظلمة الجهل التى هو فيها تحيط به من غير أن يحاول تبديدها أو اراقة شيء من الضوء عليها، وضاعف جهده فى عمله ليكون ذلك أعون له على الاحتمال ، وساعدته طبيعته وظروف حبه لشوشو على أن ينتقل بها وبنفسه الى دائرة الاحلام والذكر المحببة التى تتشبث بها القلوب

وكانت ساعة القيام من النوم فى الصباح أقسى الاوقات عليه، فهو فى النهار ينصرف الى عمله واذا ثقلت عليه وطأة الوحدة لم يعدم جليساً يسامره ، أما فى الصباح فالأمر على خلاف ذلك : تبدو له الحياة أول ما يفتح عينه عليها متثائباً ، وردية ذهبية ، ولكنه لا يكاد يفرك عينيه حتى تكر اليه الذكرى الأليمة بكل قوتها ، وقد زادها تكرار الهجوم منها وتكرار التضعضع أمامها ، قوة على قوتها ، ففى كل صباح يفتتح حياته الجديدة بالشعور بمرارة الحرمان وقسوة الاقدار ، وفى كل صباح يهمس فى أذنه قضاء الحظ أن حبه يجب أن يموت ، وفى كل صباح يرتد فزعاً من هول هذا القضاء الذى لا لطف فيه

ولو كان الدكتور محمود أصلب عوداً لقاوم وكافح ورفض أن يذعن لهذا القضاء الذى فرضه عليه الشيخ على، أو على الاقل

جدا ، لطاب من الشيخ على أن يبين له السبب فيما يقضى به عليه ليعرف فى أى طريق يسير ، ولو كان من ذلك الضرب المرح الطروب الذى لا يعنيه من الحياة الا مقدار ما يطاب من منعة تعود أمتع إذا كانت أخشن ، لهز كتفيه ساخرا ولطابت نفسه بسرعة عن شوشو ، ولكنه كان من ذلك الطراز الذى يسمه أن يعبث ولا يعبأ بالصدمات إذا كان لا يشعر بعاطفة قويه ، حتى إذا صار الامر جـدا ، انقلب حييا ضعيفا غير كفء لما تتطلبه العاطفة . وكانت مهنته ـ بما تنطوى عليه من تبعات جسام ـ قد عودته الشعور بالمسئولية وافرغت عليه روح الجد الصـارم فى شبابه ، وعلمته أن ينظر من أتفه الاسباب الى أخطر النتائج ، فلما أدرك أنه قد أحب شوشو وانها قد استولت على هواه واستبدت بقلبه ، استحال انسانا آخر

وقال الدكتور لاحمد الميت فى الطريق الى القرية

« هل مرض أحد ؟ »

فقال الميت « لا ابدا كلهم بخير »

فقال الدكتور كأنما يناجى نفسه

« إذن لماذا يدعونى الشيخ على ؟ »

فهز احمد الميت كتفيه ولوح بيديه وقال — كأنما كان الخطاب له —

« تسألني انا ؟ حصانك هذا أدرى مني . لقد تطوعت لحمل الرسالة لأهرب من وجهه » وضحك ،

فنظر الدكتور اليه بسرعة،ولم تعجبه هذه الضحكة العصبية، وشد اللجام ثم ارخاه فأسرع الجواد وانطلق يخطف، فكاد احمد الميت الذى فاجأته هذه الحركة يقع على ظهره ، وارتفعت يده بسرعة الى قفاه ليرد العمامة الى جبينه، ثم لف العباءة فوق ركبتيه وانحنى الى الامام قليلا

وكان الدكتور يفكر فى أمر رفيقه وغرابة اعتقاده انه مات، وانه الآن غير حى ، وسلامة عقله فيما عدا ذلك ، فسأله

« احمد . كم عمرك الآن ؟ »

فابتسم أحمد كأنما فطن الى الغرض مما قاله مداعبة، ولم يجب فعاد الدكتور سؤاله

« كم عمرك يا احمد ؟ لماذا لا تجيب ؟ »

فرفع احمد وجهه اليه مستغربا وقال

« عمرى ايه ؟ سبحان الله العظيم . حتى انت يا دكتور ! »

فافتر ثغر الدكتور عن ابتسامة العارف وقال

« دعنا من عمرك الآن وقل لى كم كان عمرك لما مت ؟ »

فأرسلها أحمد نظرة طويلة ساكنة الى الطريق . ثم طأطأ رأسه وثنى عينيه الى حجره وقال :

« إيه ... سبحان العالم . ده شيء مضى وراح . لو كان فى العمر بقية ماوافى الاجل ؟ »

فلم يستطع الدكتور أن يتابعه فى أسلوب تفكيره . أو أن يدرك البواعث على هذا التعليق . فسأله :

«ألا تذكر شيئا من حياتك ... أعنى قبل أن تموت ؟»

فأدار احمد وجهه وقال بلهجة حادة

«اذكر إيه ؟ أنا مت واللى كان كان »

فقال الدكتور « أعرف ذلك ، ولكن ألم تحلم قط . أعنى الا ترى فى منامك شيئا من حوادث تلك الحياة الاولى ؟ »

فلم يعجبه هذا السؤال وهز رأسه مراراً قبل أن يجيب

«ايوه بحلم . لكن يعنى إيش درانى ان اللى بشوفه هواللى كان ... أهى منامات تهاليس »

فألح عليه الدكتور

« وماذا ترى فى منامك ؟ ».

« كثير ماتعدش . مين فاكر ؟ »

فقال الدكتور :

« هل تتكرر أحلام معينة ؟ هل ترى الحلم الواحد مرات ؟ »

فصمت أحمد هنيهة وهو مطرق ثم قال

«أى والله برضه يحصل»

ثم رفع رأسه وقال :

« وأنت ايش دراك ؟ »

فابتسم الدكتور وقال :

« الا تذكر واحدا من هذه الاحلام المتكررة ؟ »

فظل أحمد مطرقا ، ولكن وجهه ظهرت عليه آثار الكد والتعب وهو يجاهد أن يذكر ثم قال :

«مش حادر وحياتك يادكتور .هم الدنيا بيسمى الواحد نفسه»

وعاد الدكتور يسأله:

«الا تتكلم وانت نائم ياأحمد ؟ »

فقهقه أحمد وقال :

« يعنى منين أبجى نايم وسين اسمع نفسى ؟ »

فسكت الدكتور ولم يسأله شيئا بعد ذلك

ولما قابل الشيخ على قال له :

«أحمد الميت يستحق أن يراقب وهو نائم ، فلا يبعد أنه يتكلم بما هو مستكن وراء الوعى ، والعلم بذلك وبأحلامه أيضاً قد يفيد فان شفاءه فيما أعتقد غير بعيد »

— ٢ —

ضطربت شوشو لماعلمت أن الدكتور محمودفندى ، وكانت مع زوزو تلاعبها وتضاحكها ، وكانت الايام القليلة التى قضتها فى القرية بعيدة عن أحبها قد ردت الى خدها صبغته الارجوانية والى عينها النعمه التى أطفأها الكمد الباطن ، واستراحت من مكايدة سميحة وبلادة نجية ، ونعمت بعطف الشيخ على وحلاوة

روح زورو ، وشعرت وهى معهما كأن المستقبل ليس حالكا كما كان يبدو لها فى الاسكندرية ، وكانت تقضى أكثر وقتها مع زوزو ، وكانت زوزو طفلة ولا بد للاطفال من الثرثرة ، ولاسيما مع من يطمئنون اليه ويحبونه ، فأفضت زوزو إلى خالتها ببعض ما تعلم ، وما لا تستطيع أن تعلله أو تفسره على الوجه الصحيح ولم تكن تحلم ، وهى تطلعها على أسرارها الصغيرة ، أن ستكون لها عواقب كبيرة ، فمن ذلك أنها أنبأتها أن خالتها « سميحة » ذهبت إلى امرأة « تتبين البخت » وأنها بعد ذلك اشترت صندوق « شكولاته » وأعطته للمرأة التى تتبين البخت وتركته عندها ثم عادت فأخذته بعد أن سحرت المرأة الصندوق ، وقد سمعت فيما بعد أن الصندوق أرسل إلى « خالها ابراهيم » فى الاقصر .

وقصت زورو أيضاً على شوشو ما سمعته من الحوار بين سميحة والدكتور محمود ، وكانت زوزو تراهما من الحديقة وهما لا يريانها لأن الشجرة تحجبها ، وروت لها ماتذكر من كلام سميحة وما قالته فى أختها شوشو .

فسألتها شوشو « وماذا قال الدكتور لها ؟ »

فقالت زوزو « لم أسمع كلامه ياخالتى ولكن خالتى سميحة كانت محتدة فى ردها عليه لا لم يكن كلامها يعجب الدكتور ومن الذى يعجبه هذا الكلام ؟ انه عيب أليس كذلك ؟ »

وقبلتها بين عينيها ثم مضت فى روايتها فحكت لها أن أباها

أخرج من جيب الدكتور محمود علبة كبيرة فيها حلقان من الذهب لهما فصوص من اللؤلؤ ، وضحكت زوزو وقالت « كان بابا يحسب في جيبه خم كوك ! »

ثم دنت منها حتى صار فمها على أذنها وتلفتت أولا ثم قالت « أقول لك ياخالتي ؟ بس اوعي تقولي إني أنا اللي قلت ؟ هيه ! بالك الدكتور كان جاي ليه في اسكندرية ؟ — (وخفضت صوتها جدا) بس اوعي تقولي (والصقت فمها بأذنها) كان جاي يخطبك وبابا قال له روح ارمي نفسك في البحر »

وبديهي بعد الذي أطلعتها عليه زوزو ، أن تضطرب شوشو حين مجيء الدكتور ، وأن يدور في نفسها ما كان من مغازلته لها قديما ، وأن تسر وتدهش وتحزن في آن معا ، وأن تتوالى أمام عينيها صفحات حياتها ، بكل ماحفلت به وما انتهت إليه ، وأن تتوجع لصدمة ابراهيم الذي أعياها بأوهامه الاعلى أنه قد غادر الاقصر ، وذهب الى مكان آخر ، وأن تسأل نفسها فيم مجيء الدكتور ولا مريض هناك ؟ وهذا الدكتور مسكين أيضا ! هواه لاسبيل اليه كهواها ، وقد احتمل الصدمة في صبر وأخفى الجرح الدامي الذي في صدره ، وعاد يمشي بين الناس كأنه سليم معافى ، وكأن دم القلب لاينزف . فليست وحدها في محنتها ؟ وأحست شوشو العطف على الدكتور ، وشعرت كأن ما أصابه قد

اختصر المسافة بينهما وأدناهما وجعل من الممكن أن يتصادقا وأن كان عسيراً أن يتحابا ، أو على الاقل أن تحبه هى ، وهو لاشك يعذرها ... يعذرها ؟ ولكن هل هو يعرف ؟ أتراه قد علم أنها تحب ابراهيم وأن ابراهيم يحبها وقد خطبها وأبتها أختها عليه بدس مميحة ؟؟ الارجح أنه عالم بذلك كله ، فما يعقل أن يصده الشيخ على من غير أن يطلعه على السبب ولكن الشيخ على ربما كان قد اكتفى بمثل عذر نجية — بأن شوشو هى الصغرى وأن مميحة أولى بالتقديم غير أن هذا عذر لاينهض ولا يقنع الدكتور الذى لعله يجهل أن الشيخ على عجز عن تذليله ...

ولم يدعها أحد الى مقابلة الدكتور ، ولم تنزل هى اليه ، فقد كان الوقت نهارا ، والشيخ على فى السلاملك ، ومعه رجال كثيرون . وحسبها هذا عذرا ، وبقيت طول النهار وحدها لاأنيس لها الا الخادمات تراقبهن وهن يقمن بواجباتهن المنزلية وتتلقى أوامر الشيخ على من حين الى حين بواسطة زوزو ، وكانت شوشو ربما تمنت أن يصعد اليها الدكتور لتراه ولتقرأ فى وجهه مافعلت الصدمة فى نفسه ، ولكن علمها بما أفضت اليه زوزو كان يجعلها تخجل حتى أن تتصور أنه سيصعد للسلام اليها ، فيحمر وجهها ثم يعود فيمتقع .

وجاء الليل فلصقت زوزو بشوشو أمام الموقد ، ثم رفعت اليها وجهها الصغير وقالت

« خالتي ! »

« نعم »

خالي ابراهيم ...

فانتفضت شوشو وقاطعتها ، صائحة بها

« أين هو ؟ هل عاد ؟ أهو هنا ؟ هل تعلمين شيئاً ؟ »

فضحكت زوزو وقالت

« دعيني أتكلم ؟ ما هذه الاسئلة كلها ؟ »

فكبحت شوشو نفسها بجهد واضح وإن كان صدرها قد ظل يعلو ويهبط كالبحر وانتظرت فقالت زوزو :

« هنا ؟ لا لا ! سيكلمه الدكتور الليلة »

فلم تفهم شوشو وقالت :

« يكلمه كيف ؟ وأين ؟ وهل عاد حتى يكلمه ؟ »

فقالت زوزو وهى تضحك مرة أخرى

« أوه ! ألا تصبرين ياخالتي ؟ كلا لم يعد — الدكتور سيكلمه في التليفون . اتفق بابا معه على ذلك »

فسألتها شوشو .

« في أي شيء يكلمه ؟ ولماذا لا يكلمه بابا ؟ »

فهزت زوزو رأسها وقالت :

« وهل أنا أعرف ؟ اسألي بابا »

« اسأل بابا ؟ ؟ »

فقالت زوزو بخبث :

« آه ! اسأليه . لم لا ؟ »

فاغضت شوشو عن هذا وقالت

« ولـكن لماذا يكلمه فى التليفون ؟ ألم يكن خيراً من ذلك أن يكتب له خطابا ؟ »

فقالت زوزو :

« خطاب ايه ؟ وهـل هو يرد على الخطابات ؟ ؟ لقد سمعت بابا يقول أنه بعث اليه ثلاثة خطابات وبتلغراف ولم يتلق أى رد ، ويقول بابا ان الاوفق أن يتكلم الدكتور بالتليفون ليعرف هل هو فى الاقصر او سافر — »

اذن ابراهيم لا يرد على أحد — لا عليها ولا على سواها وما اطيب قلب الشيخ على الذى لا يزال معنيا بها ؟ ؟ وما أقساه حين يكلف الدكتور أن يقوم هو بهذا العبء ؟؟ لاشك أن الدكتور يجهل ما كان ،

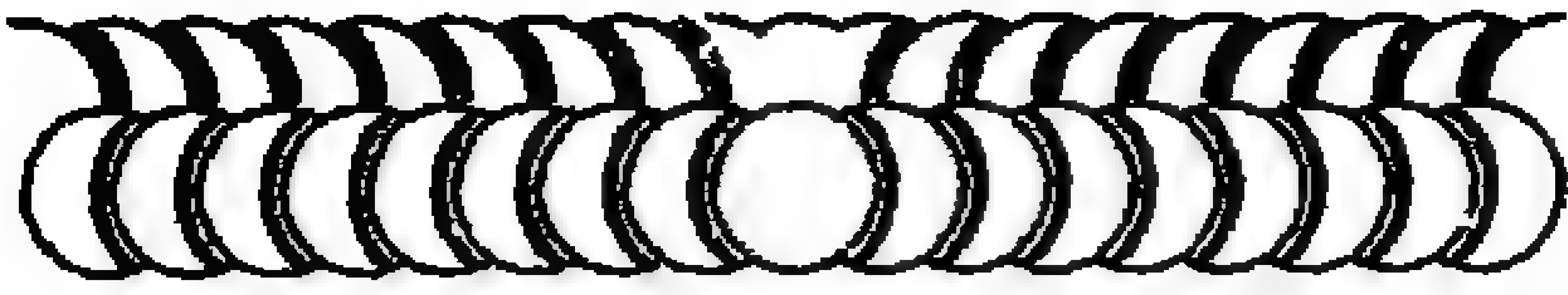
وانفضت شوشو وقد خطر لها أن ابرهيم فى الاقصر وانه يهمل الرد على هذه الخطابات عامداً . من فرط مرارة نفسه . وعناده .. وكبره

وسقطت من عينها دمعة على خد زوزو الـسائغة على حجرها فهبت تقول

« خالتى ! »

و « نعم »

ومسحت لها دمعها ولم يتكلما



الفصل الثامن

(ما اسمه واسم ابيه ان عرفته)

— ١ —

عاد ابراهيم وليلى مساء من الكرنك فى مركبة الفندق الفخمة فلما دارت ووقفت أمام السلم استغرب ابراهيم من نفسه انه لا يكاد يعبأ بذلك وأنه لا يحس القدرة على الترجل والنزول وكأنما وطن نفسه على البقاء فيها فاضطجع وأغمض عينيه .

فالتفتت اليه ليلى وسألته

« ألا تنزل ؟ مالك ؟ »

وأحس هو فى هذه اللحظة أن الدمع سيطفر من عينيه ، وسرت فى بدنه رعدة ، فانتفض وزرر الجاكتة ، وتلفت حوله كأنما يبحث عن معطف ، ولم يكن الجو بارداً ، وأنكر من نفسه هذا الضعف الذى استولى عليه لغير سبب ظاهر ، فقد كانت صحته حسنة ، وكان يجد مع الصحة القدرة على امتلاك النفس وضبطها وحكمها ، فماذا يحس بالحاجة الى البكاء ؟ ما هذا الذى يأخذ بمخنقه ؟ مالصوته يتهدج ؟ ماله يحس كأن عمره قد زاد بغتة عشرين سنة ؟

ولحت ليلى هذا التغير الفاجىء الذى تم عليه امتقاع لونه وتهضم وجهه وذبول جفنه وفتور نظرته ، فأعانته على النزول ، وألهمت أن تدعه وشأنه وأن لاتثقل عليه بالكلام ، وأن تتركه يستعيد حالته الطبيعية على مهل ، فقد خطر لها أن لما بدا عليه سبباً متعلقاً بماضيه الذى تجهله ، وأشاحت بوجهها عنه وهى تصعد معه وان كانت قد ظلت تراقبه خلسة من حيث لا يشعر ، وكان هو يجاهد أن يسترد ظاهره الساكن وابتسامته الساخرة ، وبعد لأى ما استطاع أن يتكلف مايشبه المألوف منه .

وصعد السلم بمشقة واضحة ، وكانت رجلاه كأنهما مثقلتان بالحديد ، وأحس القرة فى عظامه ، وانتردت كفاه فنفخ فيهما ، ودخلا « الصالون » وهى إلى جانبه ترعاه بنظرها ، ويحنو عليه قلبها ، وتكاد تحوطه بذراعها من فرط اشفاقها عليه ، وقد ادركت أن علة ماطرأ عليه ، برد أصابه أو نحو ذلك ، وجلسا ، وطلب هو كأساً من الكونياك ثم أخرى وثالثة ، وشعر بالدفء فانبسطت أسارير وجهه

وقال فجأة وبغير مناسبة ظاهرة

« لست أشاطرك حبك للمطر . كلا أحب شىء إلى أن استلقى على ظهرى وأن أنسى ... »

فسرها أنه عاد يتكلم وأن أول كلامه اشارة إلى أول لقاء وإن لم تدر بماذا تجيب فقالت

« أعرف ذلك .. أعنى منك .. ولكن ما أكثر ما تمنيت أن أكون فى قافلة ..حبى للسطر لا يمنعنى أن اشتهى ذلك .. قافلة من الجمال فى الصحراء .. أصوات الليل لابد أن تكون بديعة »

فسكت قليلا كأنما يفكر ثم قال كالذى يحدث نفسه

« ان الذى يفعله المرء ليس مهما . وانما المهم ان يستطيع تسويغه »

فلم تفهم ليلى ولم تر أى علاقة قريبة أو بعيدة لهذه الملاحظة بما قالته ، وازداد ذهولها ، وتكرر منه الكلام الذى يشبه مناجاة النفس ، فنصحت له بأن يذهب إلى غرفته ويستريح ، ورافقته اليها ودخلتها معه وحتمت عليه أن يتناول قرصا من « الاسبرين » وتركته لتأمر له بالشاى بينما يكون هو قد خلع ثيابه ورقد فى سريره



رقد ابراهيم وهو يسعل قليلا ويكبر من نفسه هذا السعال الذى لم يعانه من قبل على افراطه فى التدخين ، واحس وهو مستلق بألم فى عظام صدره وبصعوبة فى التنفس وبرعدة تعاوده ، ولكنه عزا هذا كله الى البرد والتعب ولم يعره اهتماما وشرع يتسلى بالتفكير ، غير ان ذهنه كان يأبى أن يخضع لارادته ، وكانت الخواطر تمر برأسه بلا نظام ويقع بعضها فوق بعض كأنها الجيش المنهزم ،

ودخل الخادم يحمل ادوات الشاى لاثنين ووضعها على منضدة

صغيرة ادناها من السرير ثم خرج من غيران يتكلم كانما لم يكن فى الغرفة أحد

وكان ابراهيم أثناء ذلك لا ينظر الى الخادم بل إلى السقف كانما يفتش منه شيء ، ولكنه قال لنفسه « ان الخجل من ان اكون مريضاً فى الاقصر — وفى فندق أيضاً — هو الذى جعلنى اتقى النظر إلى الخادم . اليس عارا ان يصيبنى برد فى الاقصر ، فى هذا الجو الذى يستشفى به الناس ؟ وليت من يدرينى كيف اصابنى ؟ »

وسعل ، وشعر بان التنفس يوشك ان يصير عملا متعبا ، فانصرف عن التفكير ونسى معرة المرض فى الاقصر ، ليتفرغ لهذا الجهد الجديد الذى يفرضه واجب التنفس ، وأحس بكسل عن الشاى وبفتور عام فأغمض عينيه ومضى يعالج ان يتنفس بانتظام وهدوء .

ولم يشعر بليلى لما دخلت ، وانما انتبه على يدها تجس يده فقال وهو يتكلف الابتسام

« أوه أنت هنا . لم أشعر بك »

فابتسمت له ولم تقل شيئاً بل دست فى فمه ميزان الحرارة وقعدت على السرير عند قدميه ، ثم مضت بالميزان الى الشباك ووقفت هنيهة تتأمله ثم نفضته ليسقط الزئبق ، وقالت

« لاشيء يستحق الذكر ... نصف درجة بل أقل ... أربعة خطوط ... والآن فلنشرب الشاي »

ورفعته في رفق كأنما كان وليداً ، وسوت له الوسائد ليتسنى له أن يضطجع وهو قاعد فبدأ يخالجه الشك في صحة ما أنبأته به عن درجة حرارته وقال لها

« فيم كل هذا اذا كانت المسألة أربعة خطوط ؟ »

فابتسمت وزحفت اليه وقالت وهي تناوله ميزان الحرارة

« اذا كنت لا تصدقني فما عليك الا أن تعيد الميزان الى فمك ثم تقرأه بنفسك .. هذا هو »

فخجل وقال

« معذرة ، ان هذا ذنب الحمير »

قالت « الحمير ! »

قال « نعم . حمير الاقصر . ليس في رأسي غيرها »

فقالت « لست أفهم .. »

قال « لك العذر ولكن الواقع أن أبرز الخواطر في رأسي وألحها على منذ دخلت هذه الغرفة ، كثرة الحمير في الاقصر ... ..أحسب الاقصر قد اعدتني بحميرها ! فقد صارت الحمير هي كل ما في رأسي »

فسرها أنه يمزح ، ولم يكن مزاحه حاد ، واطمأنت الى

أن مابه ليس أكثر من برد بسيط تزيله الراحة والدفء

ونقر الخادم على الباب ، فأذنت له ليلى فدخل يحمل بضع زجاجات ووقف ينتظر ماتأمر به

فنظر ابراهيم من الخادم الى ليلى مستغربا وقال

« ماهذه الزجاجات كلها ؟ ليست بنبيذ أو شمبانيا ؟ »

فضحكت وقالت

« كلا ! ماء ساخن للتدفئة . »

وأومأت الى الخادم فوضع اثنتين الى جنبيه وثالثة بين فخذيه والرابعة الى قدميه ودس أطراف الغطاء تحتها لتثبت ثم خرج .

فقال ابراهيم

« ماأسرع ماصرت ممرضة ! من أى مستشفى جئت ؟ »

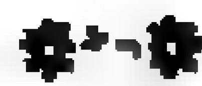
فضحكت وقالت وهى ترفعه لتعد الوسائد لنومه

« والآن ينبغى أن تنام »

فقال وهو يطيعها « ليس ينقصك الآن تقضى الليل الى جانبى على هذا الكرسى ... ولكن كيف أنام من العشاء ؟ أدجاجة تحسبيننى ؟ »

فقالت « عالج . ان بك حاجة الى النوم . أما أنا فسأتركك برهة لأعطيك فرصة »

فمحب وسألها « برهة ؟ هل تعنين أنك راجعة ؟ »
حنت عليه وطبعت على جبينه قبلة وقالت
« نعم »
وخرجت



وسكنها لم يعد الا بعد ساعة ، ذلك أن انتقالها الى الغرفة المجاورة لغرفته استغرق من الوقت واستدعى من الاخذ والرد أكثر مما كانت تتوقع . وكان الباب الذي بين الغرفتين موصداً والمفتاح ليس فيه فاحتاج الامر الى البحث عنه ، يضاف الى ذلك أن أشياءها كانت مبعثرة فاضطرت أن تقضي زمنا في ترتيبها في الحقائب قبل نقلها ولم تشأ أن تجلس وحدها الى المائدة في حجرة الطعام لئلا يثير ذلك لغطا لاضرورة اليه فأوصت بأن يرسل اليها في غرفتها الجديدة . وأن يعد لابراهيم مرق يرسل مع طعامها ليصيب منه في الليل اذا أحس بالجوع وأمرت بأن لا يزعجه أحد في أي حال من الاحوال ثم مضت الى الغرفة وفتحت الباب المتوسط ودخلت على أطراف أصابعها فألفته نائماً .

وأشعلت في غرفتها سيجارة وراحت تفكر : ماذا يكون عمل دا شتدت عليه وطأة المرض ؟ ان البوادر ليست حسنة لان درجة الحرارة تسع و لا ون لا نصف درجة كما كدت عليه

ولم تشأ أن تدعو الطبيب حتى لا تزعجه . ولكنها ستضطر الى ذلك فى الصباح اذا لم يتحسن . ولن تنقصه العناية والحدب فانها قائمة بخدمته ساهرة عليه ولو احتاج الامر الى دمها لبذلته له راضية مسرورة . ولكنها على كل مابينهما من الحب والمخالطة لم يخطر لها يوماً أن تعرف عنه أكثر مما عرفت أول يوم . أكثر من اسمه ، وهو أيضاً لم يعن بأن يسألها شيئاً ، وقد قنع كلاهما بصاحبه واستغنى عن كل سؤال ، وقد كان هذا حسنا ولذيذا الى الآن . غير أن المسألة تغير وجهها فصار لامفر من أن تعرف بعض ماتجهل

ولما وصلت فى تفكيرها إلى هذا الحد ، انتفضت كالمحمومة فنهضت وهى تقول

« كلا كلا ! انه بخير . بخير ، ولن اسأل عن شىء ! يالله ! لماذا تغزو رأسى هذه الخواطر المزعجة ؟ كيف يطاوعنى قلبى ان أتصوره بسوء ؟ لا لا لا ! هذا محال ، محال محال . »

وانكفأت على السرير ودفنت وجهها فيه ويداها ممدودتان عليه وجاهدت مستميتة أن تنفى من رأسها كل خوف وأن تفرغ على نفسها السكينة وترد إلى قلبها الطمأنينة ، ولكنها عبثا كانت تحاول ذلك ، فقد ظل الحب المستغرق ، يوسوس لها بالخوف ويجسم الامر فلم تطق صبرا ، وعادت إلى ابرهيم تنظر ،

وكان لا يزال نائما ، ولـكن ابتسامة كانت على شفتيه ، كأنما سره في منامه حلم ، فنازعتها نفسها أن تقبله غير أنها كبحت رغبتها بجهد مخافة أن توقظه ورجعت .

وهكذا انقضى الليل في وساوس وهواجس ، تتخللها اغفاءات قصيرة وأصبح الصباح ولم تذق طعاماً ، ولا نوما هنيا.

— ٢ —

لم يتغير جو الغرفة وان كان ابراهيم قد أصبح أسوأ حالا مما بات ، على انه سرعان ما وطن نفسه على المرض وراض نفسه على احتمال متاعبه ومقتضياته ، وكف عن المكابرة من غير ان يفقد سكينة نفسه ، وكان التنفس سريعا شاقاً والسعال قد صار أسوأ والالم في جنبه، أحد ولـكنه مع ذلك كان يبتسم للطبيب الذى دعته ليلى ويسأل،وكأن الامر يعنى انسانا غيره :

« والآن يادكتور ألاتحدثنى عن هذه البنيمونيا ؟ ان اسمها لا ينقل لى أى معنى ولا يحدث فى ذهنى أى صورة ، وأحسب أن من حقى أن أعرف شيئاً عن عدوى الذى يهاجمنى اذ كان يراد منى ان أقاومه »

وكان صوته غير ضعيف ، ولـكن الالفاظ كانت تخرج متقطعة فقال الطبيب

« لاصعوبة فى افهامك ماهى . الرئتان مكتظتان بالدم — على الاقل واحدة منهما عندك ، والهواء مضطر ان يخلى المكان للدم،

فارئة لذلك لا تكاد تعمل ، ومعنى هذا ان واجب الرئة الاخرى مضاعف ، وعلى القلب يقع عبء هذا الاجهاد أظن هذا كل ما هناك »

فقال ابراهيم وهو ينظر إلى السقف ويرسم بخياله عليه صورة قلبه المكدود ورئتيه اللتين تهيب احداهما بالاخرى أن تبذل أقصى ما فى طوقها لامداد صاحبهما بما يحتاج اليه من الاوكسيجين وقال

« ان هذا ممتع جدا ولاشك »

فسأله الطبيب وهو لا يكاد يفهم

« ممتع ؟ كيف »

وقال لنفسه « ان البنيمونيا هى البنيمونيا ، وكل شىء فيها الا الامتاع » فسأله ابرهيم

« وما هو العلاج ؟ اذكره لى بدقة . فانك كلما زدتنى بيانا كان ذلك اعون لى على مساعدتك ألا تريد ان اساعدك على العلاج ؟ »

فابتسمت ليلى كأنما تباهى بعليلها وقال الدكتور

« ليس شيئاً كثيراً مسكن فى الليل ، وآخر لمساعدة القلب ، وقليل من السكوبياك كل بضع ساعات ، ولزقة لتخفيف الالتهاب وتهوين الألم الذى فى جنبك وأهم من هذا كله ان تكف عن الكلام ، فان الحرارة عالية والكلام يضرك ولا ينفعك »

فقال ابرهيم

« لا تخف. ولكن الامر فيما أرى يحتاج إلى ممرضة فهل من سبيل إلى واحدة في الاقصر ؟ »

فتدخلت ليلى وقالت للطبيب

« لا داعي لهذا — اليوم على الاقل ، وعسى ان لا نحتاج غداً إلى شيء ، فانه كما ترى مريض لا يتعب »

فابتسم ابراهيم وقال

« مهلا ! سترين كيف أتعبك ! فلا تكوني واثقة جداً ! »

وأحس ابراهيم وهو يقول ذلك كأنه انتقل إلى عالم جديد لا تبالي فيه المرأة ان تضيف إلى لياليها الساهرة ، ثانية وثالثة إذا احتاج الامر غير عابئة بأنها تقضي نهارها وليلها مع مريض مقضي عليه بالصمت . أهو الحب الذي يقويها ويشد أعصابها ؟ وطافت برأسه صورة شوشو وتمنى لو أنها إلى جانبه ترعاه وتحنو عليه وتغمره بطهارة مسها — وابتسم ؟ [illegible] ؟ هل كسب عليه [illegible] وكيف نفسه متشجعاً متصبراً . وأراد أن يتكلف البشر ويتسع لابتسامات كما فعل وهو يحادث الطبيب . ولكنه هز رأسه [illegible] ثم [illegible] متشككاً . فان التكلف لا يكون بين المرء ونفسه . ومن عسى أن يخدع ؟ انه مريض طريح وليس في بدنه ذرة من الصحة . كل من حوله أصحاء لا هو [illegible] أسير المرض .. هو وحده الذي يحمل عارها . وسيقول كل من يسمع ترجمته . في الاقصر وفي لندن ايضا . كل من يسمع ترجمته سيقول : مسكين مسكين .

حتى نجية إذا اتصل بها الخبر ستقول نه مسكين . وسيدركها العطف عليه، لقد أرادت أن تحطم له قلبه وأن تقصف له ضلوعه ولم تمأ بذلك ولم تبال ماتهدى اليه من آلام العمر كله ولم تحس أنها صنعت أو يمكن أن تصنع سوءاً . ولكن قلبها سيتفطر إذا علمت أنه مريض وأنه مصاب ولو بزكام ! أليس هذا عجيباً ؟؟ بل صحيحة أيضاً ! صحيحة التى لاشك أنها تبغضه ستتألم مخلصة . نعم مخلصة . مافى هذا ريب ... وإن كانت هى التى جنت عليه وعلى شوشو ... إذن سيعطف عليه الناس ؟ ألا إنه لمسكين حقاً ! وعز عليه أن يكون موضع عطف أحد من الناس — قريباً كان أو غير قريب — وانف أن يرثى له أحد . واستكبر أن يكون ذكره مقروناً بالشفقه عليه فان العطف يضع المرء فى منزلة دون الناس فبأى حق يعطفون عليه ؟ ماشأنهم هم ؟ ليكن مريضاً وليكن مشفيا على الموت أيضاً فان هذا أمر لا يعنى أحداً سواه ! وأقسم فى سره لئن كان لابد من الموت ليفعلن ...

ولكن ما الداعى إلى التفكير فى الموت ؟ ألم يقل له الطبيب « إنى أهنئك مع ذلك . فانك مصاب باهون أنواع البنيمونيا لا بذلك الطراز الحديث منها الذى نسميه « برونكو — بنيمونيا » وهو ضرب لانعرف أين نحن منه لان الحالة لاتكاد تتحسن فى موضع حتى تسوء فى موضع آخر : أما « اللوبار بنيمونيا » فأبسط تبدأ مسرعة ويطرد الامر فيها إلى الازمة بغير تقلب وبدون

مجاورة . وقد تستمر ثمانية أيام أو عشرة والمهم هو الاوكسجين والنشادر الحيوية على الخصوص . الارادة فلا تنفق حيويتك فى شىء آخر . ولا تبعثر إرادتك وقوتك ونشاطك . سنعطيك كل ما من شأنه أن يزيد حيويتك أو على الاصح يحفظها ويدخرها. ولكنك أنت العامل الاكبر فى الشفاء فلاتقلق ولاتنزعج لان الانزعاج يضعف الحيوية »

ولم يعجب ابراهيم هذا الكلام ، ولم يرقه أن يكون هو العامل الاكبر فى الشفاء ، وود لو أن الطبيب اعتمد على عنصر اجنبى عن نفس المريض ، عنصر لايتأثر بخوالج النفس وعواطفها وما تجيش به من الذكر والآمال ، وجعل وهو ينظر الى السقف ينحى على الطبيب ويتهمه ويظلمه ، وكان واثقاً وهو يفعل ذلك انه ظالم له ، ولكنه شعر أن الظلم لذيذ ، وقال لنفسه ان هـذا الطبيب قوى صحيح ففى وسعه أن يحتمل مقدارا عظيما من الظلم من غير أن يضيره ذلك

وقالت نبيلة ، وهو ناظر الى السقف ، كأنما يخجل أن ينظر اليها وهو مريض

« الا تظنين ان الاوفق أن تطلبي ممرضة لتساعدك ؟ »

فقالت وهى تدنو منه وتمسح له فمه بالمنديل

« هل ترى لاداعى لذلك اليوم ، وقد وافقنى الدكتور ، وفى هذا مايضمنى . ولذلك أصر على الارجاء »

صدره تعلقها بما يطمئن ، ولكن الحاجة الى الاطمئنان معناها أن هناك داعيا الى القلق ، فلم يرتح الى هذا الخاطر . وذهب من أجل ذلك يلح عليها ويقول

« أنا أرى أنه لابد من ممرضة . ان المريض يجعل الغرفة كالسفينة الجارية . أعنى أن آلاتها لابد أن تظل دائرة ليلا ونهاراً ، بلا توقف ، والليل والنهار ليسا فى البحر سوى "تمين"»

وابتسم لنفسه وقد أعجبه هذا التشبيه ، وخيل اليه أن تشبيهه هذا جعل مرضه يبدو طبيعيا . وذهب يفكر فى غرفته كأنها سفينة ، ولكن ليلى أصرت فكف عن الكلام وأغمض عينيه وقد أسخطه على نفسه أنه أظهر ضعفاً بالحاحه على ليلى أن تدعو ممرضة . ونسى أنه تعهد للطبيب أن يساعد نفسه ، وها هو الآن يبدو لليلى جبانا خوارا ويفضح نفسه أمامها ! ولماذا؟ هل كل من يصاب بهذا المرض يموت ؟ كلا ؟ فلماذا يخشى هو أن يموت ؟ وهبه مات فماذا اذن ؟ انه سيلقى أجله على كل حال . فما الداعى الى هذا الوجل السخيف ، أى معنى لهذا القلق لدرى؟ وعلى أنه سيشفى لامحالة . نعم فان أكبر عامل فى الشفاء هو المريض نفسه ولو أن الشيخ على مكانه لغلب على المرض بقوة الارادة - ارادة الفور ولو أن أمه هو كانت هى المريضة لغلبت مرض بقدرتها المدهشة على الاستخفاف به أو اذا شئت فقل عجزها عن ادراك حقيقته ومدى خطورته — لا بل بقوة الاستخفاف

بالاستهانة ، بالايمان القوى الذى يجعل النفس تتلقى كل مايصيبها باطمئنان وابتسام ، وقلة مبالاة بما يكون ، وثقة بأن المصير خير على التحقيق ، وبأنه لاموجب للاكتراث .

وسكنت نفسه وهو يتصور أمه تبتسم للموت وتهش لاستقباله وتهز كتفها استخفافا به وفرحا بما بعده من جنة الله ورضوانه ، وأحس بأنه قد صار أهلا لأن يكون ابنها وخلصت أنفاسه . وخف الالم الذى فى جنبه ، وارتاح وهو يشعر بما أحدثته فضيلة الارادة ، وبنجاحه فى تغليب العقل على الجسم وتحكيم الروح فى البدن فقد كانت فكرة واحدة كافية للتأثير فى أنسجته بل فى عضلات قلبه

وقال وهو يبتسم

« إنى الآن أحس ... لقد أفادتنى ! »

فقالت نبلى وهى تحنو عليه

« ماذا ؟ ما الذى أفادك ؟ »

فقال من غير أن يحول عينيه عن السقف

« أمى ! »

— ٣ —

من الممكن أن يقتصر [illegible] ى [illegible] بيل أبيه وتحت عقدة حد [illegible] ت
باسم [illegible] براهيم و [illegible] علقت على مشيب . ولا شك أن هذا غير جا [illegible]

ولـكنه لاشك أيضا أنها ألفت نفسها مرغمة على ذلك . فقد كان ابراهيم لا ناعاً ولا مستيقظا ، ولم يكن فى وسع أحد وهو ينظر اليـه أن يعـلم أيهما هو ، أما الواقع فذاك أنه كان بين اليقظة والمنام — يهذى ، وكان يحلم بشوشو ويرى نفسه فى بيته مع أمه وابنـه ؛ وكانت شوشو تتراءى له فى حلمه كأنها سيدة البيت، وسره هذا الحلم فراح يعجب لماذا لم يخطر له أن يرى هذا الحلم من قبل ؟ وكانت شوشو تبدو له رائعة بينـة العطف بارعة فى ادارة البيت كفئاً لمطالبه ، وكان هو يحس أن مجرد وجودها شفاء ، وأن نظراتها سماوية وأن حركاتها تفتر أعضاءه وترخى جفونه وتشعره السعادة ، وان كل امرىء يعبدها ويستوحيها ويستمد منها الهداية والارشاد

وتعلق ابراهيم بهذا الحلم وصار يتشبث بصوره ويسحر نفسه بمناظره وكانت وأنفاسه كأنما تعالج الخـلاص من شرك وكانت مناظر هذا الحلم تروح وتجىء بين خيوط هذا الشرك فالامر مختلط ولـكنه على هذا لذيذ

ولم يكن يدرى أن ليلى واقفة الى جانبه تنظر الى وجهه وتلاحظه وهو يربد ثم يصفو ، وتسمعه وهو يناجى شوشو ولا كانت هى تدرى من عسى أن تكون شوشو هذه التى يذكرها فى منامه . وقد حسبتها — ولها العذر — أختاً له وان كانت الغيرة قد همست فى أذنها أنها لعلها زوجة أو حبيبة . ولـكنها لم تسمع

ابراهيم قط يذكر أحدا من أهله أو أقربائه . واغرب من ذلك أنها كانت تراه يتلقى الخطابات فينظر الى الظروف ثم يدسها فى جيبه من غير أن يفتحها وكان هذا يسر ليلى منه لانها اتخذته دليلا على أنه لايريد أن يشغل نفسه عنها حتى ولا بخطاب . فلو أن له زوجة أوحبيبة لدفعه الشعور بالواجب أو الحب الى قراءة هذه الكتب ولما وسعه فى كل مرة أن يصبر حتى يخلو بنفسه وكيف يمكن أن تكون له حبيبة أخرى ؟ ؟ ألم يهبها نفسه كما وهبته نفسها ؟ ألم يقطعها قلبه كله ؟ أ كان من المستطاع أن لا يزل لسانه أو تشى حركة واحدة بان له سواها ؟ كلا !

وصرفها طول هذيانه . وهى الى جانبه . عن هذه الخواطر الشخصية . فعادت تفكر فيه هو وفى واجبها حياله . فلم يبق عندها شك فى أن واجبها الاول أن تتصل باهله إذا كان له أهل، وصحيح أن الطبيب قد طمأنها قليلا ولكنه لم يستطع أن ينفى مخاوفها كلها ، وقد علمت منه أنه لا يزال أمامه بضعة أيام قد تكون خمسة وقد تزيد . قبل الازمة ولا سبيل إلى الجزم بشيء قبل ذلك وان كانت الحالة العامة وحالة القلب على الخصوص لا تدعو الى القلق

ومن غير المعقول أن تسأل ابرهيم عن أهله وهو يكابد كرب هذا المرض ، فان مجرد السؤال قد يضعف حالته النفسية ويوقع فى روعه أن صحته ساءت وأنه فى خطر ، فالطريقة الوحيدة لعلم

بالجهل أن تبحث بين أوراقه لعلها تهتدي إلى شيء .

ولم يكن اسهل من ذلك لأنها تتولى كل ماتقوم به الممرضة والأهل، تعاونها فى ذلك احدى خادمات الفندق كلما هد السهر قوتها ، فهى التى تسقيه الدواء وتقدم له الغذاء المسموح به وتغير له ثيابه وتفعل غير ذلك كل مايحتاج اليه ، ولا تكل أمره للخادمة الا بضع ساعات فى الليل تنامها فى غرفتها المجاورة له ، وقد استغربت وهى تبحث فى حقائبه ان ترى كل الرسائل غير مفضوضة وزاد عجبها أنها جميعا موضوعة فى ظرف كبير أصفر ، فليس عدم قراءتها راجع الى نسيان ، فان آية العمد هنا لاخفاء بها ، ولا بد أن يكون لذلك سر ، واحمر وجهها وهى تقول لنفسها وفى يدها الرسائل ، أترى لشوشو التى يهذى بها علاقة بهذا السر ؟؟

وتصف ليلى فتقول أنها طردت هذا الخاطر وهى تمضى الى غرفتها بالرسائل ، وآلت أن لا تقرأ منها الا بقدر ما تقتضيه الضرورة ، ولكنها لم تكد تفض واحدة حتى ألفت نفسها تسترسل فى القراءة وقد ذهلت عن كل شيء — حتى عن مريضها — الا سطور الشكوى المرة والفجيعة القاسية التى ينطق بها كل حرف مما كتبت شوشو فى رسائلها التى لم تتلق عليها رداً ، وتصف ليلى مرة أخرى فتقول انها لم تشعر بذرة من الغيرة ، كلا ، ولا بشيء من الشماتة أو السرور الذى كان خليقا ان يفيدها ... ... — الناقص — ان ابرهيم لا يجارى شوشو حبا بحب ، ... ...

لا يعني بسبب ما حتى قراءة رسائلها ، ومن أين لها ان تعلم ان حب ابرهيم لشوشو دفين فى صدره وان البركان كأحر ما يكون وان كانت فوهته لا تقذف بالحمم ؟؟ وانما الذى شاع فى نفس ليلى هو العطف على شوشو ، عطف هو من كرم النفس لا من الشماتة المنكرة ، حتى لقد بكت عيناها وهى تتصور الهول الذى تقاسيه شوشو والذى تنم عليه رسائلها

و ضحكتها رسالة الشيخ على — أضحكتها عباراتها وان كانت مع ذلك قد كشفت لهـا عن جانب العناد والصلابة من نفس ابراهيم وأرتها مبلغ ما فطرت عليه هذه النفس من الوعورة ، ثم بعث ابتسامها ان غاض ، فذهبت تفكر فيما تدل عليه هذه الرسالة العجيبة .ولم يخالجها شك فى أن ابرهيم يطوى بين اضلاعه حكاية غريبة الاطوار

ولكن اطلاعها على هذه الرسائل لم يفدها شيئا ولم يدنها من حل المشكل وكل ما عرفته أن هناك فتاة أو امرأة — فتاة على الارجح من الحرج جديد تحب ابرهيم وان أهلها واقفون فى سبيلها ، وانها فى جحيم من العذاب والمكايدة ، وان هناك رجلا اسمه « على » ظاهر من بين السطور ان له دالة على ابرهيم ويحاول أن ينالعه من نفرته، ورسائل شوشو من الاسكندرية ورسالة « على » من بلدة اسمها « م . ح » وقد يكون اولا يكون هناك علاقة تنتظم هؤلاء الثلاثة : « ابراهيم ، وعلى ، وشوشو »

وطوت الرسائل وهمت باعادتها الى حيث كانت واذا بالخادم ينبئها أن ابراهيم مطلوب الى التليفون ، فبماذا يجيب ؟

فسألته « من الذى يطلبه ؟ »

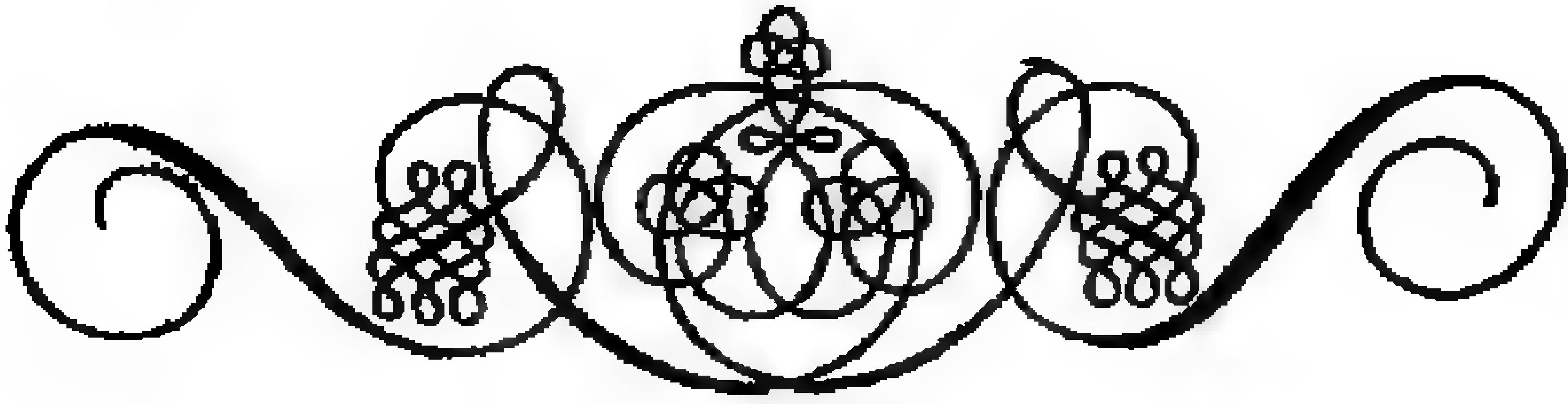
قال « أبى أن يذكر لى أسمه . ولكنه يتكلم من بلدة م ... »

فنهضت وقد طاف برأسها ان لعله « على » صاحب الرسالة وقالت

« حسنا . سأخاطبه بالنيابة عنه »

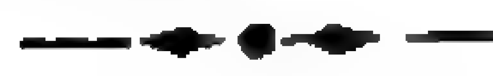
ومضت تعدو الى التليفون ، وكان الذى يخاطبها هو الدكتور محمود لا الشيخ على ، فعلم منها ان ابراهيم مريض وانه مصاب بالبنيمونيا وان له ثلاثة أيام ، ووصفت له الحالة ونظام العلاج بأدق ما تستطيع ، ولم تستطع هى — من ناحيتها — أن تعرف اكثر من انه الدكتور محمود وانه سيكون فى الاقصر بعد غد.

ولم يسألها من هى ، ولعله ظنها ممرضة ، وكان واضحا من لهجته ولهفته ومن اعلانه اليها انتواءه الحضور الى الاقصر ان له بابرهيم صلة وثيقة ، ورجحت انه يكون من ذوى قرابته الأدنين فعادت وهى تحس أن مسئوليتها قد خفت وان لها الآن ان تطمئن من ناحية الاتصال بأهله



الفصل التاسع

(من هو جاهل فليمل الى هنا)



نقر الخادم على باب الشيخ على ودعاه أن يوافى الدكتور محمود فى حجرة المطالعة وكانت الساعة لم تتجاوز السابعة ، فوقف يتمطى ويلعن الدكتور ويتسخط منه هذا النشاط ، وكانا قد وصلا إلى الاقصر قبيل منتصف الليل ، فطلب الدكتور محمود من عامل الفندق أن ينبىء « السيدة » التى تتولى أمر ابراهيم أنه قدم وأنه يريد أن يراه أول شيء فى الصباح

ودخل الشيخ على غرفة المطالعة فلم يجد بها أحدا ، وكان جائعاً وقلقا فلم يستطع أن يستقر فى مكان وجعل يروح ويجىء وهو يغمغم ويتمتم وانه لفى احدى هذه الروحات والغدوات وظهره الى الباب ، واذا بصوت ناعم حلو يقول

« بونجور يا دكتور »

وذكر بالصوت صوتاً آخر يشبهه ، فهم ان يلتفت الى مصدره ولكنه تردد فان الخطاب ليس موجهاً اليه واذ كان يعلم أن ليس فى الغرفة سواه ، فهل دخل غيره وهو لا يشعر ؟ وخطا خطوة

وهو يتوقع أن يسمع رد الدكتور على التحيــة ، ولـكنه لم يسمع شيئاً فعجب ووقف ودار على عقبيه واذا به يرى الفتاة التي أسمعه مايكره في عيادة طبيب الاسنان في الاسكندرية ، . وكانت مقبلة عليــه وعلى ثغرها ابتسامة وضيئــة ، ويدها كأنها تتهيأ للمصافحة ، ولم يكد يراها حتى جمد في مكانه ، وند عن صدره صوت لايحسن وقعه في أذن فتاة ولو كانت دميمة بغيضة ولم تكد هي تراه . حتى كأنما صدها جدار وغاضت الابتسامة وامتقع وجهها وارتفعت يدها إلى خدها

ولـكن الشيخ على ضبط نفسه بسرعة فابتسم وهو يقول :

« معــذرة فاني لم أنس الملفة ، ولم أكن أتوقع أن نلتقى بهذه السرعة »

فابتسمت بجهد واضح ، وتلفتت يمينا وشمالا ، وفي عينيهــا كل امارات الحيرة والتردد والدهشة ، ولحظ الشيخ على هذا ، فرده الى ما كان بينهما من التنابذ ، وسره ارتباكها وما توهمه من خجلها لما كان من تطاولها عليه ، وأراد أن يسرى عنها فقال وهو يدنو منها

« لا تخافى فانى وديع كالهرة وان كنت ضخما كالفيل . وما تحملت مشقة السفر لآخذ بثأرى بل لأعود مريضا . وقدكانت بيننا حرب فليكن بيننا صلح »

ولم يصدق الشيخ على انه هو الذى قال ذلك ، ورضى عن نفسه لما قاله فلج فى الابتسام واجترأ فمد يده الكبيرة

ولم يخالج ليلى شك حين سمعت هذا الكلام منه انه هو الدكتور قريب ابرهيم ، فلم يبق لها مفر من أن تفىء الى المحاسنة وان ترد نفسها عما همت به من المخاشنة ،وأحست ان كونه قريب ابرهيم من شأنه ان يرفع الكلفة فناولته كفها البضة وقالت وقد عاد وجهها يرف

« انى مسرورة بلقـائك . وأؤكد لك ان وجودك هنا من أكبر دواعى ارتياحى واطمئنانى »

وضحكت وهى تضيف إلى ذلك« لقد صدق المثل مرةأخرى: اللى أوله خصام آخره صلح . أليس كذلك ؟ »

فدارت الارض بالشيخ على ، ولم يعد يدرى أواقف هو على رأسه أم على قدميه ، وشاعت السعادة فى جسمه وفشت فيه الغبطة طولا وعرضا ، واهتز كيانه كله وهو يضغط كفها الدقيقة الميسة ويرفعها الى شفتيه وينحنى عليها ويطبع فوقها قبلة صامتة طويلة

فاضطرم وجه ليلى واضطربت ، وأسرعت فجذبت يدها وقد ارتج عليها فلم تعد تدرى ماذا تقول،واذهلهاهذا السلوك الجرىء وتنازعتها عوامل شتى متضاربة ، وكبر فى ظنها ان هـذا رجل مستهتر . وأرعبتها نظرته الـلامقة باشتهاء المطمئن الى تحقيق رغبته الواثق من وقوعه على فريسته .

وبينما كان الشيخ على يميل كالجبل ليلثم كف ليلى،وعينه معلقة بعينها وعلى وجهه آيات الافتتان ، كان الدكتور مقبلا، فلماهم أن يدخل أخذت عينه هذا المنظر فكاد يجمد فى مكانه فما رأى قريبه قط فى مثل هذا الموقف ولا كان يجرى له فى وهم أن الشيخ على مهدا بذلك ، ومنعه احترامه لقريبه أن يقدم على مفاجأته أو يجترىء على مقاطعته فارتد على عقبيه وذهب من حيث جاء ، وقد مى ابرهيم لحظة وانصرف تفكيره لى تصابى الشيخ على ومنظره فوهو كالفيل يحنو على غزال ، فضحك وقال « ولكن من عسى أن تكون الفتاة ؟ »

وخطر له أن لعلها ممرضة ابرهيم ، فما كان يظن أن التى كلته فى التليفون الا ممرضة ،وله العذر ، ومن اين يعرف حقيقة الصلة التى بيها وبين ابرهيم ؟وقال لنفسه إن هذه الفتاة لابد أن تكون الممرضة ، فما يعقل أن يستطيع الشيخ على أن يصل بمثل هـذه السرعة الى لثم الأكف اذا كانت الفتاة أجنبية أى احدى النازلات فى الفندق . ولكن ماذا يمنع أن تكون صاحبة له التقى بها هنا مصادفة ؟ ومادام أن الشيخ على يعرف كيف ينحنى ويقبل أيدى الغوانى فلماذا لا تكون له صلات مجهولة بنساء اخريات ؟

وحار الدكتور ماذا يصنع ، وليصاب الشيخ على كما يشـاء وليغازل من يحب فان هذا لا يكاد يعنيه ، وفى وسعه — أى الدكتور — أن يدعه وما اختار لنفسه ، والمهم عنده هو أن

يقابل الممرضة ليمهد لابرهيم من غير أن يزعجه أو يحدث له اضطرابا أو يثير في نفسه المخاوف من جراء مرضه، ولابد لذلك من الاتفاق مع الممرضة قبل العيادة لتقوم بما يلزم من التمهيد، فكيف يلقاها؟ إن موعده معها — ونظر الى ساعته فألفاها قد جاوزت الوقت الذى عينه — في حجرة المطالعة ، وحجرة المطالعة يشغلها هذا الدون جوان وصاحبته ، فما العمل؟ أيبعث اليها بالخادم يدعوها؟ إن معنى هـذا يكون أنه سيغيب عنه الخادم في مفاجأة قريبة ومقاصته اذا كانت الفتاة هي الممرضة ، وابتسم وهو يحدث نفسه بأن مقاطعة الخادم لهذا الفصل الغرامي لن يسوء وقعها في نفس قريبه أولا لأن الشيخ علي لن يخجل على الارجح من خادم غريب ، وثانيا لأن الخدم — على الارجح أيضا — أقدر على انقاذ الموقف.

واستقر رأيه على ذلك

* * *

ولم تكن ليلى أقل اضطرابا وحيرة ، فإن عليها أن تحس — من أجل ابرهيم — جرأة من توجهه ذنبا وعيبا لا يوجهه ، ثم لا بد لها من صده وإلزامه حدود الأدب ، فتمسكت نفسها بجهد وقالت :

« ألا تجلس ؟ »

فمال الشيخ على الكرسي وأخفض عينيه ، وقد نسي أنه على موعد مع الدكتور محمود في هذه الحجرة بعينها وأنه قد يدخل عليهما في أية لحظة ، وذلك في غمرة ذهوله بحسنها ، وهو يمرح من

خطف هذه الفتاة التى أوجعته فى عيادة طبيب الاسنان ، يوشك أن يتحقق ، فابتسم ابتسامة عريضة وقال

« قلما تصدق الاحلام ، ولـكن حلمى فى هذه المرة صادق . ولعل هذا لانه من أحلام اليقظة »

فلم تفهم ليلى ، وخافت أن يكون هذا الكلام مقدمة لمذة تكره فقالت

« أرجو أن تنتظر لحظة . لن أغيب طويلا »

فنهض وهو يقول بلهفة

« ولـكن لماذا تذهبين وتتركينني بهذه السرعة ؟ »

فعجبت لسؤاله ولـكنها لم تر بأسا من الشرح فقالت

« دقائق . فان الواجب يقضى باتخاذ الحيطة اتقاء لعواقب المفاجأة . أليس كذلك ؟ »

ومضت عنه وهو يقول معجبا بها

« ياعصفورى البديع ! »

ولما اختفت زاد على ذلك

« لقد كدت والله آكلك ! »

وراح يتمشى .

ومن عجائب النفس الانسانية ان الحالة التى تكون مستولية عليها هى التى تكسب المعانى ألوانها ، بل هى التى تعين للالفاظ معانيها .

ولم تكد ليلى تسير خطوات حتى قابلها خادم وقال لها باحترام

« ان الدكتور محمود ينتظرك ياسيدتى فى الصالون »

فوقفت وسألته مستغربة

« الدكتور محمود ؟ من عسى أن يكون ؟ »

فقال الخادم

« الذى وصل أمس ياسيدتى »

فدهشت ليلى وقالت

ولكنى كنت معه الآن . منذ نصف ثانية ، وقد تركته هنا »

وأشارت إلى غرفة المطالعة ، فقال الخادم مصرا

« كلا ياسيدتى . ان الدكتور محمود فى الصالون وأنا آت من عنده الآن . »

فتلفتت ليلى كالحائرة ثم قالت

« اذن من الرجل الآخر الذى هنا ؟ »

فقال الخادم « لا أدرى ياسيدتى . »

فايقنت ليلى أنها كانت مخطئة حين توهمت أن هذا الرجل الذى كانت معه هو الدكتور وثارت نفسها سخطا عليه لانه تركها تظنه طبيبا . وتحدثه بلا كلفة ، ومع أن الشيخ على لاذنب له فى هذا الخطأ ، ومع انها هى المسئولة عما توهمت ، فقد راحت تنحى على الشيخ على وتتهمه وتامنه ، وأحست أن كفها التى قبلها قد تقدت فيها نار ، وقفلت راجعة وهى لا تعى ما تفعل واندفعت

داخلة إلى غرفة المطالعة وما كادت عينها تقع عليه حتى صاحت به

« أيها الوحش ! كيف تجرؤ ؟ »

وكان الشيخ على يبتسم حين رآها مقبلة ويهم أن يفتح لها ذراعيه فأحس حين سمعها كأنما وقع على يافوخه جبل ، وتنكرت الابتسامة على ثغره فصار وجهه مشوها ، ولم يستطع أن ينطق بأكثر من « ايه ؟ » بصوت مبحوح متهدج

فصاحت به مرة أخرى

« وحش . نعم ونور أيضاً . هذا أنت ويجب أن تعلمه »

ودارت خارجة وخلفته واقفا كالتمثال .

— ٢ —

سلم الدكتور محمود على ليلى سلام طبيب على ممرضة ، بأدب وبابتسامة المتواضع ، وأشار إلى كرسى وقال بلا تمهيد

« كيف مريضك الآن ؟ »

فلم يعجبها هذا منه ، وكانت أعصابها لا تزل موتورة مما وقع بينها وبين الشيخ على ، فتجاهلت سؤاله وقالت بلهجة جافية

« لقد انتظرتك فى غرفة المطالعة . هناك كان موعدنا »

فرمى إليها الدكتور نظرة فيها من العجب والسخر معان وقال وفى ظنه أنه سيردها إلى مستواها الذى يجب ألا تعدوه

« معذرة ذهبت ثم تراجعت »

وكان يحسب أن هذه الاشارة كافية ، فقالت ليلى بالحاح ولكن بفتور

« لماذا تراجعت ؟ »

فزاد عجب الدكتور واعتدل فى كرسيه قبل أن يجيب وقد خطر له انه ربما كان مخطئا ، ولعل الفتاة التى رآها مع قريبه غير هذه

« رأيت فى الغرفة ناسا »

واقتصر مترددا ، فتجهم وجهها وقالت وقد انتوت أن تعلن الحرب

« أتستطيع أن تفسر لى هذا الكلام ؟ »

فلفت وجهه اليها بسرعة وسألها

« أى كلام ؟ »

فقالت وهى تسدد اليه نظرها

« كون وجود الناس يردك عن مقابلتى ! »

ومع اعتقاده أنها مريضة وإذ كانت فى ثياب غالية ، فقد كان فى هيئتها من الضعف وفى نظرتها من القوة وفى هيئتها من السمت ما أكرهه على احترامها ، فحرك كتفيه وطأطأ رأسه وهو حائر لا يفهم وقال

« ارجو المعذرة اذا كنت لم أفهم ما تقصدين اليه »

فقالت بلهجة الاصرار

« هل كان موعدا على حدة ؟ »

فرفع رأسه فجأة وقال « سيدتى ! »

ولكنها لم تنتظر وأخذت عنه

« أجب من فضلك ! »

فدار حتى واجهها وقال

« أرجو المعذرة مرة أخرى ، ولكنى لا أفهم عن أى شىء تتكلمين »

فظلت ثابتة الحلاق لا تحول نظرها وهى تقول

« أريد أن أفهم لماذا منعك وجود الناس ان تقابلنى هناك بدلا من أن تدعونى الى هنا ؟ »

فأحس كأنه أمام محقق وقال متهربا

« هل كنت هناك ؟ »

فلم تدعه يتحول بها عن الميدان الذى اختارته للمنازلة وقالت

« أجبنى أولا من فضلك »

فأطاعها وهو لا يدرى لماذا يطيعها وقال

« اعتذر للمرة الثالثة ولكنى حين هممت بالدخول أحسست أن وجودى غير مناسب ... اعنى ... »

فزادت شدا عليه وسألته مقاطعة

« ماذا تعنى ؟ لماذا أحسست بهذا ! »

فتلعثم وقال « ألا تعفينى سيدتى ؟ »

فقالت « كلا . بل يجب أن تقول فان الامر يعنينى »

فرأى الدكتور فرصته سانحة للتخلص وسألها

« هل كنت أنت الواقفة مع الشيخ على ؟ »

فقالت «لا أدرى مع من كنت واقفة،ولكن الذى أدريه انه وحش قليل الأدب »

فكأنما شكته بسيخ محمى فوثب الى قدميه وهو يقول

« سيدتى ! »

فقالت « ايعنيك أمره ؟ »

فقال وهو يعود الى الجلوس

« انه قريبى ياسيدتى »

فلم تنهزم وقالت

« ان كونه قريبك لا يمنع أن يكون كما أصفه ، وحشا قليل الادب »

فتمتم « ولكن . . ولكن »

فقالت « قد عرفت ماذا هو فى رأيى ، واظنك رأيت منه معى ما يكفى لاقتناعك بأنى لاأظلمه. الست تقول انك ارتددت؟ فلماذا ؟؟ لقد تركنى اتوهم انه هو الدكتور وارفع الكلفة بينى وبينه من أجل ابراهيم فجزاء الخطأ الذى اوقعنى فيه على تقبيل يدى ومغازلتى . والآن دعنى منه ، وقل لى بماذا تشير قبل أن تعود ابرهيم ؟ »

ولكن الدكتور لم يستطع أن يتابعها على نقل الموضوع بهذه السرعة ، واستغرب ان تذكر ابرهيم باسمه مجردا من كل تلقيب ، وشك لأول مرة فى أنها ممرضة ، بل أيقن أنها ليست

كذلك ، فمن عساها تكون ؟ أيسألها ؟ نعم هذا واجب اتقاء لكل سوء تفاهم يحدث بعد ذلك . فقال

« حسن . فهل تسمحين لى بتعريفى بنفسك ؟ »

فقالت بفتور « أوه ! . يمكنك أن تدعونى ليلى ، لا بأس »

« لا بأس » ؟ ماذا تراها تعنى ؟ وبدأ يقول

« هل أفهم أنك ... »

فقاطعته قائلة « لا تفهم شيئا من فضلك أن ما فعله قريبك يكفينى فى يومى هذا »

فعاد الدكتور يعتذر ، ونفض يده وهو يائس من محاولة الفهم ، واتفقا على أن ليلى تتولى مصارحة ابراهيم بحقيقة السبب فى حضور الدكتور والشيخ على ، وذلك لأن ليلى أصرت على أن الحقيقة أولى وأخف ضررا ، وقامت ليلى لتمضى ما اتفقا عليه .

— ٣ —

ولم تكد تمضى حتى خف الدكتور الى الشيخ على فى غرفة المطالعة فلم يجده ، فراح يسأل عنه ويبحث حتى وجده يتناول طعام الافطار فقعد أمامه وقال بلا مقدمة

« ما هذا الذى فعلته ؟ »

فرفع الشيخ على وجهه الكبير وقال وهو مقطب

« أهى مطاردة ؟ أم مؤامرة ؟ كل وأنت ساكت والا فلست والله مسئولا عما يصيبك »

فابتسم الدكتور وقال

« سمعا وطاعة، ولكني انما أردت أن أنبهك الى أنها ليست مريضة »

فصاح به الشيخ على

« اتريد أن أقطع لك لسانك بهذه السكين ؟ »

فضحك الدكتور وقال

« وتأكله مسلوقا أم محمرا ؟ »

فلم يجبه الشيخ على وأقبل على الطعام يلتهم منه مالا يحسب الحاسب ، ولما فرغ اضطجع فى كرسيه وقال

« هل عند هؤلاء الناس قهوة ؟ أعنى الكفاية من القهوة ؟ »

فأمر بها الدكتور ثم قال وهو ينظر الى الساعة

« سأدعك لارى ماذا صنعت ليلى »

فاعتدل الشيخ على وسأله

« ليلى ؟ من تكون هذه أيضا ؟ »

فقال الدكتور وهو يرد الكرسى الى الوراء وينهض

« ليس المسئول بأعلم من السائل ، كل ما أعرفه أنها ليست مريضة . وحتى هذا عرفته استنتاجا »

فعاد الشيخ على الى الاضطجاع وقال

« قد عرفت على الأقل اسمها وستعرف »

فقال الدكتور وهو يبتسم

« أرجو أن تحذر فانها ليست فتاة عادية . ثم اننا لا نعرف

من أمرها شيئا . أعنى علاقتها بابرهيم . ان فى المسـألة ، على ما يبدو لى ، لغزا »

فقال الشيخ على متهكما« وأنت الذى ستحله ؟ هيه ؟ اهنئك مقدما ! »

ثم قال بلهجة الجد « متى أرى ابرهيم ؟ انى لم أجىء لاحل ألغازا بل لأراه ، ومتى رأيته واطمأنت نفسى فان الوقت يتسع لحل الغازك . »

فقال الدكتور « سأخبرك بعد أن أقابل ليلى »

فقال الشيخ على« ما أسرع ماصرت تتكلم عنها كأنها أختك! لا بأس وأنا ماذا أصنع بنفسى بين هؤلاء الناس الى أن يجيئنى الاذن؟»

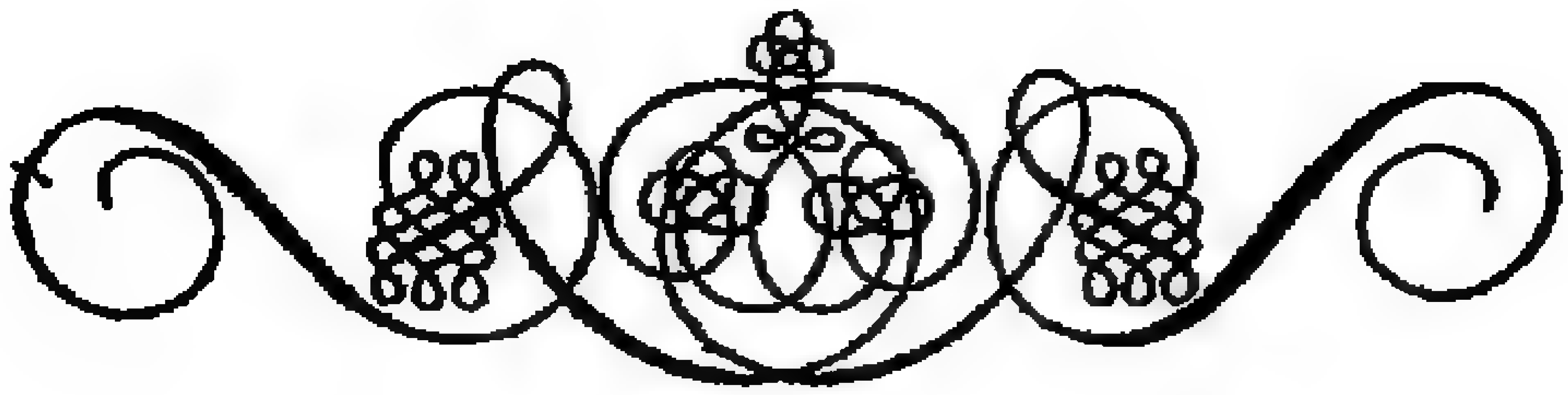
فقال الدكتور : « يمكنك أن تتمشى فى الحديقة قليلا ، أو تنتظر فى الصالون . أنها مسألة دقائق أو نصف ساعة . »

فنهض الشيخ على وهو يدمدم ويقول

« اتمشى . انتظر . اتقلق . ماذا يهم ؟ الست وحشا ؟ ثورا أنا؟ أليس كذلك ؟ ولى خوار أيضا ؟ هيه ؟ »

وخرج يدب ويرج الارض .





الفصل العاشر

« ولايعلم ان الاخيلة هناك وان فى أعماق الهاوية ضيوفها »

— ١ —

« ورأيت هذا الفيل الطيب القلب ؟ »

وابتسم ،وبوده لو يستطيع أن يضحك ، ولكنه كان أضعف من أن يحاول ذلك ، أو ينجح لو أنه حاوله ، وكان — وهو ينظر الى سقف غرفته — يتصور الشيخ على يميل على ليلى ويرفع كفها الرخصة ليقبلها فيهتز كيانه كله من فرط السرور بهذا المنظر ، وقال وهو يحول وجهه الى ليلى

« لو التف عليك خرطومه ياليلى لما أفلت أبدا . أتعرفين أنه بعد أن قص علينا ما فعلت به فى الاسكندرية ، أنذرنا جميعاً — ولاسيما زوجته — أن يخطفك ؟ »

فضحكت ليلى ، ووسعها الآن أن تضحك بعد أن روت لابرهيم ماحدث بينها وبين الشيخ على فى الاقصر والاسكندرية جميعاً ، وعرفت ما حفل به الموقف من عناصر الخطة المضحك وقالت

« لقد غفرت له ، فاغفر له أنت أيضاً ... »

فقال ابرهيم مقاطعا « ماذا؟ »

قالت « تقبيله يدى . . أتغفر هذ ؟ »

فابتسم ابرهيم وقال وكأنه لم يسمع

«ولايزال فيلناهاتجا ، لجهله حقيقة الموقف ، وأحسبه الآن يصب غضبه على رأس الدكتور محمود المسكين. انى أعرف الشيخ على وأكاد أكون على يقين مما يفعله بالدكتور الآن .. »

فقالت ليلى وهى تنهض وتمسح لابرهيم جبينه

« يحسن اذن أن أدعوهما الآن فقد بدأت أخشى أن يحيق بالدكتور سوء »

فقال ابرهيم « لا لا لا . اذ غضبه لا يضر أحدا. ألم أقل لك أنه فيل طيب القلب ؟ »

* * *

وقال ابرهيم وهو يمد كفه ويصافح الدكتور محمود والشيخ على ، وعلى فمه طيف ابتسامة :

« أشكركما جدا . تفضلا . أحسب زوجتي قد أخبرتكما بكل شيء . تفضل هنا يادكتور . الى جانبى »

قال ذلك بصوت عادى متزن النبرات لا أثر فيه للاضطراب ، وان كان ضعيفاً خافتاً بسبب المرض ، ومن غير أن ينظر الى ليلى أو الشيخ على . فاما الدكتور فاستغرب أن يكون ابرهيم قد

تزوج فى هــذه الفترة القصيرة ، ولــكن الخبر لم يصدمه ، لانه لم يكن يعرف شيئاً يجعل زواج ابرهيم من أية فتاة أمرا موجباً للدهشة ، وشعر بأن عليه أن يعتذر لليلى من توهمه أنها ممرضة وعما أدى ليه ذلك من استخفافه بها حين التقى بها فى الصالون فالتفت الى ليلى وقال قبل أن يجلس

« لقد كنت سىء الادب فالتمس الصفح »

وعجب لليلى التى كانت تطفر الى جانبهما وهى تدعوهما الى غرفة ابرهيم ، ماذا أصابها فجأة ، فقد كان وجهها ممتقعا وجبينها مقطبا ، وفى نظرتها سهوم وشرود ، ولاحظ ان ابتسامها له وهى تقبل اعتذاره متكلف ، فعجب ، وقال لنفسه لم أعد أفهم شيئا : فان عدد الالغاز أكثر وأشد تعقيدا من ان أقوى على حلها حسن ن واجبى الاول هو نحو هذا المريض وبعد ذلك يتسع الوقت لحل الالغاز ان كان لحلها سبيل ، وحاس

وأما الشيخ يحيى فقد وجم ، ودارت به الارض ، وكاد يعثر وهو يقعد على الكرسى ، وكان كرسيا من القش له ذراعان ، فلما هبط عليه ألفاه لا يتسع له ، فنهض عنه ليتخذ سواه ، ولكنه كان قد انحشر فيه فظل الكرسى عالقا به ومرتفعا عن الارض وراءه ، فثارت اثرته ونسى أنه فى حجرة مريض بالبنيمونيا و ... عنف ثم تناوله ورماه بقوة وصاح بهم جميعا

« ان لم تخطفوا هذا الكرسى فلا .. »

وأمسك ، وقد تذكر أين هو ، فسار الى الكنبة وانحط عليها فأنت متوجعة ، وأغمض عينيه وراح يفكر فى ابرهيم وعناده وكبره ، وفى هذا الخلق الوعر الذى دفعه الى الزواج من فتاة غير شوشو التى يحبها وتحبه ، ثم يحبها ، فما كانت ذرة من الشك تخالج الشيخ على فى ان ابرهيم لا يزال وسيظل يحب شوشو كأحر ما أحبها ، بل كان الشيخ على واثقا ان مرض ابرهيم ليس البنيمونيا فان هذا هراء أطباء سخفاء ، وانما الذى به هو من أثر الصراع الهائل بينه وبين نفسه . وليس هو بالشيخ على اذا لم يكن ظنه صائبا ، بل هو لا يعرف ابرهيم اذا لم يكن الامر كما يتصوره . وكر الفكر به الى شوشو المسكينة التى لم يكن ينقصها أن تهوى على أم رأسها هذه الضربة،شوشو التى اضطره سفره أن يعيدها الى الاسكندرية .. الى مكايدة أميحة وغباء نجية وكثافتها ، ولقد صار واجبه الآن نحو هذه الفتاة أقسى وأفدح ، فماذا يصنع ؟ ؟ أليس الاولى به ان يطير راجعا الى الاسكندرية ؟ ماذا يصنع هنا فى الاقصر ؟ انه ليس بطبيب ، وقد خرج الامر من يديه فيما يتعلق بابرهيم ،وهو هنا لا تنقصه العناية له طبيب يعالجه وهذا طبيب آخر معه ، وثم هذه الفتاة المجنونة ترعاه وتسهر عليه ، فليس ابرهيم هو الذى يحتاج الى العناية بل شوشو . وتوجع الشيخ على وهو قاعد على الكنبة وجعل ينفخ ويتلوى غير شاعر بمن حوله أو عابىء بهم ، وكانت

عيونهم لم تنحول عنه منذ رمى الكرسى وأضحكهم ثورته ، ولم يلبثوا أن رأوا وجومه وشروده وتململه ففاض الابتسام وان كان لم يفطن أحد الى ما فى رأس الشيخ على غير ابراهيم . ولم يتقذ الموقف غير الدكتور فقد التفت الى ليلى وقال

« هل تسمحين بأخذ الشيخ على الى مكان آخر ريثما أفحص الاستاذ ؟ »

فقالت ليلى وهى تدنو من الشيخ على

« تفضل معى . دقائق ثم نعود »

فانتفض الشيخ على ووثب ، وهو يقول أو يصيح على الاصح

« معك ؟ »

ولم يسعها إلا أن تبتسم وتقول

« نعم . وثق انى سأكون وديعة جداً . »

— ٢ —

وتقدمته ليلى فى غرفة وأوصدت الباب وراءها وجلست وهى تشير الى كنبة

« هل تعتقد فى روح ابراهيم ؟ »

ولم يكن يتوقع أن تفاجئه بهذا السؤال ، وخاف أن يكون تمهيد لهجوم جديد تعقبه الشماتة ، غير أن ليلى كانت تبتسم ولا تستعمل سخرية ، فقال

« لا تؤاخذينى فانى لا أفهم ماذا كنت تقولين ؟ »

فقالت ليلى ، مصممة عزمها على الوصول الى غرضها من أقصر طريق ...

« أقول إن فى وسعى أن أؤكد لك انك تستطيع أن تعتمد على . . . »

فتذكر الملقتين ، وقال

« لاشك . لاشك . وهل هذا أول عهدى بك ؟ »

فجلست الي جانبه وهى تكتم للضحك وقالت

« دع هذا الآن . وقل لى هل تعرف شوشو ؟ »

فغام وجهه بل اربد، وسى التى بجانبه وهو يقول

« أعرفها ؟ لاحول ولا قوة الا بالله ! مسكينة . مسكينة »

فقالت ليلى .

« أعرف ذلك . أعنى أنها مسكينه . ولكن هذا كل ما أعرفه فزدنى بها علما . حدثنى عنها »

وكان فى لهجتها من الحنو . وفى وجهها من آيات العطف ما بهت له، وطاف برأسه كخطف البرق أن لعل ابراهيم — ايثاراً منه للصراحة والاستقامة — قد ذكر لها طرفا من علاقته بها . وخاف اذا هو أجابها الى ما تطلب وحدثها عن شوشو، أن يجوز القدر الذى رأى ابراهيم ان الحزم يقضى بالاكتفاء به، والصراحة لاتستوجب اكثر منه. فقال وهو يحاورها

« اذا كنت تعرفين انها مسكينه فقد عرفت كل شىء . فماذا تبغين ؟ »

وأدركت ليلى انه متردد . وفطنت الى الباعث له على ذلك ؛ وشاورت نفسها بسرعة فاقتنعت بانه معذور ما دام يعتقد انها زوجة ابراهيم . وأيقنت أن من الاحراج القاسى أن تطالبه بالصراحة أو

عنها أو تستدرجه اليهما ما دام أن هذا هو اعتقاده ، وقررت أن تخطو الخطوة الحاسمة وتهدم كل حائل دون الوقوف على الحقيقة فقالت :

« اذا كان كل مايدعوك الى التردد هو ظنك أنى زوجة ابرهيم ... »

فوثب الى قدميه وقال

« ظنى ؟ ظنى ؟ لست إذن ... »

فحدثته الى السكينة ورفعت أصبعها الى فمها معتذرة وقالت

« لا ترفع صوتك لئلا يسمعا . كلا . لست زوجته . ولم أكن أتوقع أن يقدمني اليكما على انى زوجته . لقد فاجأني بذلك كما فاجأك تماما ... ولا شك انه فعل ذلك مدفوعا بمروءة نفسه ... الشهامة هى التى ألجأته الى وضعى فى هذا المركز ... انى رضيت هذا المقام أراد أن ينقذنى ... أتفهم ؟ . أيمنعك الآن مانع أن تحدثنى عن شوشو ؟ لقد قرأت رسائلها الى ابرهيم .. رسائلها التى لم يفتحها هو ولم يقرأها . فتحتها أنا .. وجدت نفسى مضطرة الى ذلك . لأعرف هل له أهل فأبلغهم انه مريض . . . لا شك انى ارتكبت ذنبا فظيعا ... ولكنه كان ذنبا لا مفر من ارتكابه . ولو كان أى انسان آخر مكانى ... لو أن مدير الفندق الذى لا يعنيه من أمر ابرهيم شىء ، كان مكانى لما اجترأ أن يسأله عن أهله وهو مصاب بهذا المرض العنيف . ولكنى مع الاسف لم أفهم من الرسائل شيئاً سوى أن من تدعى شوشو تقاسى مثل أهوال الجحيم . »

فدنا الشيخ على . والدمع يترقرق فى جفنيه

« هل قلت إن ابرهيم لم يفتح هذه الرسائل ؟ »

فقالت « نعم . وجدتها محفوظة فى ظرف كبيروليس بينهاواحدة مفضوضة . حتى ولا رسائلك أنت »

فهز الشيخ على رأسه وقال

« لم يكذب ظنى . فما أعمق الجرح الذى فى صدره ! »

ووضع يده على كتف ليلى وقال بصوت يفيض عطفا ورقه

« لقد كدت أصعق حين سمعت ابرهيم يقول انك زوجته . معذرة . فليس لشوشو من يحنو عليها غيرى . لست أباها ولا أخاها — ولا هي لها أب أو أخ ولكنى إبن عمها ، وزوج اختها . غير أنها مع هذا أقرب الى قلبى من زوزو — زوزو بنتى . أتفهمين ؟ أحب إلى من بنتى ! فهل تعذريننى ؟ »

فهزت رأسها أن نعم . أفهم وأعذر — ومضى هو فى كلامه فقال : ولكنى لم أفقد ثقتى بالله . كان شىء يهمس فى اذنى ان الله أكرم وأعدل من أن يرمى شوشو بقاصمة الظهر . أنهما حبيبان ، صدقيى . لاتصدقى ابرهيم . لايخدعك ظاهره الساكن أنه بركان لاقرار لها . لا أعنى أنه كاذب أو غاش . ولكنما أعنى ان مايدفنه فى صدره لاينشر ، وهو قاس جدا . . على نفسه .. مجنون اذا شئت ولكنه جنون رائع لانه جنون الارادة القوية » وقص عليها الحكاية ثم حدق فى وجهها وهو يسألها

« فهل لك فى حلق ؟ انى اتوسم فيك القدرة على ماعجزنا جميعا عنه وان كنت لاأعرف مكانك من نفس ابرهيم على التحقيق ولكن حسب أى امرىء ماسمعنا منه الآن . . . »

فقالت ليلى مقاطعة

« لقد كنا — أنا وابرهيم — حبيبين أيضا ... »

فقال الشيخ على « كنا ؟ ماذا تعنين ؟ »

قالت « نعم . كنا . أما الآن فانى أخلى مكانى لشوشو »

ولم يكن يبدو عليها شىء من التمزيق الذى احتملته فى صدرها حتى استطاعت أن تنطق بهذه العبارة . وراع الشيخ ظاهرها الساكن الذى تكذبه نظرتها الميتة. فلم يملك نفسه فجذب رأسها وطبع على شعرها قبلة أبوية وقال

« لست امرأة . انك ملك . لم أكن أعرف أنكما . . . تالله ما أغبانى ! كلا ! لست أقوى أن أسلبك ابرهيم . انك له . وأنت أيضا أهل لذلك . »

وفى هذه اللحظة سمعا نقرا فنهضت ليلى خفيفة لتفتح الباب

الفصل الحادى عشر

(مثل ندى حرمون النازل على جبل صهيون)

وضعت ليلى يدها على اكرة الباب الموارب بين الغرفتين ووقفت منصتة لاتنظر . فقد كان السكون المخيم فى غرفة ابرهيم رائعا . ولعل القاريء يعرف ذلك السكون الذي يسود النفس فكانه مدخل الجسم وينفذ الى القلب ثم يذهب يغرد ويشدو بمدح لا شيء . أو لعله جرب ذلك الشعور العميق الذى يستولى على النفس فجاة ويشيع فيها وهشو . والذى لا سبيل الى العبارة عنه — ذلك الاحساس الذى يخيل للانسان انه دودة تضطرب فى أحشاء الزمن . أو انه راقد بوجه من الخشب وهو يعجب لنفسه ولما حوله ويقول فى اعماق سريرته « ما هذا ؟ ما معناه ؟ من أين جاءنى هذا الخشب الخشن ؟ وما هو معنى أن يكون الانسان حيا ؟ » وما أظن الا ان كل انسان قد جرب ذلك السكون الذي يجعله يتوهم انه يحلم نفسه وان حياته وجسمه وكل شيء — كل اولئك ليس سوي حلم يتراءي له ، وان كل ما يبدو لعينه ويجده قلبه ويجنه صدره ويقع له — هذا كله قد حدث من قبل فى مكان آخر ووقت غير هذا .

ومضت ليلى خفيفة الي السرير ففتح ابرهيم عينيه يبطه على سواد الليل — فقد كان النوم لا يؤاتيه فى النور — وقال :

« من أين جاء هذا العرق كله ؟ لكأنى فى مغطس »

ولم يكن الكلام موجها الى أحد معينه ، ولعله لم يكن يحسب أن فى الغرفة سواه ! ولكن ليلى حنت عليه ودست يدها تحت الملاءة البيضاء ثم قالت وقد أشرق وجهها وتهللت أساريره وان كانت الظلمة قد حالت بين ابرهيم وبين الرؤية :

« مبروك . مبروك . »

فرفع الفتى عينيه فيهما من الدهشة والسرور أنه مضى معانى وقال :

« مبروك ؟ ماذا تعنين ؟ »

فقالت وهي تربت له حده بكفها العصه

« انها آية الشفاء ألم تكن تعلم ؟ »

فقال « كلا »

فقالت وهي تضحك « نعم . وقد كنت جالسة انتظر . فقد أنبأني الدكتور محمود — ما أصدق فراسته — أنه يتوقع أن تكون الليلة هي الفاصلة فاما أن يشتد المرض ويتفاقم الحال ، واما ان تهبط درجة الحرارة ويكثر تصبب العرق ويبدأ التماثل للشفاء وهذا هو الارجح في رأى . وقد حقق الله ظنه . ألا تحس أن الحمى قد خفت كثيرا ؟ »

فلم يجبها ابرهيم ، ولم تلح عليه ليلى فى الاجابة ، لانها كانت أعرف به من أن تثقل عليه ثم لانه كان عليها أن تغير له ثيابه وتلبسه أخرى جافة . وذهب هو يفكر فى هذا العرق الشافى الذى انبأته ليلى انه بشير التعافى ، وقال لنفسه اذا كان هذا كذلك فان أول ما يجب عليه هو أن يعصر نفسه حتى لاتبقى فى بدنه قطرة من الماء ، كأنما كان هذا شيئا تنفع فيه الارادة

والتفت ابرهيم الیلى — على نور الكهرباء — وقال « والآن ماذا يجب على أن اصنع ؟ »

قالت « تنام وتعرق ولا تجهد نفسك بالتفكير . و برغمى اقول ذلك فانى فرحة »

قال « سمعا وطاعة . اطفئى النور اذن واذهبى الى غرفتك فما أظنك اغتمض لك جفن فى ليلتك هذه — ليلة الفصل . هيه ؟ »

فابتسم له قلبها فى عينيها ولثمته ومضت عنه فى صمت



ولكنها لم تنم ، فقد تمثلت لها شوشو — لا على حقيقتها بل فى صورة أفتن من الحقيقة وأروع وأبعث على العطف — وتعاقبت على ذهنها صور من الجمال والشقاء والكمد لم تطق معها الاستقرار وودت لو انها عرفت شوشو أو أن عندها منها صوره ، وتذكرت ما دار بينها و بين الشيخ على ، وعجبت له ولنفسها كيف تصارحا بسرعة على ما كان بينهما من الجفوه وفساد الحال . وأحست ان قلبها يغمره الاكبار للشيخ على الذى وسع قلبه كل هذا العطف والاخلاص ، حتى لقد افاض عليها من مروءته واعداها بكرم النفس فبذلت له الوعد بالتضحية فى سبيل شوشو وان كان حبها لابرهيم واسعا عظيما ، وجرها ذلك الى التفكير فى ابرهيم . اتراه يحبها ويحب شوشو فى آن معا ؟ أما انه يحب شوشو فهذا ما لا مجاز للشك فيه بعد الذى سمعته من الشيخ على ، وان فى صمت ابرهيم فى الاحيان الكثيرة وشرود ذهنه واكتئابه وتلقيه ما تجىء به الايام باستخفاف من لم يعد يحفل ماذا يكون غدا — لدليلا على انه يطوى اضالعه

على هم غامر، وأى هم هناك غير حبه الخائب ؟ ولكن لماذا خاب هذا الحب ولم يؤت ثمرته ؟ انه متبادل اذا صح ما سمعته من الشيخ على . ومع ذلك يأبى ابرهيم ان يفض كتب شوشو اليه وان كان يدخرها ولا يلقى بها فى النار او يمزقها . فكأن ابرهيم يقاوم حبه لشوشو لسبب ما. ولكن بقية من الرقة او الضعف او الحنين الذى لم يغلب تغريه بالتحفظ بهذه الكتب . فما اقواه وأضعفه . وأقساه وارقه ومن أولى من ليلى أن تستخلص من هذا كل مايحفل به من دلالات الحب المكتوم والوجد الغالب والكبرياء العصية ؟

واما انه يحبها — أى ليلى — فهذا أيضا لا يرتقى اليه الشك فما تخفى آيات الحب وليست ليلى بالتى يلتبس عليها التصنع بالاخلاص فقد جربت الدنيا وخبرت الناس وطوفت فى الارض وتعلمت كيف تميز بين الصحيح والزائف على صغر سنها . ولئن خدعها رجل فلن يخدعها رجل ثان . وابراهيم ألم يقل لها انها ستشقى بحبه ؟ ولكنها لم تشق بل سعدت . واذا كانت قد وطنت نفسها على الحرمان وآلت ان تخنق حبها له من اجل شوشو فى ذلك سعادة لا تعدلها سعادة الحب الرخى المطمئن . وهي التى قست وتعدت حقيقة ان يدركها العطف على امثالها . وسيبقى لها حب ابرهيم تتعزى به . ولكن هل يبقى ؟ هل اذا اتصلت اسبابه باسباب شوشو يظل مصبوا اليها نفسه ؟ هذه هى المسألة

وجاهدت ليلى لتخمد ثورة الانانية مخافة ان تطغى فتعفى على استعدادها للايثار والتضحية وتعصف بعزمها على انكار ذاتها وأزعجها انها بدأت تحس ان هذه ليست أنانية وان الاخلاص

للنفس واجب مقدم على الاخلاص للغير . وان الانسان لا يطالب بالايثار اذا تقاضاه حق النفس ، وان هناك حداً معقولا يجب أن يوضع ويلتزم . وان من الغباء أن تنزل عن سعادتها لتشقى ويسعد غيرها أو لا يسعد ، وان الدنيا لا تزيد بذلك فرداً سعيداً ولا تنقص واحداً شقياً . وانها لم تكن لها يد فيما كان فليست عليها تبعته ولا يلزمها واجب من أجله . وماذا تصنع بنفسها بعد ذلك ؟ كيف تنتفع بالعيش بعد رد ابرهيم الى شوشو ؟ وهل لو كانت شوشو مكانها أكانت تقدمها على نفسها وتؤثرها كما تنوى أن تفعل ؟ ثم ألا ينبغى أن يكون لابراهيم رأى فى الموضوع ؟ أهى كل شيء وليس لابرهيم وزن ؟ لماذا أعلن ابرهيم الى قريبيه ان ليلى زوجته اذا كان يشتهى ان يرتد الى شوشو ؟ أليس فى هذا دليل قاطع على انه اراد ان يحسم الموضوع ؟ ومثل ابرهيم لا يرد خطاه ولا ينكص على عقبيه وانه لمن ذلك الطراز الذى يهون عليه ان يمشى الى الجحيم ولا يهون عليه ان يتلفت أو ان يرى الناس فيه ضعفاً أو يحسوا منه الحنين الى ما صرف نفسه عنه

والشيخ على لا شك يعلم ذلك . فانها أبرز صفات ابرهيم ، وان كان لا يتوقع بها بل لعله لا يفطن اليها أو يقدرها قدرها ، كالشلال الذى يتحدر بقوته الراغبة غير المحسة ، واستراحت ليلى الى هذا التشبيه وان لم تخف عليها المبالغة فيه ، وقالت لنفسها اذا كان فى وسع الشلال أن يثنى راجعا فى تدفقه ، فان فى مقدور ابرهيم أن يكر الى شوشو ، وقد يتلهف على هذه الكرة ، ولكنه لا يستطيع ، لا لانه لا يريد بل لان الكر ينافى طبيعته ، ولم يسر ليلى ان ابرهيم قد

مشتاق شوشو و يتلفت اليها قلبه ولكنه لا يقدر ان يرجع ،واحست ان هذا لايكون فوزاً لها بل امتهاناً لوجودها ، وانكرت من نفسها ان يخطر لها انها قد تقبل هذا الموقف . ثم جعلت تسائل نفسها : « الا يمكن ان يكون هذا هو الواقع ؟

وراحت تتصور أن ابرهيم لايحبها ولكنه يتسلى بها ويتعزى ، وأن فضله هو فضل الضرورة . وأن مزينها عنده أنه كان حقيقا أن يحبها لولا أنه أحب شوشو . وحز فى نفسها هذا وأوجعها ، وإن كانت قد جعلت تنفيه عن خاطرها وتطرده وترفض أن تصدقه وابي لها احترامها لنفسها الا أن تركن الى الثقة باخلاص ابرهيم وصدق سريرته فى حبه لها . ولكن هذا الخاطر المنق كان من فضله مع ذلك ان شحذ عزمها على الوفاء بعهدها للشيخ على .



الفصل الثانى عشر

« وقالت سارة : قد صنع الله لى ضحكا »

حارت ليلى ماذا تصنع . وكيف تفى بعهدها للشيخ على أن تكون عونا له فى سبيل شوشو ، وكثيرا ما كانت الوساوس والهواجس تساورها . وربما قالت لنفسها ان هذا عهد ليس فيه ذرة من العدل ، وانه ما من امرأة يجوز ان تكلف مثله لفرط منافاته للطبيعة ، والواقع ان ليلى اندفعت وهى مضطرة الى بذل هذا الوعد الشاذ ، وكانت ساعة فاض فيها كرم النفس ومروءة القلب . وقد وسعها — وابرهيم مريض — ان تحتفظ بهذا المستوى . فلما عوفى ابرهيم وعادت اليه الصحة واستغنى عن رعاية ليلى . بدأت الشكوك تخالجها والشبه تدور بنفسها . وساعدها على ذلك ان ابراهيم صار اكثر صمتا وأقل كلاما وأشد شرودا . وأنها صارت تحس ، وهى معه كأنه يذودها عن نفسه ويمنعها أن تطلع على ما يطوف برأسه ، ويتترس — بصمته وجهامته — مثل شوك القنفذ ، فكانت تقول لنفسها : « ما لى انا ولشوشو ؟ لست اعرفها ولا انا رأيت حتى وجهها . فليس لها فى حياتى وجود . ولا لها فى ذاكرتى محل ، ان هى الا اسم — لم تبلغ حتى ان تكون خيالا — اربعة حروف لا اكثر — اربعة حروف لا ترسم فى نفسى صورة ولا أجد لها فى ذهنى تخطيطا . ومع ذلك تشغل هذا الحيز كله وتسد فى وجهى طريق

الحياة وتسود فى عينى نور الضحى . فلماذا ؟ أهي الغيرة ؟ وهل تكون الغيرة من اسم مجهول المسمى ؟ من وهم أنا خالقته ؟ اترانى أخشى أن يتلفت قلب ابرهيم وان ترده الصبوة الي شوشو ؟ كلا فقد عرفت خلقه الوعر . وانه ليحبها . مافى ذلك شك — ولكن من اين جاءنى هذااليقين ؟ امن اجل ان الشيخ على يزعم دلك يكون هو الحق ؟ وان ابرهيم ليحبنى ايضا — ايضا ؟ اقولى ايضاً ؟ واضيعتاه إذن ! بل هو يحبنى وحدي . ولي قلبه كله — كل لفتة. كل صبوة وكل حنة وخفقة . لي انا وحدي . وكيف يمكن ان يشرك بى غيرى ؟ لست مغرورة . ولقد فتحت الدنيا عيني جدا — فتحتهما حتى لاغمض لها — فلو ان في قلبه حبا لها — لشوشو — لاحسست التفاتة قلبه . للمحت طيف هذا الحب في عينه . كلا . ليس علي هذا العرش سواي . . . . . . »

ومن متناقضات النفس الانسانية ان ليلى ر‌ـ ساءها وكربها انها وحدها التى تستوى على هذا العرش وانها استطاعت ان تقنع نفسها بان ليس لها مزاحم : فتعمد الي غزلها فتنقضه لتثبت لنفسها ان لها شريكا، بل انها هي التى تجاهد لتزحزح شوشو وتخلي لنفسها مكانا الى جانبها . وتحس ان هذه القـدرة على الغزل ثم النقض وعلى الاثبات ثم النفى قد افادتها سرورا وان لم تفدها راحةاوسعادة

ـم حدث ما قوى عزمها على ما يوافق طبيعتها ويلائم مزاجها

ذلك انها كانت عصر يوم فى غرفتها تفكر فى ثوب تلبسه فلم ـعياها الاختيار ادت ابرهيم ليعاونها . وكان الباب بينهما موارباً كالعادة . فأقبل عليها يسألها ما الخبر . وفى هذه اللحظة تقرا الخادم

على لدب فصب اليه تمحه فىولها حطانا فمدت يدها ولكن يدها ظلت تدور حول الخطاب ولاتقع عليه . وتعلقت عينها برسم مستدير على الورق الذى يكسو الحائط واحست كأن الغرفه تدور بها وتترجح . وعت برهيم وهو مقبل عليها يسألها وفى وجهه آية الفزع :

« هذا حرى يا ليلى ؟ اجلسى »

وسندها بذراعه وقال الخادم وقد تقدم لمعاونه

« لونها ممتقع جدا ياسيدى »

وقعدت ليلى على الكرسى ثم تنهدت وقالت « كلا . لا شىء !

الرسم الورق هو الذى ادار رأسى »

قالت ذلك كأنها معتقد باخلاص ان الرسم هو الذى احدث هذا الدوران ... وعلله ليست بالواضحه ... وذهب الدوار باسرع مما ... فقالت باسمه

« لقد مضى كل شىء ... تماما »

قال ابرهيم « ما اغرب هذا » وصحب

وصحب ليلى ... فى سكون . كان من السبيح على ... الذي ... على ... كل بضعة ايام — واحيانا كل يوم — ... موجز ... أصبعين ان ابرهيم فى صمت وترأ ...

... لا سوق ... فلا تعرى ... ابرهيم فلا ادرى ... ان ... حري لماذا ... ان ... مدام ... كي ... تموت ... لماذا ... ...

لا تجيء فائت مثله أو شر منه »

وفي ذيل هذه الأسئلة التي لا تستحق طابع البريد. امضاؤه ، وهي أغرب من الأسئلة . فقد كان لا يوقع باسمه كاملا ومجردا بل مهذبا بالكلمتين « الشيخ علي » وإن كان كما عرف القارئ، لم يحرص على زي الشيوخ

و[illegible] لابراهيم [illegible] هذا [illegible] دون كتاب منه . وبعلها ثم تطلعه عليه لا حدود من كل أشدة [illegible] تأخر عنه. [illegible] لابراهيم في [illegible] هذا الكتاب حلقة في سلسلة طويلة بدأت بعد أوبة الشيخ علي في بلدته إلى الاسكندرية . فلما قرأه ضحك وضحكت ووقف الأمر عند هذا الحد

— ٢ —

[illegible] الشيخ علي . [illegible] إبراهيم في شرفة [illegible] على حديقة [illegible] . وكان [illegible] أمتعتي وذهب في [illegible] . [illegible] وتأمل [illegible] على خلاف [illegible] . [illegible] على الخصوص [illegible] واتساع [illegible]

واضطرب راسها واختل توازنها وقالت لنفسها « هذا هو الدوار مرة أخرى ! أترى سيغمي على هذه المرة ؟ »

وكانت تسمع بوضوح مدهش تنفس ابرهيم الي جانبها ، وتراه وهو يميل اليها وكأنه يتهيأ للوقوف ! وتفلت الخطاب من بين اصابعها الي الارض فصوبت عينها اليه واتبعته نظرتها ! وهي تظن انها تفعل ذلك عامدة وبارادتها . وكانت الارض فيما يبدو لها تدور بسرعة فقالت لنفسها « اظنني سيغمي على هذه المرة . ولكن ينبغي الا يحدث ذلك وعلى الخصوص امام كل هؤلاء الناس . وابرهيم لا يزال ضعيفا . فهل تراه يقوى على حملي ؟ »

واضطربت رجلاها وان كانت جالسة . وشاع في نفسها شعور جديد بعدم الاستقرار وانتفاء كل اتزان فتمتمت في ضعف « اوه ! »

—٣—

قال الطبيب بصوت رفيق « لقد اغمى عليك . هذا كل ما حدث »

وتبين لها شيئا فشيئا انها راقدة على سريرها في غرفتها . وان ليس معها سوى الطبيب — على كرسي الي جانب السرير . فرفعت عينها الي وجهه فالفته مشرقا وصاحيا ولكنه مع ذلك ناطق بالعطف عليها فقالت « ماذا ؟ »

فقال « ينبغي ان تكوني اشد عناية بنفسك . ولعله اولي بك ان تستريحي الليلة في فراشك »

فقالت وهي تحس ان كل مقاومة من جانبها قد زالت . وان استسلامها تام

« اظن اني حامل . و . . . ويجب . . »

فقال الطبيب « آوه ! هذه هى المسألة اذن ؟ »

وعجبت لنفسها كيف وسعها ان تنطق بهـذه العبارة فى بساطة ومن غير تردد . ولم تقل للطبيب اهى زوجة ابرهيم ام خليلته . بل لم تعبأ به ماذا عسى ان يظن . على ان الطبيب لم يعجب ولم يظن شيئا ولم يعن إلا بالحالة التى امامه . فقال

« حسن . سنرى . اظنك تستطيعين ان تجلسى الآن ؟ هيه ؟»

و بعد نحو ساعة كان معها ابرهيم يحادثها ويؤنسها وهو جاهل تلك الحقيقة الضخمه التى تنطوى عليها انطواء حقيقيا لا مجازيا ! لانها لم تفض اليه بشيء مؤثرة أن تكتم الامر حتى تفكر على مهل.



الفصل الثالث عشر

« فى وقت المساء ، دارعت ، قبل الصبح ليسرا هم »

يالجمال المرأة ! انه فتنة الحياة كلها مختزلة فى كيانها الدقيق ، وأعجب ألا يراها الناس كلهم رؤيته ويحسوه كما ينبغى ان يحسوا! بل ما أغرب أن يكون فى الناس من يحسه ! فهل يفعلون ذلك لفرط احساسهم به ودقة ادراكهم له أو لعمى عنه و بلادة تقيهم وتحمى جلدهم أن يحترق ، وماذا ترى يعصمهم ، أهى « العلوم » ؟ أم ترى الذى يصلهم هو « الفن » ؟ أم هى الفلسفة التى تعوبهم وتميل بهم الى الأرباب المريحة ؟

لا ندرى ولا نظن أن هناك من يدرى ، وكل ما نعلمه أن ليلى كانت راقدة فى حضن ابراهيم وانها كانت ترامقه من خلال اهدابها الطويلة السوداء ، وانه كان يجتلى فى صفاء عينيها تلك الفكاهة العميقة المجهولة التى لولاها لثقلت وطأة الكروب على كاهل هذه الحياة الارضية

وربما ... أحس أن الحياة عبث وظن وانها فراشات ... الى الخروج الى حسبا طاعة ومع ان ليلى جهدت ان تسقيه حتى تعبه ، وأن تعطيه حتى ترضيه فقد كان يخيل اليه وهو ... لى جانبه انه يستطيع أن يرى الكون وأن يقدره ، يحرلا فى جسم حين . لا يستطيع ان يستحوذ عليه ولا تدخل فى مقدوره أن يحقق استيلاءه عليه تاما كاملا وكان هذا الشعور

يكاد يحمه . وكان يحى نفسه «ن يسالها: « لماذا يعجز الانسان عن الاستيلاء على جسم جميل واحد ؟ لماذا يشعر أن وراء مايال ، شيئـا آخر يشتهى ويراع ؟ شيئاً أنق وامتع ؟ «أهي طبيعة الحب الخبيثة الماكره ، أم هذا سر المرأه وسحرها ، وتالله ما أضأل هذا الجسم الذى يشيع فى نفسى الرغبه ، علواً وسفلا ؟ وياليت من يمكن يدى من طيف ذلك الحب الخادع الساحر ، »

و سودت عرته ولمحت ذلك فب ته ،سمه

« مذا ، وى حلا ، »

فقد مهجه اليائس ، ليس لي حيله . برغمى هذا »

فمدت ذراعها البضة العارية وجذبت اليه وجهه وقلت

« ن يجب أن تـكون لك حيله »

فقال وهو يبسم ابتسامة فيها من لرضى والمرارة معاً

« كل هذا حلم . لا أنت حقيقة ولا هذا . . ليلى ! . . »

فضمته اليها وهى تهمس فى اذنه

أوه ! أهذا كل شيء ؟ »

واغرورقت عنداه نكرهب ، وان كان عرفه در ص هر ورعم ، تصمره لهذ القلب الذى دو

« و لى ما احقرنى ! سمحينى »

وحد على عروس هو ه تقلبه و ردا معو ع عن نفسها ، وهى نبهه ، وهو يشعر أن جوعه قد صعد الى سمه وهبط فى الصلاب ، وحدث نفسه أن قد صدق من قال إن حب عوامه البطالع

ونظر ى وجهها مره أخرى فقد د سـ كـ تتعرد على ا وسـ د د

وعيناها مغمضتان واهدابها مرسلة على خديها ، فاهوى على كتفها وجيدها يلثمها فقالت :

«هل تعرف فيم كنت أفكر؟ »

ولم تنتظر جوابه فقالت وهى تضحك :

« فى الشيخ على . هل تصدق ؟ أحسبنى سأتزوجه يوما ما . »

فقال بلهجة ساكنة

« بل ستتزوجيني أنا يا فتاتى البلهاء »

وكان هذا ما تخشى أن تسمعه وان كان ما تحب ، فتكلفت البشر وقالت تعابثه وفى مرجوها أن تنأى به عن هذا الموضوع

« صحيح ؟ بذمتك ؟ »

قال « بذمتى ! »

قالت ملحة « أتعنى ما تقول ؟ »

قال « نعم »

قالت « وتتحمل متاعب الزواج ولا تكل ولا تمل ؟ »

قال « اعدك »

قالت مسترسلة فى عبثها « ياللحبيب الطيب القلب السخى النفس العريض الأمل ! وقريباً ؟ جداً ؟ »

قال « ليلى ! هل تسخرين منى ؟ »

قالت « كلا ! لست اسخر »

قال « ان هذه اللحظه رهيبه فى حياتى . فاصدقينى من فضلك . هل توافقين على الزواج منى ؟ »

فرقص قلبها ولكنه هبط أيضاً في صدرها ولكنها ضبطت نفسها وقالت

« يا حبيبي المسكين هل جننت ؟ »

فقال « إذن كنت تسخرين مني »

قالت وقد غيرت خطتها بسرعة

« هل أتزوجك ؟ أنا ؟ انه يسألني ! »

قال وهو حائر ماذا يفهم

« ليلي ! »

فلم تمهله وقالت

« هل تستطيع أن تتصور ان لا أتزوجك ؟ »

فابتسم وهو يقول

« هل أستطيع ! ؟ كأني كففت عن أن أتصور ذلك ! »

قالت « يا لغباء الحبيب ! وهو أديب أيضاً ! »

قال « أعيدي على مسمعي .... »

فاسرعت تقاطعه

« اني أحبك ؟ لا شك في ذلك ! هذا قرار لا رجوع فيه . فهل تحبني أنت ؟ »

فاتكأ على ذراعه وقال

« ابقي عينك مفتوحة فاني أريد أن أنظر فيها »

قالت وهي تهز رأسها

« لا أستطيع »

ولمعت عيناها ورقص الضحك فيهما وهي تقول

« ابرهيم ! شفتاك ... الاحمر ! »
فقبلها غير عابيء بما علق بشفتيه من الدهان فقالت
« هذه قبلة ناقصة . لم تبلغ كمالها »
فسالها ضاحكا « أتظنين هذا ! ولكن من أين علمك بكل هذا؟ »
فشعرت ان سؤاله فتح لها بابا الى امضاء عزمها فقالت
« لا تكن غبياً »
قال « أغبي أنا ! »
قالت « نعم يا حبيبي . هذا ما تعلمته فى السيارات وأنا عائدة الى بيتي بعد السهرات »
قال « ليلى ! »
قالت « نعم ولكنه علم لا خير فيه . ليس فيه حياة . انها لثمات لا تبعث الاحساس الجنسي »
فنأى عنها قليلا وهو يحدق فيها ليتبين أجادة هي أم هازلة . وأيقنت من وقع كلامها فمضت تقول
« نعم لثمات فاترة ليس فيها حرارة أو قدرة على الاعداء . من رجال من كل صنف وطبقة : من كبار وصغار — من أقوياء وضعاف — من ظرفاء وثقلاء — من مؤمنين وملاحدة — من ضباط و و . . . »
فصاح بها وقد عيل صبره « ليلي ! لا احتمل هذا ! »
فقالت بعناد « كذلك هؤلاء لم يكونوا يحتملون . أظن جمالي كان يتركهم مبهوتين »
قال « حسبك ! أمسكى ! »

قالت « ياملاكي العزيز سأترفق بك . ولكن ماذا تصنع وجهك ؟ ادره الي »

فقال متكلفا « أحاول ان انسى ماضيك هذا . ما أعطر شعرك ! »

ثم تدعه وقالت « الماضي لاينسى : انه انا »

قال « لا يمكن ان يكون هذا صحيحا . »

فألقت اليه نظرة حافلة بالاعذر وقالت وقد اكتفت باثارة شكوكه

« يالك من غبي . سأقبل جبينك »

و وثبت الي الارض وخلفته شارد الذهن موزع اللب ، يتصور هذا الماضي الذي اطلعته على فهرس كتابه . ثم سمع صوت حرير فالتفت فرأى قميصها ينزلع عن جسمها الى البساط وهي تتناول قميصاً غيره باقل ما يتصور من الاحتفال أو العجلة فصاح بها

« ليلى : اقسمي ! »

فاحست انها تنتزع أحشاءها وهي تقول

ألم أقل لك انك غبي ؟ نعم اقسم بالله وكتابه .

— ٢ —

ثني ابرهيم وجهه الي الحائط وقد تنفس الصعداء — وهذا غريب — ثم ذهب يفكر وهي تحسبه قد أولاها ظهره ريثما ترتدي ثيابها ، فخيل اليه ان المرء لا يستطيع أن ينظر الى الحياة بخلاص الابعين تمتزج فيها التشاؤم والتسامح ، وأن الدنيا حافلة بالسوء والفجائع . وان الحياة فيها — أقوى فتوتها — التخبط . وان الانسان يعش سنين وسنين و يتصل بمن لا يحصي عددهم من

الناس ولكن ماأقل المواقق منهم والذى يسعك ان يتوثق مابينك و بينه من غير أن يكون هناك مقدار من الملل أو الاحتقار أو الامتعاض أو الخجل . وانما نعلم ذلك ونحن نسعى فى الدنيا ونبغي الناس ، ان خاتمة كل حياة الأسف والندم ، هما جبل ينمو معنا طالعا من تحت أقدامنا . وقلما نعرف اسمه فى صبانا ، وما أكثر ما نتوهمه جبلا رائعا جليلا ، وانه لرائع جليل ولكنه مخيب للامل ، و يعلو الجبل أمامنا و يتضخم ، ونحن نصعد فيه ونتوقل فرحين بالحياة مغتبطين بالعيش ، ثم لانلبث على الايام أن نتمهل ونديرعيوننا فيما حولنا ونرجع البصر فيما خلفنا وراءنا فتأخذعيوننا شقوق الفضائح وفداقد اليأس وأودية السقوط .ومع ذلك نظل نصعد فى جبل الندامة ، وماذا عسانا نصنع غير ذلك ؟ ويجيء يوم نهرم فيه وتكل ارجلنا وتخف اسحتنا ونعى بالاصعاد فنقعد على قنة مريحة وننظر الى جداول الخيلة المنحدرة ، الحياة التى تظل تترقرق و يظل واديها خصيبا وان جففنا نحن ونشفنا واحدا بعد واحد ، فنتعلل بذكرياتنا وتبدو لنا هذه الذكريات أجمل وأسبى من الحوادث التى ولدتها

— ٣ —

بالمصادفة أصل كل حادث فى هذه الدنيا التى يخيل الي المرء أن ، الحياة ، حدثت فيها بالمصادفة ، فاذا لم تكن هي الاصل — أو اذا كان هناك من يشق عليه أن يعدها كذلك — فلا اقل من أن نعترف بانه ما من حدث إلا ولها فيه اصبع غليظة ، وان كل تغيير أو انقلاب أو اتجاه جديد لايخلو من بعض نواحيه من مصادفة كان لها فضل كبير فيه ، والواقع على كل حال أن المصادفة

كان لها تأثير حاسم فى هذه الفترة من حياة ابرهيم ، فقد كان ، كما عرف القارىء ، يلهج بالزواج من ليلى - ولم يكن ذلك ليسترها أو يستر نفسه كما ضل حين عاده الدكتور محمود والشيخ على ، ولا ليصحح مركزها ، فما كان يجرى له فى وهم ان بمركزها حاجة الى التصحيح ولا هى أنبأته بالخيانة الجديدة فى احشائها ، وانما كان يدفعه الى ذلك حبه لها ونزوعه الى الاستقرار من ناحية والى المكايدة والعناد من ناحية أخرى . غير انه بعد أن صارحته ليلى بما أوهمته انه ماضيها الحالك ، تردد واشفق ولم يستطع ان يروض نفسه على السكون الى الواقع أو الاضراب عن التفكير فى المستقبل مقيسا الى الماضى . ومع تردده واشفاقه كاد حبه لها يطغي على إحجامه . وكادت معاودة التفكير الهادىء توسع فى عينيه مضيقه العرف ، لولا ان ليلى مدت يدها فجأة فأنقذته

وكان من المتفق عليه فيما بينهما ان الرحيل قد آن جدا ، فقد غاب عن امه وابنه شهورا . وعن عمه كذلك وان كانت صلته به لم تنقطع إلا فى فترة المرض ، وكان المقرر أن تسبقه ليلى — الى الاسكندرية موطنها — على ان توافيه بعد ذلك فى القاهرة وفيما بعد ذلك لم تكن هناك خطة مرسومة ولا نهج واضح ، لأن ليلى كانت تغلت وابرهيم كان مضطربا

وفى عصر اليوم الذى استعدت ليلى للسفر فى مسائه دخل ابرهيم غرفته فلمح خطابا ملقى بعير عناية على مخدة السرير . وكان الظرف مفتوحا وحرفه غير ملصق ، فتناوله بغير احتفال ، ولم يكد يقلبه ويرى خطه حتى قعد على السرير وراح يقرأه وهو ذاهل وكان مما قرأ فيه

« . . . نعم ياصاحبي . . هذا آخر كل حب . . الملال . . الفتور . . وأنت ا كتمك أني مللت وأني اصبحت أشعر بالفتور حين يناديني قلبك المصطرم ، المستقبل كما ترى لا أمل فيه ، وخير لي ولك أن نقصر من الآن وما زالت في القلب صبوة ، . . . »

« . . . ولو أن حبك لم يحجب نظرك . . أو أنك لم تسلم نفسك لعاطفتك واثقا من استجابتي لها مطمئنا الي ذلك لما استطعت ان اخدعك عن حقيقة ما اظهر ولكنت حقيقا ان تفطن الي تكلفي .. نعم كنت اتكلف . . أتصنع الذوبان بين ذراعيك وانت تضمني وتعصرني . . . أتصنع أن أبدو لك كأن روحي كلها قد صارت على شفتي وانت تمصها وتعضها . وأطلقه من عيني وأنت تحدق فيها وتمسح لي شعري . . . هي صناعة اتقنتها ياصاحبي بالمران والتدريب فلا عجب أن اخدعك . . . »

ولم يستطع أن يقرأ اكثر من ذلك فقد كانت الصدمة عنيفة وعلى غرة ، وكان الاشمئزاز أقوى ما أحس ، ودار رأسه واسودت الدنيا في عينيه وخيل اليه أن هذه ليست خيبة أمل فحسب ، بل انها جنازة كل أمل وكل حلم وكل خير ـ بل جنازة "نفس الانسانية

وبعد عراك عنيف استطاع ان يصد نفسه عن الاسترسال في هذه الخواطر المقنطة ، فوضع الخطاب في ظرفه وألقى به على المخدة . وشاءت المقادير أن يرمى الطرف مقلوبا كما كان — أي أن تكون الكتابة الى أسفل ، وان يكون طرفه المفتوح الى على ، ونهض ففتح النافذة واعتمد على حافتها وأخذ ينظر وكأنه يعالج أن يرسل لحظه الى قاع هاوية ، ولبث كذلك لا يدرى

كم ، واذا بالباب يفتح فيخفة وهو لاه بخواطره لا يشعر بما حوله، ودخلت ليلى على أطراف أصابعها ، ورمت الى السرير نظرة والى ابرهيم أخرى فوقع من نفسها جموده وذهوله ،ومضت خفيفة الى السرير فتناولت خطابها ودسته فى صدرها وهى تحسب — لأنها وجدته كما تركته — ان ابرهيم لم يلتفت اليه ،

ودنت منه وسألته فى رقة « مالك ؟ »

فسرت فى بدنه رعدة منها وقال ببطء وبجهد واضح :

« لا شىء ! صداع بسيط »

ثم ابتسم سخراً من نفسه واحتقاراً للدنيا كلهـا ، فلولا عمق شعوره فى هذه اللحظة بهوان الحياة : لصفعها أو ركلها أو بصق فى وجهها ،

— ٤ —

لما صارت ليلى فى بيتها على شاطىء البحر فى الرمل قالت للشيخ على فى أولى زياراته لها

« لقد نجوت ولما أكد . كان هذا الخطاب قسوة شنيعة — عليه وعلى أيضاً . فلما رأيته حيث وضعته لم تمسسه يد حمدت الله وتشهدت . »

فقال الشيخ على

« وماذا كتبت فى خطابك هذا ؟ »

فقرأت عليه فقرات منه حتى بلغت قولها « ولو أن حبك بحجب نظرك . الخ » وندلعت النار فى وجهها الأسمر وخفت الخطاب وهى تقول

« كلا . لا أستطيع .. ولست أدرى كيف اجترأت أن أكتب هذا الكلام ؟ »

فزام الشيخ على ولم يقل شيئاً واضطجع على ظهر كرسيه وجعل يفرك جبينه العريض باطراف أصابعه ثم التفت اليها فجأة وسألها

« أواثقة أنت انه لم يقرأ هذا الخطاب ؟ »

فازعجها سؤاله ونفى الدم من وجهها وقالت تطمئن نفسها

« كيف يمكن أن يكون قد قرأه وقد وجدت الخطاب كما تركته ؛ ثم انه لم يشر اليه قط ! »

فهز الشيخ على رأسه وقال

« لا أدرى فما كنت معه . ولكني واثق انه اطلع عليه . »

فاقبلت عليه تسأله « هل كتب اليك ؟ هل فى خطاباته اشارة ولو خفية ؟ »

فقهقه الشيخ على ، قال

« يا فتاتى البلهاء لقد عاشرت ابرهيم كم شهراً ؟ ومع ذلك لا تعرفينه . كتب الى حقاً ؟ هو يكتب ؟ ؟ بل أجزم انه قرأه . وان صداعه كان منه »

ثم نهض وهو يقول

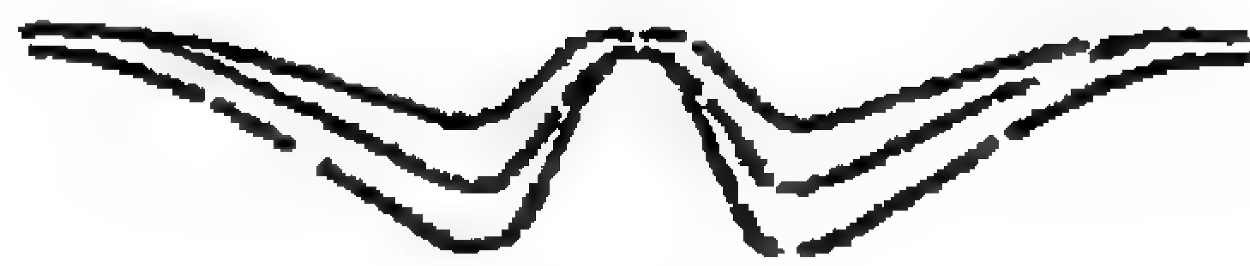
« أخشى . . . »

فسألته بلهفة « ماذا ؟ »

قال « أخشى أن أكون قد جلبت عليك احتقار ابرهيم . لا أبالي أن كرهك ولكن الاحتقار ! الاحتقار ! »

القسم الرابع

« فعدت ورأيت تحت الشمس أن السعي ليس للخفيف ، ولا الحرب للاقوياء ، ولا الخبز للحكماء ، ولا الغنى للفهماء ، ولا النعمة لذوي المعرفة ، لأنه الوقت والعرض يلاقيانهم كافة »



الفصل الاول

« لأنه فى الباطل يجىء ، وفى الظلام يذهب ، واسمه يغطى بالظلام »

— ١ —

الأيام ، فيما يزعم الناس ، كفيلة بان تعفى على كل شىء ، ولكن ابرهيم يقول — مغربا ملغزا — انها قلما تستطيع أن تعفى على شىء سوى عجزها عن حل المشاكل الحقيقية للحياة ، ولا ندرى ماذا يعني على التحقيق ، ولكن الذى ندريه أنه بعد عام ونصف عام من أوبته من الاقصر . تلقى كتابا طويلا من ليلى — هو الأول والآخر فيما نعلم — ولم يتلقه ، بل وجده على مكتبه فى منتصف ليلة من ليالى اكتوبر ، وكان قد عاد متأخراً . فخلع ثيابه وأكل تفاحة ثم أوى الى مكتبته على عادته قبل النوم ، فقضى بضع دقائق يتأمل طابعه السورى ويعجب للخط — خط من يكون ؟ فان الخط السورى على العموم أشبه بالفارسى — ولعل ذلك أثر من حكم الاتراك — وهذا أشبه بان يكون خط امرأة ، ثم إن عليه المسحة المصرية وكأنه يعرفه وان كانت ذاكرته الخوانة لا تسعفه فمن عساها تكون هذه الكاتبة ؟

ولم يشأ أن يسترسل فى الحدس والتخمين لأن ذلك لا يوائم طبيعته النزاعة الى الحسم ، فقعد وفض الكتاب فاذا هو ورقات عديدة مذيلة باسم « ليلى »

فقال يحدث نفسه بصوت مسموع

« ثم هو خط ليلى . ما أسرع ما نسيناه ! فماذا عساها تصنع في سورية وماذا تراها تقول؟ » ولم يقرأ الكتاب من أوله بل تناوله من ختامه وهو يبسم فقرأ فيه

« .... ولا تكتب الي من فضلك . فاني أستطيع أن أتصورك على أوضح مما تصف عبارتك وإن تكن الكاتب الذى يصف الناس تارة ! على أنى أظنك مشغولا بتأليف — أو هذا ما أرجو ، فانه أحلى فى عيني من أن أعرف أنك لا تصنع شيئاً وهذا محتمل وان لم يكن مرجحاً

« ... لقد كان فهمي للحياة مغلوطا وسلوكى فيها مضطربا . وانى الآن لأدرك أن ضبط النفس — كبح القلب — هذا بمجرده أثم ولكن ما يبلغه الانسان ويقوى عليه .. »

ووضع الكتاب وأطل من زجاج النافذة على الليل الموحش والصحراء الممتدة الى أمد بعيد فوق رمالها الخافتة . وأحس بالبرد فرد معطفه وقال لنفسه وهو يعود الى الجلوس

نعم سرقت ليلى نوما من جفوني لأول مرة : فنقرأ كتابها من أوله »

فقرأ بعد سطور

« ان ذلك الفرع الشريد قد يجد مغرسه ويهتدي الى منبته — ثم وجدت ليلى التربة التي ينبغي أن يستقر عودها في ترابها . وانه حلم ولا كالاحلام . وان الحياة فى عيني لجميلة ساحرة . بل أحسن من أن أظن انى أقدر على احتمالها وأسعيد على لا تشطرنى

التنعم بها . فانت ترى انك مازلت حيث أحللتـك من نفسى فى الاقصر . ولـكنك لاتستطيع أن تقدر سعادتى أو تجاربي مخلصا فى احلامها . فان كثرة التفـكير قد اشابت نفسك . ثم انك طماح ! واظنك توافقنى على ان الطماح مضن للنفس متعب للعقـل وسواء أكان ام لم يكن كما اعتقد . فانى اشعر ان الطماح لا محل له فى هذه البلاد الجميلة . فأرجو ان تـكتب فى مذكرتك ـ ان كنت تفعل شيئا من ذلك فى العادة ـ انى امنعك . احرم عليك . أن تلحق بى هنـا ! وا للغرور ! كأنك لم تنسنى ! كأني لا أخشي ـــ بل لا اعلم ـ ان سخطك على قد محا صورتى من صدرك ! . . . »

وهنا هز ابرهيم رأسه وقال لنفسه

« كلا ! لن تبرح ذهنى صورتك ، فانك اقدر من خدعنى وغشى . لا . لن أتم هذا الخطاب . وما الفائدة ؟؟ أما لو انى عرفت خطها قبل أن افتحه ! ولماذا تـكتب الى ؟ ألتقول انها سعيدة منعمة ؟ ومالي انا ؟ لاأرانى اشعر بفرح لها ولا أنا يسوءنى ان تـكون كما تصف فلنطو كتابها ولنلق به . . أين ؟؟ أوه ! هنا فى هذا الدرج ـــ فى أى مكان »

وطوى الـكتاب ورمى به فى الدرج ، ولـكنه لم ينم بل قعد يدخن سيجارة بعد أخري وقد أحس أنه هرم جدا كالجبال ، وجعل يقول لنفسه فى تعليل هذا الشعور ، ان كتاب ليلى ليس سوي صدى فاتر لتجربة قديمة ـ تجربة ميتة . والتجارب القديمة الميته هي ذخر الشيخوخة واحدى خصائصها ،

ثم قال لنفسه « ان كتاب ليلى هذا لايحرك نفسي لأني ماعرفتها قط تحرك ذلك الجانب الشرقي من نفسي . وانما كانت دائماً في نظرى رمزا لذلك الظرف والرقة والشيطانية ـ وغير ذلك مما يفيده الصقل الغربي ، وما اظنها كما تصف نفسها سعيدة أو راضية ، فان رضاها الذى تحدثني عنه أشبه بان يكون عاطفة فهو زائل »

وظل يفكر على هذا النحو حتى مطلع الفجر وحتى شك في حقيقة ماحوله من أثاث وكتب وراح يتوهمها بعض مايتراءي له في حلم سينسخه النهار ، ثم أخذه النوم وهو قاعد وجاءت الخادمة في الصباح تكنس الحجرة ، ولكنها لم تكنسها ولم تجاوز عتبة الباب لأنها رأته ، ولعلها ظنته سكر البارحة فنام حيثما اتفق

— ٢ —

بعد ان عادت ليلي من الاقصر الي الاسكندرية اشتدت عليها متاعب الحمل المألوفة في الشهور الاولي فكر بها ذلك وازعجها مشكله . وافزعتها فضيحته ، ولم تجرؤ أن تستشير أحدا من أهلها حتى ولا اختها وهي اصغر منها وتقيم معها ، وكان لابد من حل ، فان التي وحده كفيل بان يفضح سرها ، وهبه لم يفضحه لأنه شيء كان يحدث لها فى الصباح أو الليل وهي بعيدة عن اعين الرقباء فان السر سيظل يبرز على الايام حتى لايبقى سبيل الي اخفائه ، وحدثتها نفسها في بعض ساعات ضعفها وألمها وخوفها ان تكتب الى ابرهيم بالحقيقة فانه أولي من تكاشفه بهاواحق الناس بالحرص على سترها ، ولكنها خجلت ، وأحست ان هذه خليقة أن تعد

اكراها اذيا منها له على الزواج منها ، وهى قد هجرته عامدة على فرط حبها له ، وخطر لها أن تستشير الشيخ على فانه أمين ناصح وقد توثقت بينهما الصداقة بعد عودتها الي الاسكندرية ولكنها قدرت ان الشيخ على سيرى من واجبه ـ ومن حقها هي ـ أن بلغ ابرهيم وأن يدعوه الي واجبه ـ وهذا ما تكره وتأنف منه .

ولما أعيتها الحيل وسدت فى وجهها المسالك مضت الى طبيب تعرفه وكانت تذهب اليه أو تدعوه كلما أصابها برد أو زكام أو نحو ذلك مما لا يصبر عليه المترفون . وكان الوقت مساء ووقت العيادة قد اوشك ان ينتهي ـ فلم يطل انتظارها . وكان رجلا كيسا ظريفا شعرك مظهره أن فى وسعك ان تعتمد عليه ففاجأته بقولها

« انى حامل ولابد من الاجهاض »

فلم يبد عليه انه دهش . وعجبت هي من اجترائها . فاشار اليها أن تجلس وقال كأنما يتحدث عن الجو

« هل لك ان تخبرينى لماذا ترين الاجهاض أمرا لابد منه اذا كنت حاملا ؟ »

فقالت « هذا سهل . لأن أباه ليس زوجا لي ولا يمكن ان يكون زوجا لي »

فقال « انى اسف جدا . فلست استطيع ان اجري هذه العملية، لم احاولها قط فى السنوات التسع التى اشتغلت فيها طبيبا . ثم ان اصول المهنه الرعية . . . »

فقاطعته قائلة « انى اعرف اصول هذه المهنة فقد كان أبى طبيبا كما تعلم . لا باس . اذن دلنى على رجل آخر موثوق به تستطيع ان

يفعل ذلك واذكر اني لا اريد ان افضي نحبي الآن وفي خلال هذا العلاج او العملية »

فقال باسما

« اهدئي . فما اظن من المحتمل أن تموتي بذلك . ان الخطر انما يكون من العدوى أو من الطبيب اذا كان من ذلك الطراز الذى يعيش من هذه العمليات، وهذا الطراز يتفق غالبا أن يكون سكيراً وأن تكون يده غير متزنة... على كل حال لاتفزعي . كم عمرك الآن؟»

قالت « ستة وعشرون عاما »

قال « انت تبدين اصغر بكثير . على كل حال اظن الاطباء الذين يجرون امثال هذه العمليات يقولون في العادة انها ضرورية سواء أكانت كذلك ام لم تكن. فهل تسمحين لى بالكشف ؟

م قال « لا أرى أن ملكاًى. إن الحمل منذ ثلاثة شهور على الارجح . وأعرف رجلا كان زميلا لى فى الدراسه . وقد سمعت ان اطريقه علمية مضبوطة . وقد لا يعجبه ولكنك تستطيعين ان تصوري حال رجل لا يعالج الاكل أمرأته هسبره — وهذا طبيعي فى مثل هذه الاحوال. فدا نشك فى مستعد ان اصحبك . موافقة لا حسن. اذن دقى لى التليفون غداً مساء لعلي اكون تمكنت من الاتفاق معه »

وكان يوم العمليـة السبت — صباحا . فعنيت بارتداء ابهى ثيابها وكانت تقول لنفسها

« من يدرى ؟ ربما صرت جثـه بعـد الظهر . فلأكن فى أحسن حلاى »

وتعطرت وانتقت من المناديل مايوائم ثوبها فلما دخل عليها الطبيب قال

« انك بارعة الشكل فلعلك غير خائفة »

وكانت تحس انها ميتة ولكنها قالت

« كلا يادكتور . هل نمضي ؟ »

وقال لها وهما في سيارته

« لاتخشي ان تموتي فلن تموتي . فانك من ذلك الطراز السليم الذي يحتمل اكثر من هذا بلا تأثير سيء . وسأكون قريبا منك الاحظك واعي بك — وليس هذا من أصول المهنة في شيء ولكني في سبيلك أصنعه »

فشكرته وقالت

« قل لي يادكتور . هل يطول الأمر ؟ هل تستغرق المسألة زمناً طويلا ؟ »

فقال « على الاكثر عشرين دقيقة . وانصح كطبيب بعدم التخدير اذا كنت تعرفين انك تحتملين »

فقالت « كما تشاء يادكتور »

ثم قال « قد وصلنا . والآن فاذكري اني بجانبك . وان المسألة كلها ستنتهي بعد نصف ساعة »

ودخلا حجرة ليس فيها بعد الكراسي شيء يصرف المرء عن خواطره ، وكان الطبيب ممسكا يدها في حنو ليشجعها ، ودخل فتى وفتاة كلاهما صغير جميل لايتجاوز احدهما السادسة عشرة فنظرت الى الفتى كانه منقذها وكان يهوديا مشرق صفحة الوجه أزرق العينين وقالت للدكتور

« يادكتور ان هذه الفتاة طفلة ! »

فقال « نعم . لاحظت ذلك . آه هذا هو الدكتور افرايم — الآنسة ليلى »

ولم يرقها جمود وجه الدكتور افرايم ولكنها اطمأنت الى يديه النظيفتين وقال الدكتور افرايم

« تفضلي »

وبدأ كل شيء يعوم فى نظرها ، ولكنها استطاعت مع ذلك ان تذكر ان غرفة العملية لطيفة وان الممرضة جميلة وانها اعطتها جنيها وان وجهها نضح بشرا لهذه العطية ، وقال الدكتور افرايم

« لاتخافى ياسيدتي . لقد نصح طبيبك بعدم التبنيج وله الحق »

فقالت ليلى للمرضة « اتسمحين لي أن أمسك يدك »

-قالت الممرضة « بكل تأكيد . وهل انا هنا الا فى خدمتك ؟ »

وقالت لنفسها ان هذه الفتاة طيبة فسأفصحها بعطية أخرى

* * *

وقال الدكتورنبيه « هذا أنت . قد انتهى كل شيء على ما يرام وساحقنك الآن ، فنامي واستريحي ، وسأعود اليك بعد بضع ساعات لأرجعك الى بيتك . لقد كنت شجاعة . فأهنئك »

فابتسمت له ليلى شاكرة : وقالت لنفسها « ليس بي درة من الشجاعة . وانما أنفت أن أصرخ أمام ذلك الدكتور الثقيل الذي لم يترفع عن سماجة التنكيت على ثمن اللذة ! .

وبعد برهة دخلت الفتاة — مساعدة الممرضة — بوجهها الصابح وقالت

« أتحسين بألم ؟ سيزول كل شيء حالا »

وشرعت تخلع المريلة وتلبس صدرية صفراء جميلة ، وليلى تنظر اليها وتعجب بحسن قوامها ، وقالت الفتاة مباهية

« لقد اهدانيها حايم »

فسألتها ليلى « ذلك الفتى الصغير ؟ »

قالت « نعم . كم تظنين عمره ؟ »

ففكرت ليلى ثم قالت « هو طفل »

فقالت الفتاة ضاحكة « تسعة عشر عاما . وأنا أحبه . وهو أيضاً يحبني . ولكن أمه . . . أوه ، انها من اليهود القرائين . فلولاها لتزوجنا . وهو لا يعبأ بفقري . ولكن .. أمه . صعب »

ولم يكن على وجهها ألم ، وهي تقص هذا ولا في عينيها أسف فلم تر ليلى ان من واجبها ان تحاول الترفيه عنها ، وأخذها النوم وهي تفكر في ابرهيم وتسائل نفسها أتراه يذكرها الآن؟ وماذا يصنع لو علم؟

— ٣ —

قال ابرهيم لنفسه في الصباح وهو ينهض عن المائدة ويقصد الى غرفة المكتب حيث اعتاد أن يشرب القهوة

« ان الليل عون للضعف . لأنه يغير وجه الاشياء ، ولكن النهار يجلوها ويبديها على حقيقتها . فلا بأس الآن من العود الى رسالة ليلى فما أظن أنها بعد عام ونصف عام تكتب الي لتقول فقط أنها سعيدة ولتامرني بعدم اللحاق بها »

وكانت المرارة التي في نفس ابرهيم من ذلك الضرب الاخرس الذي يعي الانسان العبارة عنه ، لا كتلك المرارة المضبوطة الحدود المحبوكة الأطراف ، الوضاءة كالماس ، وكان ابرهيم رجلا ينقصه

التواضع وان كان لا ينقصه الـكبر أن يكون به كبر على حد معبر أبي فراس الحمداني ، وكانت لغته صورة من روحه ، وألفاظه كأنما تدرك أنها درر ولآلىء تلقى تحت عيون الخنازير . وكان برص العبارة فوق الأخرى ويكظها جميعاً بشخصيته حتى لتحس أن ألفاظه ملأى بمعانيه هو ، ومثقلة بخوالجه هو وانه لا سبيل لك الي رأى أو احساس فيما وراء هذا الـكوم المـكدس من الاراء والاحساسات وان عليك أن تبتلع بلا تردد ولا مضغ .

وبهذه الروح اتثنى الي رسالة ليلى ، ولم يخطيء ظنه ، ولو أخطا لاعتد ذلك من ذنوب ليلى ، وكانت الرسالة طويلة وفيها خلاصـة تاريخها مذ توفى والدها الي أن رفعت عنها وعن أختها الوصاية . وفيها تشرح كيف أغواها الوصى وعبث بعفتها ثم حاول أن يتزوجها ليستولى علي مالها بعد أن بدد منه جانباً ليس بالقليل ، ولـكنها لم تشر الى الجنين الذى أماتها الدكتور بيه على اقتراعه من بين أحشائها قبل موعده . وما الداعى الى ذلك وقد تزوجها الدكتور بيه آخر الأمر؟ انه سر لا يعلمه سواه فيحسن الا يتجاوزه الي غيره ، وما دام انه هو قد دفنه ولم يحفله بعد ذلك . فما أولاها هي بأن تتناساه .

وقال ابرهيم لنفسه « يالها من فاجرة ! تتزوج رجلا ثم تكتب الى بلا مناسبة تقول انها تحبنى ! ولـكن هذا غير عجيب ممن علمتها السيارات تصنع الحرارة فى القبل والعناق »

وزادت مرارته قطرة — اذا كان الي هذا سبيل .

الفصل الثانى

«فلنسمع ختام الأمر كله»

هي مقدمة الربيع ، وكل شىء هادئ . والشجر كأنه مستحى أن يظل متعريا وحوله الخضرة مهتزة رابية ، وكأنما هو يبذل أقصى ما فى وسعه ليكتسي ويخرج أوراقه النضيرة الرافة التى ستحجب أشعة الشمس التى أعانتها على الوجود وغذتها وأنمتها . وقد خيل لابراهيم وهو يجيل عينه فى خضرة الارض ورونق السماء وصفاء الجو كان بالازهار دهشة لهذا الدفء الجديد فى الدنيا . فهى لاتزال تبدو كالمترددة المشفقة أن تبرز فى حفل من زينة جمالها مخافة أن يكون الشتاء انما يخادعها ويغالطها فى حقيقة الزمن ، حتى اذا اطمأنت عاد فحمل عليها بهره وصره .

وكان إبراهيم قد عاد الى مارى بقلب مثقل وعين غددة ونفس غير مرتاحة الي اعتياض الذى هو أدنى من الذى هو أعلى . وكانت شوشو قد زوجت الدكتور محمود ونقل هذا عيادته الي الاسكندرية واستطاع أن يوطد مركزه فيها وان يوسع دائرة عمله وعلم إبراهيم أن شوشو راضية شاكرة وأنها وامقة موموقة ، كذلك حدثته أمه فى صبيحة ذلك اليوم فى مستهل الربيع وزادت على هذا بعد ان

« لقد كنت أفكر فيها لك »

فلولا خلو ذهنها من الحكاية كلها للاحظت سهومه وتحجر نظرته وكفه بعد ذلك عن الكلام ، ولكنها لم تكن تعلم شيئاً مما عانى ابنها ولم تر موجبا للالحاح فى أمر لاجدوى فيه ولاطائل تحته ، وأوهمها صمت إبرهيم أنه لايزال يكره أن يقترح عليه الزواج ، كعهده مذ ماتت زوجته ،

ولم يستغرب إبرهيم أن يتزوج الدكتور محمود من شوشو ، ولم يخطر له أن يسأل كيف رضيت نجيـة أن يتخطى الدكتور اختها سميحه . وإن كان هذا كله قد حز فى نفسه ، ولم يدهشه ماسمعه عن حب شوشو للدكتور . وقال لنفسه لعل هذا الحب الذى يصفون أكذوبة راضت شوشو نفسها على مقتضياتها . أو لعله حب صادق جاء كرد الفعل . أو لعله كان كامنا فى زاوية من زوايا نفسها وهى لاتدري وقد كان هو — إبرهيم — يحب ثلاثا من النساء فى وقت معا وهو مدرك لهذا التثليث فلا عجب أن تحب شوشو اثنين وهى غير مدركة لذلك . فيكون أحد حبيها طافيا على اللجة ويكون الآخر راسيا فى قاعها . وعسى أن يكون الراسب أرسخ وأقوى .

على أن إبرهيم رجح عنده ان حب شوشو له هو ، لم يكن حبا لشخصه وانما كان عاطفة جنسية قائمة بذاتها ومستقلة عن كل شخص معين ومتعلقة بالرجولة بمعناها الواسع ومدلولها الاشمل . فمن السهل أن تتحول من شخص معين الى شخص آخر معين مادام أن كلا منهما موافق صالح . لأن العاطفة فى هذه الحالة لاتكون حبا لفلان بالذات . بل فورة نضج انثوى تبغى الرجولة والسلام . وبدا لابرهيم

أن هذا التعليل أصح وأسد . فإن الحياة المصرية وتقاليدها تعين على هذا النوع من الحب القابل للتحول — اذا صح هذا التعبير — والفتاة المصرية — في الاغلب والاعم — تذهب الي الزوج وهي لاتحمل له حبا ، وانما تحمل له تضجا جنسيا قابلا لان يتعلق بشخصه اذا ساعفته الظروف وأحسن هو سياسته واستطاع أن يوجهه الي نفسه . وما أكثر ما يبدأ الزواج في مصر بلا حب . وليس بالنادر أن يبدأ بمقدار من الكره الخفيف . ثم لاتلبث المعاشرة والاحساس بالواجب — حسبما يدرج كل من الزوجين على توطين النفس عليه — ان تفضيا الى مايشبه الحب المتبادل وان كان من العسير أن يسمى حبا لانتفاء امتحان الوسط واغرائه. وذلك ان المرأة الغربية يقبل عليها الرجال و يهجمون عليها، وفي مرجو كل واحد أن يفوز بها . وهذا امتحان لها واغراء . ثم ينتهي الامر بايثارها أحدهم بعد أن تنخل عواطفها وخوالجها ، وتعرف ان هذا الاحد الذى تؤثره هو الذى تصبو اليه وتتمثل فيه معاني الرجولة التى تطلبها اوتنشدها

وقد تخطىء في الغربلة أو يدفعها ظرف غير الحب الى التحيز ، ولكنها تجوز الامتحان على كل حال فاذا أحبت كان حبها لا شك في أنه لشخص معين ، أما الفتاة المصرية فقلما تتاح لها فرصة هذا الامتحان . والاختيار عندها في أضيق دائرة ، وقد لا يكون ثم اختيار تاما ، فحبها للرجل شبيه بالحب الذي صهره الامتحان ومركزه الاغراء ، ولكنه ليس به ومن هنا كان ايمان ابرهيم بحب نيلى قويا وخيبة أمله فيه عظيمة .

على أنه ما عتم أن انصرف عن ماري أيضا — انصرف عنها

بسبب لا يصرف سواه لفرط ما انطوى عليه من الشذوذ ، ذلك انه قصد الى دارها عصر يوم — بعد أن اتصل به زواج سوشو بايام فقالت له الخادمة انها مستلقية على سريرها فليدخل عليها اذا شاء فألقاها نائمة .هذا هو السبب ، والقارىء معذور اذا استغربه ولكن أعصاب ابرهيم كانت مضطربة مرتبكة . فخرج وهو يقول لنفسه :

« انه ليس ثم ابشع من منظر الانسان وهو نائم — فان النوم حالة ذهول ينبغى أن لا يطلع عليها أحد ، — ذهول عن الدنيا القائمة القاعدة ، وبلادة حيال حركتها الدائمة، ولقد حاولت أن لا انظر الي ماري ولكني كنت اسمع انفاسها ولا استطيع ان احول عيني عن وجهها المتعب المكدود . وقد كان هذا حقيقاً ان يدفعني الى العطف عليها ولكني احسست بعد برهة ان معين عطفي قد نضب . واني لم اعد اعبأ أنائمة هي ام ميتة »

ولم يخبرها ابراهيم ولا حاول ان يلقاها ليشرح لها هذا، لانه خشى ان لاتفهم فيبغضها وهو يكره ان يضطر ان يكره الناس

— ٢ —

وقالت له امه ليلة بعد ان ظلت برهة مطرقة تنظر الي سبحتها وتخالسه النظر :

« يا بني . الم تفكر فى الاستقرار؟ »

ولم ترد . كانما كان هذا سؤالا اخطره ببالها منظر حبات السبحة وهى تتداولها باصابعها فنهض إبرهيم وقال وهو يتمشى وكأنه يناجى نفسه :

« الاستقرار ؟ ! ان البيوت الثابتة انما اخترعت لان الانسان اشتهى السلامة وطلب الامن ، وأراد ان يكون مطمئنا الى ما يتوقع؛ فان الخيال لعنة — أو هو كذلك فى اعتبار اكثر الناس أو فى تجار بهم وقل من يشعر بالراحة مع الخيال ، لانه مزعج مقلقل . والحياة تظل تجربة حتى يكون للانسان بيت . ويشعر أنه له ويصبح هو ملكا لهذا البيت مشدودا اليه مقيدا به . والناس فى العادة ترتاحون الي هذا الشعور و يحبون ان يكونوا على يقين من أن هناك وسادة يضعون عليها رؤوسهم كل ليلة . وان هناك امرأة يسمونها الزوجة ترقد الى جانبهم . نعم فان الانسان انما يطلب البيت لانه يطلب الزوجة . وهو يطلب الزوجة لانه يريد أن يريح نفسه من متاعب الاحساس الجنسى . كانما هو يريد ان يفرغ من الامر مرة واحدة وفى لحظة . . هذا هو الاستقرار . . وليس فيه ما يخدم الآداب والفنون او يساعد على التقدم . . . »

فنهضت وهي تتمتم بالدعاء له .

وكتب ابرهيم بعد ذلك يصف ليلته تلك :

« هي ليلة حالكة متراكبة الظلمة ، وفى الصدر ضيق ، فاين عن صحرائى أعدى ، صحرائى التى لا يلقط الطير فيها حبا ولا يجوب في خرابها قلب قلباً . ولا يغيرها صيف أو شتاء . ولا يدوم عليها الا العفاء ؟ — كذلك كانت قديماً وكذلك أبقاها الله . . . لي ! ولكم توهمتها وأنا أضرب فيها . وأطوف فى فيافيها . وجهاً مستعذراً يبدو فيه « الوجه الأعظم » متقنعاً ! ولكم وقفت أدق رملها بقدمي وأفحص فيه بعصاى وأدمدم كالذى يريد أن يرقيها

بالعزائم ليشفيها من هذا السحر الذى ضرب عليها وألزمها المحل . ولقد أعجب فى الليالي القمراء كيف لا تحسر وتنفض عنها هذه الرمال وتبرز للقمر الذى يناجيها ضوءه وينام على صدرها المتموج — فى مثل وشى الرياض تنفح روحاً وريحاناً ، ويتداعى الطير على أيكها إعلاناً وتتهدل أغصانها فتسمو « وتمس الأرض أحياناً » ؟

وقالت الرمال لى وأنا اقتلع منها رجلى اقتلاعا إذ أخبط فى الصحراء . والريح تجذب أطراف الرداء

بودى لو تماسكت حبـاتي . وثبتت ذراتي . ولانت مواطئ لقدميك . ولـكنى مثلك لا حيلة لي فيما قضى به »

وهتف بى هاتف من جانب سمائها التى عفت الظلمة آي الهدى منها .

« ليتنى استطيع أن أسدد خطاك . وأنير لك الطريق الذى تخوض فيه قدماك وأريك عينك قبل مذهبك . ولـكن لنا آبيناً[1] لا نملك خلافـه . وقانوناً لا نستطيع تأويله واعتسافه . وما نحن وأنت الا سواء . وهـل تراك تملك من امرك كثيراً او قليلا ؟ »

* * *

وهبت الريح بي كالمجنونة . فعدت وكأنى امشي على ماء يجى يعلو ويهبط . وسفت الرمال فى وجهى حيثما ادرته كأنما أرادت الحياة ان ترجمنى ، وتسابقت زمازمها الى اذنى فوقفت مكاني لا اريم .

---

(١) الآبين القانون

وقلت لنفسي « ماذا يصنع العود النابت فى الخلاء هبت به مثل هذه الرياح الهوجاء ؟ يلين او يتقصف! »

فملت الى الارض حتى سكنت الثورة وهدأت الفورة . وجعلت افكر فى هذه الحياة الغريبة التى يمتزج فيها الصراخ بالغناء . ويختلط بها الألم والطرب . واقول لاشك ان الحياة عمياء صماء فليتها توهب البصر هنيهة لترى هذا الخليط من الحسن والقبيح والخير والشر ! ويا ليت من يدري ماذا تصنع اذن ؟ اترى يثور بها الخجل فتعصف بكل شيء وتمحوه ؟ ام تأخذ فى اصلاحه وعلاجه فى صبر واناة ؟ أما لو كنت انا الحياة لتناولت ما اخرجت كفاى من طينة الأرض المحدودة ودككته وحطمته ثم ذروته لهذه الرياح ! فهمست في اذنى الرياح

« ما الحسن وما القبيح ؟ وما الحزن والسرور ؟ وما الخير والشر وما الاحساس والعقل ؟ والخصب والجدب . والصحة والسقم . واليأس والأمل . والبكاء والضحك ؟ »

فرفعت رأسى حائراً . وادرت عينى واجماً . ثم اطرقت مصمماً ثم نهضت امشى !

ودلفت بى رجلاى الى المقابر فتخللتها الى جدث فيه شقة ماضى ، وقعدت واسندت ظهرى الى حجارته . وانا اقول لنفسى « الموت على الأقل راحة . فليت الحادى يعجل بنا ! فقد سئمت الحياة ومللت النظر الى وجهها الملطخ وثوبها المرقع . واشتقت ان ارقد هنا الى جانب . . . . . »

فخلص الى صوت من جانب القبر أن «لا»

قلت « كيف لا ؟ »

واستدرت حتى واجهت اضواء القبر

قال الص - « لا . على التحقيق . ان لى هنا سنوات لا اع

. ـ مما توهمنى وحشة الوحدة التى تطيل ايامى التى

ـ . او لعلها كثيرة فما ادرى وقد حجبت عن الدنيا

من مرة واحدة لقلت لك صدقت ! ولكنه تموت

. واحد من الاحياء . ويشتمل عليه الفناء شيئا فشيئا

لافضل تذكرنى فتى يذكراك . فلا سامتى الى العفاء

لسنا نألم الرقاد هنا . وان كانت ظهورنا توجعنا احيانا

. ولكننا نألم فتور الذكرى عنا واشفاءنا على انتف الاخير .

ـ قبرى — فى حجره أخرى — جد اعلى لى . مسكين

ـ ! قد استوفى ميتاته جميعا ولم يبق منه شىء ! . . وليت

ه ينفعه ! اذن لردت اليه بعض الوجود . ولكن هيهات !

دى ىدكر ىس موها دون مى ىم ى جوفى دىلى

لت « ولكن اذا تعلقت بالحياة فلا معدى عن احد دو عىد

يسوءك ذلك ؟ »

قال الصوت « كلا ! سيان عندي ان تفي لي ولا تفي . ومن

ـ ان تتكلف في الحفظ فانى بعد ان مت ، لا يسعنى ن ادليت

كر الذي تستحقه او تنتظره . ولا التمست الى وفائك او غدرك

ـ لا ادرى فوق هذا انك لا تذكرنى لذاتى ل لنا طا ـ ه ىسب

عل ما بدا لك . ولا نعى نفسك بى من هذه الناحية . ولكن

قى لى رفعة صغيرة فى زاوية من ذاكرتك افيد بها عىـ ، ىعد ؟

قلت « فاذا نسيتك كغيرى ؟ »

قال الصوت « اذا نسيت ؟ آه ! ولكن مالنا وما لم يقع ؟ دع هذا الى اوانه . وعسى ان يكون بعيداً »

قلت « حسن . سأحيا من اجلك . واتقى المها . . . ؟ اما الثنا وضنا بك ان تلحق الاموات جدا ! »

قال الصوت اتفقنا . فالي الملتقى ! »

فسرت فى بدنى رعدة خفيفة ولم يسرنى ان تقول « الي الملتقى ! ونهضت عن القبر ممتلئا رغبة فى الحياة . وضنا بها وحرد وعدت ادراجي الي دارى خفيفا كأنما حططت عن كاهلى وجعلت اقول فى الطريق

« نعم ساحيا من اجلها ! »

ولما ادرت المفتاح فى الباب همس فى اذنى الشيطان اللعين

« تقول من اجل من ؟ »

وقهقه !

فغاظنى ذلك وأخجلنى أيضا . فاشحت بوجهى وأ . فدخلت وأغلقت الباب فى وجهه ! »

كتب أخرى للمؤلف

١٠	ديوان المازنى	جزءان — نفدا
١٠	حصاد الهشيم	يطلبان من المطبعة العصرية بالفجالة
١٠	قبض الريح	
٥	صندوق الدنيا	يطلب من المؤلف بدار جريدة السياسة ومن دار الترقى للطبع والنشر بشارع الساحة
١٠	ابن الطبيعة	(مترجمة) تطلب من مسامرات الشعب بشارع محمد على
٥	رحلة الحجاز	تطلب من المؤلف ومن المكتبة التجارية بشارع محمد على